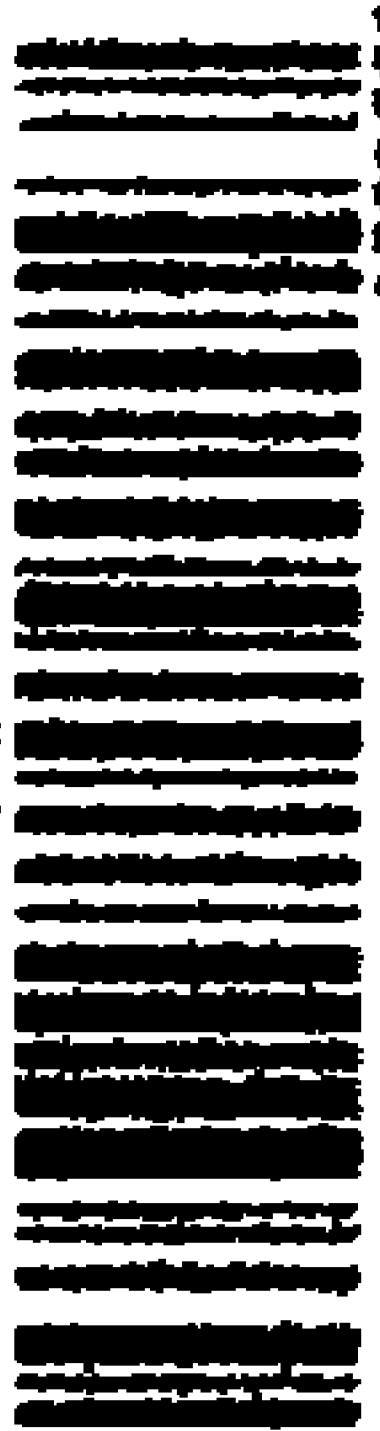




Bibliotheca Alexandrina



0128847

الأدب الإنجليزي

الطبعة الأولى

١٩٤٨

دائرة المعارف الأدبية العاطية

- ٢ -

الأدب الإنجليزي

تأليف

بول دوتمان

ملتزم الطبع والنشر
دار الفكر العربي

دائرة المعارف الأدبية العالمية

صدر في ٢٥ مجلدا

قام بنشرها : دار الفكر العربي

بإشراف أساتذة الجامعات المصرية

ونخبة من كبار الكتاب في مصر والعالم العربي

تتضمن « دائرة المعارف الأدبية العالمية » على :

- ١ — سلسلة من الكتب القيمة تناول تاريخ مختلف الآداب مدعما وحديثها ، غربها وشرقها
 - ٢ — سلسلة يتناول كل كتاب من كتبها مدعما من المذاهب الأدبية (الكلاسيكية ، الرومانسية ، الرمزية . . الخ) .
- وسيتيح هذا كله لقارئ أدبي مرتب على حسب حروف الهجاء بترجم لأدباء العالم قديمهم وحديثهم ، ويحصى الآثار الأدبية العالمية الكبرى ، ويتناول كل ما يتصل بذلك من أسماء الأبطال والمواقع والبلدان وغير ذلك .

صدر منها :

الأدب المقارن تأليف فان تيجم	وعمه ٢٠ فرشا
الأدب الانجليزي تأليف بول دونان	وعمه ٢٠ فرشا

ويصدر قريبا

الأدب الفرنسي ، الأدب الروسي ، الأدب العربي
الأدب الهندي ، الأدب الألماني ، الأدب الأمريكي
الأدب الصيني ، وغير ذلك . . .

ثمة - حليم

ناس في بيتنا أن نكتب شيئاً جديداً في تاريخ الأدب
الانجليزي ، للطامة . أضف إلى ذلك أن هناك كتباً ممتازة في هذا
الموضوع ، ككتاب الأستاذين لرجوي وكازاميان ، الذي لا يفوقه
كتاب . وإنما نحن نرى إلى غاية أخرى . فقد راعينا مستوى
الباريء المتوسط من جبهة الناس الذين يحبون أن يثقفوا
أنفسهم ، فحاولنا أن نستخرج من الأدب الانجليزي ما بقي منه
حياً بالتمسك ، فمررنا مرور الكرام على الكتاب الذين لا يعني
أمرهم غير المختصين ، بل أغفنا ذكرهم إغفالاً في بعض الأحيان ،
ووقفنا وقفات طوالاً على المهود الأخيرة والمعاصرة ...

وقد يرى بعضهم أننا ضللنا سواء السبيل ، ومهما يكن من
أمر ، فإن خطأنا — إن كان ثمت خطأ — قد صدر عن سلامة
نية وحسن إيمان . أضف إلى ذلك أننا زبد لهذا الكتاب أن
يكون مرشداً لا أكثر . وكل ما نرجوه أن يساهم في أن يجب
إلينا هذا الأدب الذي يشبه أدبنا من كل الوجوه .

بول دوتاه

الفصل الأول

الأدب الانجليزي قبل تشوسر

١ - الليل الانجلوساكسوني

جرت العادة من قديم الزمان أن يبدؤوا تأريخ الأدب الانجليزي بأولى قرزمات^(١) الغزاة الساكسون . فعملاً بهذه القاعدة التقليدية المرعية ، ونزولاً على إرادة هذه الأحكام السابقة المحترمة ، إنما نتحدث الآن حديثاً موجزاً عن الأدب الانجلوساكسوني . تسمى بهذا الاسم طائفة من المؤلفات كتبت بلهجات جرمانية مختلفة ، ونبشها الباحثون من زوايا النسيان إبان القرن التاسع عشر . وهي تعنى الباحث اللغوى عناية عظيمة ، إلا أنها لا تعنى مؤرخ الآداب فى شيء . وحين ظهر الرعيل الأول من الكتاب الانجليز الحقيقيين فى القرن الرابع عشر ، كانت هذه المؤلفات قد ماتت ، ولم يكن فى وسع أحد أن يفك رموزها لو شاء ذلك . . .

وباليتها تنقل إلينا ذلك الشعر البدائى الخشن . . . شعر

(١) عرزم الشاعر شعره : جاء به ردبثا .

الأنجليز والنجو تالانديين والساكسون الذين استولوا على كل انجلترا
(ما عدا المناطق الجبلية في الغرب والشمال) في نهاية القرن السابع
إن هؤلاء الوثنيين الجفأة كانوا قد اعتنقوا النصرانية أفواجا
في نهاية القرن السادس . « فأديهم » أدب مسيحي ، يحاولون أن
يدخلوا المسيحية في كل شيء . فالشاسون الذين نقوا قصص
الأجداد فيما بين القرن السابع والقرن التاسع ، أبدلوا كل ما كان
يتألف ديانهم ، فأثقاوا النصوص ، حتى ينصروها ، بما يطلق
وهذا يطلق . إن الأدب الأنجلو ساكسوني أدب هجين :
وليد رهبان علماء وبرابرة مطاوع . . .

على أننا نستطيع أن نكتشف في شعر الشعراء
الأنجلو ساكسونيين الذين يسمون بالمنشدين فنونا باقية من
الجمال . ولا سيما في وصف البحر . وبينما نرى البحر في الآداب
السلتية طريقاً يؤدي إلى أرض غريبة عجيبة ، نرى البحر عند
هؤلاء الأنجلو ساكسونيين قوة هائلة قائمة ، تكره وتحب في
أن واحد .

ولغة هذه القصائد لغة جافة صخرية تسود فيها الأحرف
الخرساء ، تنفجر وتفرقع ، ويتناول بعضها على بعض ، وتشدد
في بداية الكلمات ، فكأن هذه اللغة قد وجدت لتدوَّى في أرجاء

رايات، وألوان، وأصوات، وساميات، وأصوات، وأصوات، وأصوات،
بالأصوات، وأصوات، وأصوات، وأصوات، وأصوات، وأصوات،
أصوات، وأصوات، وأصوات، وأصوات، وأصوات، وأصوات،
الأصوات .

والشعراء الانجليز ساكسونيون مواعون جميعا باستعمال
الأحاجي التي تتميز بها الشعوب الطمعة . ويتجلى ذلك في
إكثارهم من الدور في الكلام . فكما كانت العبارة أعقد كانت
أدنى إلى القبول والرضى . فتراهم لا يقولون « الأرض » بل
« حظيرة الجوّ » ، فإذا قلت « السيف » كنت تستعمل كلاما عاميا ،
أما إذا شئت التعابير النبيلة الراقية فقل « سيد السلاح » ،
و « الثروة العالية » و « الحلية اللامعة في المعارك الحامية » . وإذا
سمعت أحدهم يقول « سائح الأمواج يبحر » ، على خشبة البحر ،
طريق الحيتان ، فاعلم أن ترجمة ذلك هي : الملاح يعبر على
قاربه البحر . والمصيبة أن هذه التعابير المركبة — وهي أصيلة عند
من ابتدعها — لا تلبث أن تصبح كليشيات . وما يزيد في غموضها
ما يعمدون إليه من تركيز الأسلوب حتى يصبح أشبه بأسلوب
التلغرافات ، وما نلاحظه من تغير في الموضوع بدون ما داع ،
ومن تراكم الاستعارات في غير ما انتظام .

و هذا الرابع بالاسم هو الذي بدأ بالانتسابين إيا ، نظم
أنا في شعره ، ثم بدأ بالجليحة و بالبيان اليرمية ، وكثيرا ما يخرج
من قوافي النوف ، وتسف إلى البذاءة المقذعة . ومع ذلك فلعل
هذه النقصات الصغيرة أن تكون أقصر ما في الشعر
الأنحاز ، ما كنون إلى الاستعمال .

أما النقصات الدالة فما أذن . أنا يقرؤنا راديا ، كالمحمة
بيولف الكبيرة المولفة من ٢١٨٢ بيتا ، والتي اقترنها أحد
الشعراء في القرن التاسع من أسطورة دانماركية قديمة ، يريد
أن يعزف لها مسيحية على طبول وتبلة .

وتروى لنا هذه الماحمة كيف أن « بيولف » بطل الغوت
مضى إلى تحفة ملك الدانماركيين ، الذي كان يسكن قصره شيطان
في صورة إنسان يدعى جرنندل . فلما وصل « بيولف » اشتبك
مع الشيطان في معركة حامية ، جسيما لجسم ، وما زال به حتى
انتزع إحدى ذراعيه . ويموت الشيطان في مغارته ، فيبدو
للقارئ أن القصة انتهت ، ولكنها ما تابث أن تقفز مرة ثانية ،
فإن جرنندل أما أشد من ابنها بأسا ، وأصعب مراسا ، تهب
للاتقام من ابنها ، فينبري لها بيولف ، وما يزال يلاحقها حتى
يصل إلى مغاره تحت البحر ، وهناك يتنكب في معركة حامية
تنتهي بنفخ البطل وموت الجنية .

ثم تستأنف الحكاية مرة ثالثة . فإن بيولف يصبح ملكاً ،
ويحكم مدة طويلة ، فيحتاج مملكته تنين تندلع من فم السنة من
الذهب . فيدفع صاحبنا ، إنقاذاً لشعبه ، إلى منازلة التنين ، فيظفر
عليه ، ولكنه يجرح جرحاً قاتلاً فيموت . . .

ولا شك أن قد كان في هذه المراحل الثلاث مادة صالحة
لحكاية جميلة . ولكن مؤلف « بيولف » رجل حزين ، فلم
يستطع أن يغنى فرح القتال . وكان يعوزه الخيال على وجه
الخصوص : فلعل في إمكان صبي صغير أن يصف موت الجنية
بأكثر من تلك الإشارات السريعة التي وصفه بها الشاعر ،
حيث قال : « كان كالوحش في النضال ، قد يئس من حياته ،
فاستولى عليه الغضب فأغمد رمح الصلب في عنق الشيطان فحطم
عظامه وهشم لحمه ، وخرت الجنية على الأرض ،

وبعد ، فهل نجد في القصائد الدينية تلك النغمة الحماسية التي
أعوزت بيولف ؟ كلا ، للأسف . على أن هناك أسطورة جميلة
جعلنا نعتقد أن الوحي الإلهي لم يعوز المنشد الأول الذي غنى
ملحمة الإنسان . كان يدعى كدْمُون ، وكان يعمل
خادماً في دير هِلْدن . وكان امرأً خجولاً جاهلاً ، حتى أنه

كان ، إذا أتى دوره في الغناء في الحفلات والولائم ، يهرب خجلا وحياء . وفي ذات ليلة ، بعد أن هرب في مثل هذه المناسبة ، وترك قاعة الشراب ، مضى إلى الاسطبل الذي كان يخفّره ونام . وإنه لفي إغفائه الأولى ، إذا بكائن من نور يأتيه في المنام ويناديه : — « كدمون ، غن لي شيئا » . فيجيب : — « أغني ؟ إني لا أحسن الغناء . ومن أجل هذا تركت المائدة ، وأنيت إلى هنا » ، فيجيبه الملاك : — سوف تغنى مع ذلك .

— ولكن ماذا أغني ؟

— غن لي نشيد الخلق .

وأخذ كدمون ينشد أليانا في تمجيد الخالق . فلما استيقظ تذكر هذه الأبيات . ودهش الذين كانوا حوله دهشا عظيما ، ومنذ ذلك اليوم أصبح يعد شاعرا كبيرا .

إلا أن الملاك الذي ظهر لكدمون لم يكن ، وأسفاه ، لملك ساطة تامة ، فإن كدمون وتلاميذه قد خلفوا لنا قصائد غاية في البلادة ، فنظموا التوراة نظما أخرق ، وأفقدوها ما فيها من قوة رائعة ومذاق عذب . ولكنهم كانوا في بعض اللحظات يتردون شيئا من القوة البربرية حين يصورون الشيطان وهو يعول من الغضب .

وهناك كذلك شيء من القدر في بعض النثر ، أنهار ، نوله
وهو من قتيان المنشدين ، وكان في سباتيه نيل نور تباريا ، وكان
فارسا جميلا ، يؤلف الألغاز ، وينظم شعرا في الحرب ، ويمجد
الحمر ، ويمجد الحب . ولكنه على أثر علم ظاهر له فيد السليبي
المقدس اشماز من حياة المحون ولم ينظم بعد ذلك في غير
التقوى . وأحسن قصيدة ملحمية له هي « المسيح » ، وفيها ينثر
التجسد والقيام والحكم الأخير .

أما النثر الانجلوسا كسوني فهو أقرب إلى الدقة وأدى إلى
الانسياب الطبيعي ، ولذلك بقي حيا أكثر من الشعر . والحق أنه
يتبع خطى اللاتينية ، حتى إذا اتعد عنها رأيه يتعثر ويظلم . وقد
أمر الملك ألفريد ، قاهر الدانماركيين في القرن التاسع ، بترجمة
آثار بعض الشماسين المصطفين أمثال أورو ، وبوتيس ، وبيد
والقديس جريجوار الكبير ، وبفضله خرجت رواية الأخبار
الانجلوسا كسونية عن كونها تعدادا جافا للوقائع ، وأصبحت
تحتوي على قصص تاريخي حقيقي . فعاش هذا الملك على رأس
نهضة أدبية عقلية أخلاقية . ولكن المؤسف أن هذه النهضة لم
يكن لها غد .

والفنان الوحيد في النثر الانجلوسا كسوني هو الراهب

إنشائه، الذي أكتبه الإرهاف، الأكبر في العام ألف، طبعة
وُتيرة، صادق، وقد كتب كتباً في حياة القديسين لا يزال لبعضها
كتبها، «حياة إزولد» و«حياة إدموند» و«حياة سوزن قيمة لدى
المؤمنين بالكتب الدينية». وقد خاف كذلك خطباً في ثر
موزون لا يتناو من التناغم والإنسجام. ولعل فيه استعداداً
لأن يكون شاعراً كبيراً، ولكن اللغة التي كانت في متناول يديه
كانت من النقر بحيث لا تسمح له أن يهبر عن رؤاه وأحلامه
على النحو المنشود.

٢ - الفجر : عهد الانجليزية الوسطى

لقد غير الغزو النورماندي (١٠٦٦) العادات الانجليزية
تخييراً حاسماً إن لم يظهر تأثيره في ميدان الأدب بمثل السرعة التي
ظهر بها في ميدان الإدارة، فقد كان تأثيراً عميقاً في الجوهر
والصورة جميعاً.

وأصبح الكتاب الانجليزي منذئذ يتوخون النظام والوضوح
والمنطق، وأصبحوا يغنون الفرع والحب والموسيقى، وأخذ
الناس يضيفون إلى المفردات الساكنونية ألفاظاً فرنسية،

واستفادوا من التركيب الفرنسي المرن الذى يطلق القلم ويسر.
النعبير ، وأصبحنا نرى الشعراء لا يعوون عواء على النحو الذى
رأينا ، بل يتحدثون عن عواطف القلب واندفاعات النفس
فى كلام لى جميل ، فالأحرف الخرساء تفسح المجال للأحرف
الصوتية ، والوزن يرقى إلى القافية ، وعدد المقاطع يحل محل
تشابه الأصوات .

وطبيعى أن النصوص الدينية ، سواء فى الشعر وفى النثر ، هى أوفر
النصوص وأغزرها . ومنها ما لا يطاق لحذلقتها مثل « الأورميات »
من تأليف الراهب أورم وهى نظم للأناجيل الأساسية . إلا أن
منها ما يمتاز بسذاجة رائعة مثل « سنة السيدات المترهبات » ، وهو
كتاب فى الحياة المسيحية يتوجه به مؤلفه إلى ثلاث سيدات
يرغبن فى العزوف عن العالم ، ومؤلفه أسقف لا يدخر شيئا من
النصائح فى تنظيم العبادات ، حتى ليبدى بنصائح فى اختيار الجوارب
والغلائل وأربطة السيقان .

وتبلغ البراءة والسذاجة بالمؤلف أن كتابه يشوق القارىء
الحديث أعظم الشوق . وما أجمل تلك الأوصاف التى ذكرها
ريتشارد رول ، ناسك هامبول فى كتابه « وخز الضمير » ، عن
الجحيم الذى يشرب أهله النار ويمصون رؤس الأفاعى .

وإناك لذتت في بعض النصوص الدينية الصرفة من حين إلى
حين على روح شعرية ظاهرة ، كالمحاورة الشعرية الرمزية بين
البوم والهزار التي تبتدىء بوصف جميل للطبيعة :

« بدأ الهزار بغرد ، في ركن من الوادي ، على غصن جميل ،
ومن حوله أزهار كثيرة على سياج كثيف برى ، من طويل
العشب وتخشو ضر الخيزران . . . وغير بعيد من ذلك يقبع
جذع قديم مهطوع ، يشبه اللباب ، وقف عليه البسوم
يرسل ألحانه .

« ثم تبدأ المناقشة : أينا أحسن غناء ؟ أما الهزار فيقول إنه
يعنى الشباب الطروب ، يعنى فرحة الحياة ومجد الخالق ، وبالغناء
سوف يحظى بعطف السماء . وأما البوم فيزعم أن السماء تنكر
هذا الإسراء . وأنه لا يحظى بعطف السماء إلا البر المتكشف
المتبذل . وأما من هو الحق فإن المؤلف لا يعان في ذلك عن رأى ،
والشباب والكهول هم الذين سيفطعون برأى ، كل وما جبل عليه ،
وفي القصيدة الرمزية التي عنوانها « اللؤلؤة » (١٣٥٠) نسمع
لأول مرة ، في الشعر الانجليزى الدينى ، نغمة صوفية : يفقد
أحد الآباء ابنته مرجريت . وإنه لنائم على قبرها في ذات يوم
صائف ، إذا هو يعلم أنه يدخل بلدا من نور وجمال ، بلدا

في ذلك اليوم ، رأى راهباً من الرهبنة ، وهو يحمل الزاد ، في النهر ،
 النهر يرى ، الأب يصلي في السماء كزنبقة ، مقبلة عليه
 وسار بها لؤلؤة لامعة ، ويحسبها الرجل ابتداءً من أطرافها
 المزيانة بالآلى ، ألفت اللؤلؤة التي أفتتحت على يديها ، فتجيبه الـ . . .
 بأنه لم يفقد ابنته ، وإنما هي تعيش في روضة راتنة ، وليدتها
 يلحق بها ، وما غير الموت بقادر على أن يسلبه يعبر النهر . . .
 تشير إلى راية يستطيع أن يرى منها القدر ، البديعة
 الرجل إلى الراية مسرعا
 صفوف الملائكة ، وطوائف العذارى في ثيابهن البيضاء ، يرى
 لؤلؤته اللمعة ، في غمرة من النور والجمال والفرح
 جهد اليأس أن يلحق بها
 قبر ابنته

ولاشك أن خير الآثار غير الدينية في هذه الفترة هي القصائد
 الطويلة التي تسمى خطأ بالتاريخية ، والتي استمدت وفائدها من
 كتب التاريخ أو روايات الفروسية
 راهب يعيش على حدود مقاطعة ويلز ، نظم ، شعرا ، كتاب
 «الفظ» لصاحبه ويس الانجاء نورماندى ، واستطاع هذا
 الراهب الذي اعتاد أن يعيش قريبا من السماء أن يحيط قصة
 «المائدة المستديرة» ، بجو من الخرافة والحلم لن يتبدد أبدا .

يرتفع على المادة البروتانية في أكسدة برفق بابتداء من قوامها
الذي هو الأول من القرن الرابع عشر، وهي «سيرجور والنارس»
التي تسمى «يرون الشاعر في هذه القصيدة» بلغة جمافة مستخرجة،
من هذه واقعية. ما كان من أمر آرثر وفرسانه حين تعمداهم
تتلاقى أن سر يمتلئ صهوة جواد أخضر، فاستجاب آرثر للتحدي
فدبر دس، عذبه بحد فأمر.

وفي هذه المعلقة لا يظهر الشعر القصصي كما يظهر الشعر الغنائي
ولكن السكوخ الصغير ابنيل خبر من قصر منيف قبيح. فإن
هذه الدليل القصيرة التي خلفوها لنا في هذه الفترة تحتفظ بالكثير
من الشباب الفتي والطاراة الغضة، مما لا تتمتع به الآثار الطويلة.

« عاد الصيف — فليس الأطياف، ملء الحناجر
« نبت الربيع وأرعب المرعى — واخصو صر العاب، ومن يا أطياف »
« والماعزى تجري وراء التيس — ووراء ثورها تحار البقرة —
« والطباء تنوذب، مريحه. لهد آتى الصيف من يا أطياف، مريحه. »
ولم يظهر الرعيل الأول من كبار الكتاب الانجليز إلا في
الربع الأخير من القرن الرابع عشر.

ولنذكر أول تلك الخدعة الأدبية اللطيفة، أعني كتاب «رحلات
سيرجون ماندفيل» (١٢٧٧) المقتبسة عن چان دي بورجونى
الفرنسى. وكان يعد دليلاً للحجاج الراغبين في أن يعرفوا شتى

الطرق المؤدية إلى القدس . وفيه يصف لنا ماندفيل (وليس له من وجود) العجائب التي رآها : وديان يسكنها جن وأقزام ، أنهار إذا اغتسلت فيها عاد إليك الشباب ، ماس ينبت كما تنبت الأشجار ، جماعات من النمل تعيش على أكوام من الذهب المسحوق ، الخ . . وقد ساهم هذا الكتاب في تشجيع الانجائز على محبة الأسفار ، فليس ماندفيل إلا سافراً لروبنسون . . .

وأما محبة الحكايات الأخلاقية التي كانت قوية كذلك في تلك الفترة فقد وجدت من يرضيها ، وهو الشاعر جون - حور . (١٣٣٠ - ١٤٠٨) ، وهو شماس لم يقبل بين رجال الإكليروس . فعاش ملاكاً في الريف ، وخلف لنا بعض الآثار باللاتينية والفرنسية والانجليزية .

وكتابه الانجليزي الكبير ، « اعتراف العاشق » ، عبارة عن طائفة من الحكايات جمعت جمعاً اصطناعياً . ترسل فينوس إلى كاهنها جنيوس عاشقاً بائساً يبحث عن يعترف له . فيأخذ جنيوس بتوجيه أسئلة منظمة إلى العاشق يتناول فيها الخطايا الكبيرة والخطايا الصغيرة واحدة بعد واحدة ، ولكي يشعر العاشق بأنه ارتكب خطيئة أو لم يرتكب خطيئة يستشهد لكل خطيئة بحكاية ، فمثلاً يستشهد للنفاق بحكاية حصان طروادة ، الخ

وكثير من هذه الحكايات جميلة من ناحية القصص ، وإنما يعوزها روح الفكاهة ووضوح الشخصية . ولا تتجلى شخصية جوور إلا في قصيدته اللاتينية *Vox clamantis* فها هنا يخاف الشاعر من الثروة الطائشة الكبرى في عام ١٣٨١ فتراه يجرؤ على إعلان رذائل الشعب ، ومفاسد البلاط . وكان الفساد ضارباً أطنابه في المملكة الانجليزية ، مما أنطق الألسنة بالنقد ، حتى رأينا من الناس من يعلن انتقاده على نحو أمر مما فعل صاحبنا جوور الرجل الطيب . وفي هذه الأثناء ، كان ويكليـفُ البروتستانتى الانكليزى الأول ، يترجم التوراة إلى الانجليزية : وكانت ترجمته خرقاء ، لأنه أسرف في التقييد الحرفى بالنص ، وكانت مخشوة بالاستعمالات اللاتينية . ولكنها كانت واضحة إلى حد كاف ، فاستطاعت الأساليب التوراتية أن تدخل إلى اللغة الانجليزية ، وبذلك يكون ويكليـفُ قد بذل ماسوف يحصده القرن السابع عشر .

وفي نفس الوقت الذى كانت فيه التوراة تتسرب إلى الجمهور كانت هناك قصيدة شعرية طويلة تصف رذائل الحكام ، وتقدم للقسس نظرة صوفية إلى العالم . وتعرف هذه القصيدة بعنوان « بطرس الفلاح » ، ويظهر أن مؤلفها ، ولیم لانجلاند ، كان

يعيش حياة بوهيمية ، ويكسب قوته من الترتيل في الجناز ...
وكان رأسه طافحاً بأفكار جديدة ، إلا أنه كان فوضوياً
يعوزه النظام :

« ننام أحد الدعاة في صباح من مايو ، فوق روابي ما القرن ، على
مقربة من نهر صغير ، فيرى فيما يرى النائم ، جمهوراً مزدحماً في
وسط حقل واسع ، فيتساءل : علام يضطرب هذا الجمهور ؟
فتجيبه سيدة جميلة هي الكنيسة المقدسة : إن هؤلاء الناس
يهتمون بشئون الأرض بدلاً من البحث عن الحقيقة . وتشرح
له الكنيسة المقدسة ماهي الحقيقة . فيسألها النائم ، وما هو
الكذب إذن ، وترجوه أن يلتفت ، فإذ هو يرى
الكذب والخيانة يهان أن يتزوجا ، ويرى الكذب يلجأ إلى
بائعي المغفرة ، ومتسولي الرهبان ، والتجار ، الخ . ويرى
العقل يحض الجمهور على الذهاب إلى برج الحقيقة . وهنا
يأتي الاعتراف بالخطايا السبع الأساسية ، فيكون مناسبة
لذكر أوصاف شائعة تتناول الحياة في القرية ، والخمارة ،
والدير . الخ . ثم يحزم الجميع أمرهم على أن يبحثوا عن الحقيقة .
فتظهر المشكلة : أي الطرق نأخذ ؟ إلى هنا كانت الأمور غامضة
فحسب . ولكن بعد ذلك يبدأ التفكير . فإذا بنا أمام خليط

من الشخصيات الرمزية ، ومزيج من حكايات التوراة . وفي
النهاية نرى الضمير ، وقد حبسه الحسد والكبر والكسل ،
يستجد بالندم . ولكن الندم يغط في نوم عميق . . فيستولي
على الضمير اليأس ، فيحمل عصاه ، ويقرر أن يطوف في أرجاء
العالم « حتى يجد بطرس الفلاخ » (المسيح) .

وقد قلدت آثار لانجلاند كثيرا . وأصبحت شائعة جدا ،
وهي لا تخلو من القوة والجمال ، إلا أنها تفتقر إلى كثير من
الوضوح والانسجام ، بحيث لا يمكن أن نعد لانجلاند من
الفنانين .

والحقيقة أن ليس في هذا العصر إلا واحد وهبت له موهبة
الشعر : جفرى تشوسر .

الفصل الثاني

جفرى تشومر



(١٣٤٠ - ١٤٠٠)

١ - الشاعر وحياته

هذه هي القمة الأولى من قمم الأدب الانجليزى . فإنما
كنا إلى الآن فى سهل ناعم لا ترى فيه إلا بعض الجموات
تركز عليها قدمك . وتشومر هو الكاتب الانجليزى الأول الذى

تخلص تخلصا حاسما من الأصول الجرمانية .

ولقد كان لظروف حياته ، كسياسى وكرجل من رجال الحاشية ، شأن كبير فى آثاره ، فقد أتاحت له هذه الظروف أن يتصل بجميع أنواع الناس والشعوب والعقليات . وهو ابن تاجر كبير كان يتعاطى تجارة الخمر فى لندن . وقد قضى فترة الطفولة والمراهقة كلها فى المتروپول . وفى السادسة عشرة من عمره دخل فى حاشية دوقة كلارانس . ثم درس الحقوق . وفى هذه الفترة حكم عليه بدفع غرامة قدرها شلنان جزاء له على ضرب راهب فرانسيسكانى فى فليت ستريت . ثم أقام فى البلاط . ونظم قصائد غزلية أذاعت صيته . وحارب فى فرنسا عام ١٣٥٩ ، وأسره الأعداء ، وفك من الأسر بدفع فدية ، وعين أخيراً حاجباً على باب الملك ، ثم فارساً فراقباً للضرائب (١٣٧٤) .

والحادث الهام الذى وجه حياته هو أنه أرسل من قبل الملك ، فيما بين عام ١٣٧٢ وعام ١٣٨٤ فى مهمات دبلوماسية ، وقادته اثنتان من هذه المهمات إلى إيطاليا ، الأولى إلى جنوا وبيزا وفلورنسا ، والثانية إلى لمبارديا . وكان ذلك بالنسبة إليه أشبه بالكشف ، فقد انتفض انتفاضة فكرية مفاجئة ، ففهم ما هو الفن وما هو الشعر .

فلما عاد إلى إنجلترا كانت حياته نهبا بين الأدب من ناحية ،
وبعض المهمات الرسمية الصغيرة من ناحية أخرى . وكان يتمتع
بفراغ كبير ، ولا سيما حين جرد من وظائفه إبان غياب حاميه
جان دي جان ، وكان عليه أن يكتب بجرأة يسيرة لا تدفع
له بانتظام . ومات في عام ١٤٠٠ . ودفن في دير وستمنستر . وكان
أول من دفن في هذا الدير .

وقد امتاز تشوسر بهذه الميزة الكبيرة وهي أنه لم يتكل على
مواهبه الطبيعية ، بل أخذ نفسه بالتعليم الدائب المستمر ، فتأثر
أولا بفرنسا ، وفي هذه الفترة القصيرة ترجم « رواية الورد » ، ثم
تأثر بإيطاليا ، وكانت هذه المرحلة حاسمة في تفتح مواهبه ...
ففي هذه الفترة إنما ابتدع أدواته الشعرية ، أعنى البيت المقفى المؤلف
من عشر مقاطع . وتبنى الإنجليزية لندن ، وجعلها اللغة الأدبية
للبلاد . وقد ترجم أشهر المؤلفات الإيطالية ، وتلاحظ في ترجماته
تقدماً مستمراً ، فكل ترجمه خير من التي سبقتها . كما أنه عمد إلى
طريقة الاقتباس ، وأشهر اقتباساته (١٣٧٣ - ١٣٨٥)
« تريلوس وكريسيدا » و « أسطورة نساء الخير » ، وقد
جمعها من كتب بوكاشيو وأوفيد عن حياة كليوباترة وديدون ،
ولوقريطس ، وأريان ، وفيلو ميلا ، وغيرهم .

غير أن أجمل قصيدة من قصائد هذا العهد الإيطالي في حياة .

تشوسر هى تلك القصيدة التى تم فى أوضح صورة عن تشوسر
الانجليزى ، تشوسر الحقيقى ، وهى قصيدة رمزية بعنوان «برلمان
الطيور» ، وقد نظمها فيما بين عامى ١٣٨٢ ، ١٣٨٥ ، بمناسبة
زفاف ملكى ، زفاف آن دى بوهيم إلى ريتشارد الثانى ملك انجلترا
فقد كان يتقرب إلى آن هذه ، عدا ريتشارد الثانى ، وفى الوقت
نفسه ، أميران ألمان ، فصور لنا تشوسر نسرة جميلة يتقدم
إلى خطبتها من أمها الطبيعة ثلاثة نسور ، فيجتمع برلمان الطيور ،
ويبدى كل رأيه . فأما الطيور الكاسرة ، أمراء المملكة ، فانهم
يناقشون الدعوى مناقشة جدية ، ويرونها سبباً كافياً لوقوع حرب
خطيرة . وأما الطيور الدنيا ، من أمثال التجار الذين يركبون الماء
والبورجوازيين الذين يتغذون بالديدان ، والزراع الذين
يأكلون الحبوب ، فإنهم لا يعنون كبير عناية بهذه الناحية الهينة
التي تتعلق بالشرف . فترى الأوز الناطق بلسان الطيور المائية
والسكوكو الناطق بلسان آكة الديدان ، يصرحان بأن الأمر تافه
لا قيمة له . وبين هاتين الفئتين المتطرفتين أعنى فئة اليسار وفئة
اليمين ، ينبرى اليمام ، الطائر الشعري ، يود أن يبدى رأيه ، ولكن
يتصدى له البط ، ويجعل يسخر منه ويهزأ به . وأخيراً تقف
السيدة الطبيعة وترجى إصدار الحكم .

ولا يقل الثلث الأخير من « برلمان الطيور » جمالا عن
حكايات تشوسر الممتازة . وإنما الذى أربك تشوسر هو اهتمامه
بالإبقاء على الرمز ، وترى هذا الارتباك يزول حين يأخذ تشوسر
بسرد حكاياته لمجرد السرد ، بدون سابق فكرة أخلاقية أو غاية
سياسية .

٣ — حكايات كاتربرى

وفى عام ٣٨٥ ؛ خطر على بال تشوسر أن يوجد خيطاً ينظم
فيه قصصه الشعرية التى سبق قرضها ، وإليك ما تخيله لذلك :
من فندق تابارد ، فى ضاحية ساوثورك بلندن ، يطعن بعض
الحجاج ، قاصدين إلى ضريح القديس توماس بكت ، الأسقف
الشهيد . وكان عددهم يبلغ الثلاثين ، من كافة طبقات المجتمع .
ودليلهم صاحب فندق تابارد ، رجل شهيم طروب ، يخشى السامة
وطول الطريق ، فيقترح على أصحابه ، تزجية للوقت ، أن يروى
كل منهم حكايتين فى الذهاب وحكايتين فى الإياب . ويلقى
الإقتراح قبولا من الجميع ، ويبدأ السلسلة أحد الفرسان .
ولم يتسع وقت تشوسر لإنجاز مشروعه ، فلم يخلف لنا إلا
ثلاثا وعشرين حكاية ، وظل كثير منها ناقصاً .
ليست موضوعات حكايات كاتربرى بالموضوعات الأصلية ،

فقد استمدتها تشوسر ، كما فعل جوور ، من الروايات التي كان يتداولها الناس في القرون الوسطى . وإنما تظهر أصالة تشوسر ، ويظهر تفوقه على معاصريه ، في طريقة عرضه لهذه الحكايات . فإن له أولاً قدرة عظيمة على التصوير ، فإذا قرأت حكاياته ، رأيت بأم عينك عصره كله يعيش فيه مرة أخرى : رأيت العصور الوسطى الجميلة بغزلها الرقيق (الذي يتخذ حجة لمجون خفي) ، ونسائها اللاتي طلين وجوههن بالأصباغ الزاهية ، وشبانها المتأنفين الذين عقدوا على أجيادهم الياقات الواسعة ، وضفروا شعورهم ، وتطيبوا بحمامات ماء الورد ، ورأيت العصور الوسطى التي تؤمن بالخرافات ، فتعتقد بالأشباح ، وتخشى يوم الجمعة لأنه يوم مشئوم ، ويخدعها أهل الصنعة وجماعة المنجمين ، ورأيت العصور الوسطى المولعة بالجدل ، وقد انهمك أهلها في سؤال وجواب وأخذ ورد ومناقشة ومطالعة . ورأيت العصور الوسطى المضياقة ، وقد كثرت فيها الفنادق ، واختلط الحابل بالنابل ، فأوى الضائف والمضيف إلى فراش واحد ، وناما معا إن كان إلى النوم مع البراغيث سبيل . ورأيت كذلك العصور الوسطى المحاربة . وقد امتلأت بأساليب العنف وقطع الطرق والقتل والتذبيح .

ويتجلى تفوق تشوسر على جوور أو ضح مايتجلى في قدرته على ربط مختلف الحكايات بعضها ببعض ، مما ينتهي الراحب من حديثه عن موت بعض الشخصيات الشهيرة كنيرون وقيصر وكريزوس وغيرهم ، حتى يقول الفارس بعد انقضاء ساعة من الاستماع إلى هذه الحكايات المحزنة :

— كفانا من هذا ، ياسيدى المحترم! . أعتقد أنه حسبنا ما سمعنا من حزن . فيضيف صاحب الفندق مؤيدا :
— أقسم بأجراس كنيسة سان بول إن ما تقوله ، أيها الفارس لصحيح . إن هذا الراحب ليكثر جدا . سيدى الراحب ، حسبنا ، من هذا إن حكايتك تمل كل السامين . مثل هذه الحكايات لا تساوى قيمة فراشة ، فليس فيها مزاح وليس فيها لعب . استحلفك أيها الراحب أن تقول غير هذا .

ولكن الراحب يرفض ، فيتوجه صاحب الفندق إلى الكاهن ، ويلقى إليه بدقة الحديث ، فيأخذ الكاهن يقص حكاية الديك شاتكلير والدجاجة ييرتلوت .

وما يكاد الكاهن الذى سر السامعين ، يفرغ من كلامه ، حتى يجد المؤلف وسيلة أخرى لطيفة للانتقال من حكاية إلى أخرى ، على لسان شخص آخر .

وأكثر الأجزاء أصالة من هذه الحكايات هو التمهيد ، أعني تقديم هؤلاء الحجاج . فقد رسمهم تشوسر في صورة واضحة المعالم بارزة القسمات . وبديهي أن تشوسر قد توخى أن تكون نماذجه غريبة بعض الغرابة ، ولكن لم يصل بهم إلى حد الكاريكاتور . وإليك صورة الراهب : « راهب جميل ، مولع بالصيد ، كل هواه أن يجرى وراء الأرنب ، لأن هذا لا يكلفه شيئا . . ومن بين كافة المآكل ، يحب الأوزة الدسمة ، وهذه صورة الرئيسة : « كانت بابنسامتها بسيطة جدا ، متحفظة جدا . . وكان أعظم أيمانها أن تقسم بالقديس إيلوا . واللغة الفرنسية كانت تجيدها حديثا ، على طريقة مدرسة ستافورد لوبو . . لأنها كانت تجهل فرنسية باريس . . . وعلى المائدة كانت أنيقة ، أنيقة جدا ، فما كانت تدع شيئا من الفتات يسقط من شفتيها ، ولا كانت تغمس أصابعها في المرق كثيرا » .

ولعل كل الصور الأخرى جديدة بأن تذكر . . صورة الفارس الفتي « ذي الصفات المجددة التي كأنها ضفرت على عجل ، والتاجر ذي اللحية المفروقة ، والمرأة ذات الأسنان المتباعدة ، والخباز ذي الأنف الذي يعلوه ثولول تقوم فوقه خصلة من الشعر أشبه بأوبار أذن الخنزير ، . . الخ

والحكايات التي يرويها الحجاج متناسبة مع طبقتهم الاجتماعية وعقليتهم الخاصة تناسباً مدهشاً . ومن الصعب أن نصنفها تصنيفاً دقيقاً . ولكن يمكن أن نقسمها إلى قسمين : الحكايات الجدية والحكايات المرحية .

فأما الحكايات الجدية — أقول جدية ولا أقول مظلمة لأن لهجة تشوسر مشرقة دائماً — فمعظمها مستمد من روح الفروسية ، التي احتضرت في القرن الرابع عشر ، وكان تشوسر يتحسر على زوالها كما يتحسر اليوم راكب القطار على جمال السفر بالعربات فالفارسي يروي آلام أخوين محاربين هما بالامون وأركيت ، وقد عادى أحدهما الآخر لأنهما أحبا امرأة واحدة . والرئيسة مدام إجلاتين تبتدى ألمها لموت شماس صغير في السابعة من عمره ضرب اليهود الخبثاء عنقه . والطبيب يروي حكاية مصرع ثرجينيا التي قتلها أبوها إنقاذاً لها من رذيلة القاضي آبيوس . والشماس يقص مغامرات التقيّة الصابرة جريزليدس . والفتى الريني يتحدث عن شهامة أرفيراجوس سيد آرموريك ، وزوج النيلة دوريجين ، وعن كرم أوريليوس محب دوريجين .

وإن المرء ليشعر بلذة عظيمة وهو يقرأ هذه الحكايات ، ولكنه يشعر من حين إلى حين بشيء من الضيق ، إذ يحس أن تشوسر

ينخفي عنه شخصيته الحقيقية ، بل يسخر من حكايته ومنا جميعا .
وتشوسر الحقيقي هو تشوسر الحكايات المرحية ، تشوسر
الماكر اللاذع ، الذى تجود قريحته أكثر ماتجود فى الحديث عن
النساء ، هذه المسوخ التى وجدت لشقاء الإنسان . فيجرب على
لسان الديك شاتكلير أن المرأة عذاب الرجل ، ويرينا كيف أن
المرأة مسفة فى تفكيرها ، بليدة جاهلة عنيدة ، وأنها إذا كانت ذكية
لم ينصرف ذكاؤها لغير الحيلة والغش والخداع . فهذه أليزون الصبية
زوجة جون ، النجار العجوز ، تعشق الطالب نقولا الذى يقنع
زوجها ، حتى يفسح له المجال ، بأن الطوفان سيحل من جديد ، وأن
من الخير أن يقضى الليل داعياً مصلياً فى قادوس معلق فى السقف .
وهذه امرأة الخباز وابنته تستقبلان فى سريرهما ، والرجل يموت
من السكر ، طالبين من طلاب كامبردج أتيا يشرفان على طحن
دقيق الكلية . وهذه مايو زوجة العجوز ينابر ، الذى أصبح أعمى ،
تتساق شجرة الكمثرى حيث ينتظرها الجميل داميان . . وهذه
أخرى وأخرى . . إن كل النساء خائئات أوقاسيات أو خبيثات .
أو غادرات . . .

ولكن لا يخدعنا هذا الكلام فإن عدو النساء هذا إنسان
رقيق القلب ، يحاول أن يخفى رقة قلبه بنوع من الحياء الوحشى ؛

وقد تنطلق هذه الرقة من عقاها ، فاستمع إليه مثلاً وهو يصف ،
الطبيعة الجميلة :

« حين تنفذ قطرات أبريل اللطيفة إلى الجذور الجافة من شهر
مارس ، فتغسل كل عرق من العروق بهذا السائل الذى بفضل
تفتح الأزهار ، وحين تنعش أنسامه اللطيفة غض النباتات
فى كل غصن وكل بستان ، وتأخذ الطيور تغرد ألحانها الجميلة
بعد أن نامت الليل كله مفتحة الأبصار ، عندئذ تقوم فى النفوس
رغبة قوية فى الحج والأسفار .

إن تشوسر غرض شهر أبريل هذا . . . وأبريل خالده . . .

٣ — عودة الى الليل

بعد تشوسر ، نعود ثانية إلى سهل يغشيه الضباب ، ونبقى فيه
مدى قرن ونصف قرن .

وقد حاول المتألمذون على تشوسر والمعجبون به أن يتبعوا
نخطاه ، فى عام ١٤١١ كتب توماس أوكليف كتاب « حكم
الأمراء » ، وهو كتاب تعليمى يذكر بحكايات تشوسر كما يذكر
صوت الزريق بتغريد الهزار . وفى عام ١٤١٥ نظم الراهب
لدچيت قصيدة طويلة فى تاريخ طيبا ، قدمها على أنها فصل مكمل

لحكايات كانتربرى . واستطاع الدومينيكي باركلى أن يتمتع
أجيالا كثيرة ، باقتباسه « مركب المجانين » عن برانت الألماني
في عام ١٥٠٩ معتمداً على الترجمات الفرنسية واللاتينية ومضيفا
إليها شيئا من عنده . ونظم جون سككتون قصيدتين هجائيتين
لاذعتين ، أولاهما ، « لماذا لا تأتون إلى البلاط » وقد أراد بها
مهاجمة الكاردينال فولس المطلق الساطرة ؛ والأخرى
« كولان كلوت » ، وهي صرخة الفلاح والصانع يستنكران
فساد رجال الكنيسة . ولكن هاتين القصيدتين قد عفى عليهما
الزمن ، في حين أن غيرهما لا يزال يحتفظ بشيء من الجمال .

والقصائد الصغيرة الغفل ، في هذا العصر ، هي التي صمدت
للزمن أكثر من غيرها . ومن أشهرها مناقشتان رمزيتان
« السكوكو والهزار » (الحب ضد الحكمة) « الزهرة والورقة »
(العمل ضد الفراغ) ، وقصيدتان شعبيتان تعدان من عيون
الآثار الأدبية ، أولاهما ، « تشيفي تشيز » ، وهي تروى بسذاجة بريئة
وعاطفة صادقة المعركة الدامية بين پرسی الانجليزى ودوجلاس
الإيقوسى . والثانية « الابنة السمراء » وهي أكمل من الأولى
من الناحية الفنية ، وهي تروى لنا كيف أن عاشقا مرتابا يريد أن
يمتحن إخلاص حبيبته الجميلة ، فيلقى في روعها أنه سيعيش في منفى

لأنه خرج على القانون ، فيخاطبها بمثل قوله :
« ليس من العرف ولا من القانون . أن تذهب فتاة صبية ،
جميلة لطيفة ، مع فتى خارج على القانون ، إلى حياة الأدغال
والجبال ، وتمشي مشية سارق ، في يمينها سهم ، وعلى كتفها كنانة ،
وحياتها كلها خوف ، ورعب . إنه ليؤلمني يا حبيبتى أن أراك في
صحبتى تتألمين . . . فدعيني . . . دعيني وحدي أمضى إلى الغاب
منبوذا شقيا . . »

إنى لاشتري هاتين القصيدتين بسائر الشعر الرمزي الذي
ازدهر في إيقوسيا في القرن الخامس عشر ، مستمداً من آثار
تشوسر أسوأ عناصرها . أما « كتاب الملك » الذي كتبه الملك
جاءك الأول الإيقوسى (١٣٩٤ - ١٤٣٦) فليس له من قيمة ؛
وأما المقدمات التي كان يكتبها المطران جاون ، ويصدر بها كل
جزء من أجزاء ترجمته للإنيادة شعرا انجليزيا ، فلعلها كانت
تسلى أحدا من أهل الجنوب ، لو كان فيها شيء من نظام . وأما
وليم دمرفان خلوده راجع إلى شخصيته الطريفة كراهب متمرّد
ومغامر بوهيمى أكثر من رجوعه إلى قيمة آثاره ؛ وأشهر
قصيدة له « الشوكة والوردة » التي نظمها احتفالا بزواج انجلترا
(مرجريت يودور) وإيقوسيا (جيمس الرابع) .

وليس النثر في هذا العصر بأحسن حالا من الشعر . ويجب مع ذلك أن نذكر اسم الناشر الانجليزى الأول (كاستون) الذى أذاع صيت تشوسر ، وجوور ، وليدجيت ، ابتداء من عام ١٤٧٤ كما نشر فى عام ١٤٨٤ كتاب سير توماس مالورى عن «آرثر» . وأحسن ما فى هذا الكتاب الذى هو منتخبات من كافة الأساطير المتصلة بالملك آرثر هو أسلوبه . ولا يزال إلى الآن يقرأ بشغف فى طبعاته الحديثة .

الفصل الثالث

النهضة

١ - تهيؤ النهضة

لقد تأخرت النهضة في إنجلترا عنها في بلاد القارة الأوربية وربما كان من ذلك بعض الخير . فإن النهضة الانجليزية قد استفادت من الإيطالية الجديدة والفرنسية الجديدة ، وقل أن تجد في التاريخ عهدا يضارع في ازدهاره وخصوبته ذلك العهد الذي أخذت فيه إنجلترا ، بعد أن خرجت من الحروب الأهلية المستمرة ، تشعر بقوتها وشخصيتها في عهد اليزابث .

وكان تهيؤ النهضة الانجليزية بطيئا جدا . وكما حصل في القارة الأوربية ، كان الإنسانون والمصلحون الدينيون والسواح ، هم الذين بعثوا تلك الحركة الفكرية الكبرى التي تجلت ، في ميدان الأدب ، آثاراً أصيلة جديدة .

فقد استعادت الدراسات اليونانية - اللاتينية في الجامعات شأنها واحترامها . وكان لكتاب روجر آشام (١٥١٥ - ٦٨) « معلم المدرسة » شأن كبير في تحديد أصول التربية اللاتينية .

كما أن توماس مور المطلع على الثقافة اليونانية والمتحمس لها
وصديق إيراسم ومساعدته ، استطاع بكتابه « المدينة الفاضلة »
(الذى كتب باللاتينية ثم ترجم إلى الانجليزية عام ١٥٥١) أن
يذيع فى انجلترا أساليب الفكر اليونانى ، واستطاع بهذه
الجزيرة التى تتحقق فيها مثل المدينة الفاضلة ويسود التسامح والنظام
الشيوعى ويكون الإنسان على فطرته الأولى التى لم يفسدها شيء ،
أن يطلع المتأدين على أحلام أفلاطون فى هذا الإطار الذى
هياه له اكتشاف العالم الجديد . وفى الوقت نفسه كانت طوائف
المترجمين تطلع الناس على عيون الآثار القديمة . وأشهر هذه
الترجمات ترجمة بلوتارك التى تولى القيام بها نورث عن نص
أميوت (١٥٧٩) .

كما أن انحلال الأديرة (١٥٣٥ — ١٥٣٩) كان مؤذنا بزوال
روح القرون الوسطى . واستطاع تندرل وكورديل بترجمتهما
للتوراة (١٥٢٥ — ٣٥) ، وكرانمر وتلاميذه بكتابتهم « الصلاة
العامة » ، أن يبشوا فى اللغة الدارجة كثيرا بما فى الكتاب المقدس
من بيان ساحر ، وساهمت خطب لايمر فى تنفير الشعب من
الكاثوليكية . وفى الوقت نفسه كان چون نو كس تلميذ كالفان
يضمن فى « إيقوسيا ظفر البروتستانتية » وبذلك كانت تنمو ، إلى
جانب انجلترا الإنسانية ، انجلترا البروتستانتية .

ثم لقد كان السواح العائدون من فرنسا وإيطاليا يحمدا
الشعر الغنائى . وقد استطاع يات (١٥٠٣ — ٤٢) ،
١٥١٧ — ٤٧) أن يصبا الشعر الغنائى الانجلىزى فى
إيطالية . وكان پترارك معبودهم ، فنظما ، مثله ، فيها كان
من أفراح الحب وآلامه . كما أن سرى لفرط تشبعا
اللاتينى ، ترجم جزءاً من الإنيادة فى شعر انجلىزى بب
مؤلف من عشرة مقاطع موزونة بلا قافية . ولم يكن
بخلافه أن هذا الوزن سيديع ذيو عا عظيما .

٢ — العظماء الثلاثة

ليلى ، سيدنى ، سپنسر

إن هؤلاء الثلاثة ، ليلى وسيدنى وسپنسر ، من
فى تاريخ الأدب ما يجعل قراءتهم اليوم واجباً من الوا-
وقد لا تخلو هذه القراءة من متعة ولذة .

أما ليلى ، فقد كتب وهو فى الرابعة والعشرين من
(١٥٧٨) ، كتابا أصاب نجاحا عظيما ، بعنوان « أيوفو
تشرىح الفكر » ، ولا يمكن أن يعد هذا الكتاب رواية

فإنما هو إطار مرن ينطوى على آراء المؤلف في الحب والصدقة والتربية والدين .

هو قصة طالب ولد في أثينا (والمقصود أكسفورد) وله ما للطلاب الشاب من ثقة بالنفس وإدعاء وغرور . فيرفض أن يستمع إلى نصيحة عامل عجوز يحذره مما يشيع في نابولي (والمقصود لندن) التي قصد إليها من مفاصد جهنمية . وسرعان ما يفقد الفتى فضائله في هذه المدينة الفاسدة ، وتخدعه إحدى النساء . ولكنه يعود إلى نفسه ، ويرجع بعدئذ إلى أثينا ويعيش حياة دراسة وتأمل .

ويحتوى هذا المؤلف الصغير على هجاء مقذع للاوساط المتأنقة ولمفاصد حياة الطلبة ، وقد أثار كثيرا من الغضب والحق ، فسارع ليلي إلى الاعتراف بغلطته والاعتذار عنها ، وبعد مضي سنتين على ذلك ظهر كتابه « أيوفوز وبلده انجلترا » . وفي هذه المرة نرى الأخلاق الصفراوى المزاج يتملق ويدارى ويصانع ، فيمتدح « سيدات انجلترا » اللواتى يكافئنه على ذلك بأن يضعن « أيوفوز » فى حجراتهن إلى جانب مؤلفات بوكاشيو وأريوست . وقد أغنى ليلي اللغة الانجليزية بكلمة الأيوفية أو الطريقة الأيوفية ، ومعناها التناظر بين أجزاء الجملة مع تشابه فى الأصوات كما ترى فى الجملة الآتية :

Not the shadow of love, but the substance of lust

وقد استفاد مما كانت تذيبه الأساطير المتصلة بالحيوانات ،
فحدثنا عن الحية التي تنفجر متى مسها نبات الخنشار ، وحدثنا
عن السكركى التي يمسك بمنقاره حصى حتى يمتنع عن النوم أو
حتى لا يحدث صوتا حين يحلق فوق الجبال . إلا أن
الإسراف فى هذا الإغراب يتعب . ثم من الشبع ينشأ
الملال . وليس ليلى فى حياة النثر الانجليزى بكبير شىء
والحق يقال .

وكذلك سير فيليب سدفى (١٥٥٤ - ٨٦) فقد بقى اسمه
حيا فى ذاكرة الانجليز ، وربما كان ذلك يرجع إلى نبالة
شخصه وحياته أكثر مما يرجع إلى عظمة آثاره . وهو يجمع
فى نفسه بين بايارد وپترارك .

فى الحادية عشرة من عمره كتب إلى أبيه رسائل
بالفرنسية واللاتينية . واضطره وباء خطير إلى مبارحة جامعة
اكسفورد ، والسفر إلى أوربا . وكان فى فرنسا أثناء مذبحه
سان برتلى . فكان ، وهو معتصم بالسفارة الانجليزية ، يسمع
أصوات التهليل فرحا بتذيع إخوانه فى الدين ، . وعاد إلى
لندن وهو يكره الكنيسة الرومانية كرها شديداً .

وقد أحب شاعرنا ينلوب ديفروالتى أصبحت بعد ذلك
ليدى رتش . ولم يشعر بحبه الشديد لها إلا حين تزوجت، وكان
قبل ذلك يشتهيها ويريدها ويطمع فى وصلها . وكانت من القوة
والمناعة بحيث ردتة . ولكنها كانت تحبه مع ذلك . إن
أناشيدہ الرائعة « أستروفل وستللا، التى أهداها إلى هذا الحب
العظيم لتستحق مكافأة أرضية ...

ومع ذلك لم يمت عاشقا . فقد خبأت له الأقدار أن يموت
بطلا فى ساحة القتال . فقد سقط جريحا فى معركة زوتفن ،
فوضع على محمل وكان عطشا . . فلما أتوا إليه تقنينة ماء ،
رأى أحد الجرحى يحتاجه حتى شديدة وينظر إلى القنينة
نظرة الظامى . الشره ، فأسلم إليه القنينة وهو يقول : « أنت
أحوج إليها منى ، . وقد تعهد الجراحون بعد ذلك فاستطاعوا
أن يمدوا حياته بضعة أسابيع مات بعدها وهو أشد ما يكون
رباطة جأش .

وخلف كتابا كبيرا ضمن له شهرة طويلة بعد وفاته ،
بعنوان « أركاديا ، وهو رواية ريفية على الطريقة الاسبانية ،
أعنى أنها مطبوعة بطابع فروسى ، وتمتاز إلى جانب ذلك
بملاحظات نفسية .

أما موضوع هذه الرواية فلا يمكن أن نعثر عليه وسط هذه الاستطرادات التي لا حصر لها . نرى الملك باسيليوس متربعا على عرش أركاديا . وله ابنتان ، پامبلا وفيلوكيا ، تجهلان الحب كل الجهل . ويأتى أجنبيان ، هما موزيدوروس وپيروكليس . وقد تخفى الأول فى زى فلاح ، وتخفى الثانى فى زى امرأة . فيقع الملك باسيليوس مغرماً بالأسير پيروكليس وقد ظنه فتاة حقا . وتقع الملكة جينيسيا فى حب پيروكليس وقد أدركت أنه رجل . ثم يظهر شخص اسمه أمباليوس ، هو ابن الساحرة سكروپيا ، يريد ، مدفوعا بإرادة أمه ، أن يتزوج فيلوكيا فيخطفها هى وأختها پامبلا . وتتعاقب الحوادث .. ترى .. ثم تنتهى بأن تنتصر الفضيلة وينتصر الحب فى زواجين . وقد أضاف سيدنى إلى هذا كله حكاية البداية ، دامتاس وميزو وموپسا ، وحكاية بارتينيا ، وحكاية فيلوكسينوس . الخ .. كل ذلك فى أسلوب متكلف متظرف قديم ، يضحك ثم يغضب .. ولعلنا كنا نتذوق هذا النثر الشعرى لو أن ساعرنا قد امتلك زمام خياله الطافح الجامح ، ثم لم يزوق عباراته على هذا النحو الممل .

على أننا نلاحظ إلى جانب هذا الإسراف الذى ينافى

الذوق ، كثيراً من عمق التحليل وتلوين الوصف وإيجاز التعبير ، ومزاوجات جديدة بين الألفاظ تؤذن بشيكسبير .
وقد كان تأثير سيدنى تأثيراً عظيماً ومضراً . فقد استولت الأركاديانية (نسبة إلى كتاب أركاديا) على الرواية والشعر خلال قرن كامل ، ولم يتخلص منها إلا في عام ١٧٤٠ حين شوهده هذا الناشر اللندنى صاموئيل ريتشاردستون يهدم القصر الذى بناه سيدنى من ملاط ، ليحل محله بيتا من نحيت ، متينا مريحا .
وأما إدموند سپنسر (١٥٥٢ — ٩٩) فقد خلف آثاراً أثبت على الزمن . وكان قد قضى القسم الأعظم من حياته يشتغل فى إيرلاندة سكرتيراً للورد جراى . وكانت إيرلاندة تعنى المنفى ، والضجر ، والسامة . . فكان له من وقته ما يتسع كل الاتساع للتعبير عن نظراته الشعرية الكبرى .
وقد شرع ينظم سلسلة اثنى عشرية من المدائح أسماها « رزنامة الراعى » (١٥٧٩) . وتشهد له هذه المدائح ، إذا رفع عنها إغرابها ، بروح موسيقية رائعة . وقد كتب سپنسر بعد ذلك طائفة من المؤلفات جعلته أهلاً لأن يلقب « بشاعر الشعراء » ، منها « ميوپوتموس أو حياة وموت الفراشة الشاعرة » ، ومنها « عودة كولان كلوت » ، حيث روى لنا فى صورة رمزية

زيارته للندن عام ١٥٨٩ . ومنها غرامياته التي خاطب بها خطيبته . ومنها خاصة «الزفاف» ، وهو نشيد قوى رائع يتغنى فيه بزواجه .

على أن هذه الآثار كلها ليست إلا مقبّلات في المأدبة التي يدعونا إليها سبنسر . وأنخر صحنون هذه المأدبة قصيدته : « ملكة الجن » ، وهي قصيدة رمزية كبيرة ، اشتغل في نظمها حوالي ٢٠ سنة ، ولم يستطع أن يتمها : ترسل جلوريانا ، ملكة الجن ، عشرين فارساً من بلاطها يمثل كل منهم فضيلة من الفضائل . وتأمروهم أن يضربوا في الأرض يقوّمون أخطاء الناس ويصلحون من أمرهم . فأما فارس الصليب الأحمر ، بطل العفة والبروتستانتية ، فإنه يتغلب على الخطأ ولكنه يقع أسيراً في يد الكبرياء فينقذه الأمير آرثر (اللطف الإلهي) — وأما سر جوين بطل الاعتدال فإنه يخرب الحدائق السحرية التي تملكها الساحرة أكرازيا (الفجور) — وأما سر كاليدور ، بطل اللطافة ، فإنه يخلص بلاد الجن من البهيمة الخوّار (النيمة) .. الخ .

والأمر إلى هنا سهل . ولكن سبنسر يضيف إلى الرمز الأخلاقي رمزاً تاريخياً . ثم هو لا يعنى كثيراً بمنطق الحوادث

جلوريانا مثلاً هي الملكة إليزابيث . ولكن إليزابيث هي كذلك بلفوييه وبريتومارت . وكونت ليسستر ، حامى سنسر وعشيق الملكة هو الأمير آرثر . ولكن آرثر يمثل كذلك سيرفيليب سيدنى ، حين لا يكون سيدنى هو كاليدور . وكلها تقدمت فى القصيدة رأيت الرمز الأساسى يمتثل تحت رموز ثانوية استطرادية متناقضة وينتهى به الأمر أن يزول فلا ترى له من أثر .

على أنه ليس يعنيننا كثيراً أن تكون «ملكة الجن» ملحمة رمزية مضطربة . نعم إن من يقرأ هذه الأجزاء الستة التى كتبها سنسر ويحاول أن يفهم مدلولها التاريخى الفلسفى على وجه الدقة ، لا بد فاقد صوابه . ولندع كذلك للأخلاقين مهمة امتداح هذا الأثر الذى يمجّد الفضائل الإنسانية ويبحث عن طريقها الموصول إلى الله ، وحسبنا أن نعلم أن طائفة من قصص الأطفال المتداولة مستخرجة من مؤلفات سنسر ، فعليناً أن نقرأ مؤلفاته بهذه الروح ، فنفسى مثلاً شخصية جلوريانا ، ونذكر منزل الحداد الذى يقضى فيه إسكوما دور ليلة قاسية . . ونذكر نبسح الضحك حيث تحاول السابحات المغربيات أن يغوين جويون الفارس العفّ ، الخ .

الفصل الرابع

الأدب في الاليزابثي

الشعر والنثر

١ - الشعر

إن أكبر الشعراء بعد سبنسر — إذا فهمنا الكبير بمعنى الإكثار — قد وقفوا كل شعرهم تقريبا على الإيمان الجديد : انجلترا وملكتها .

أما وليم وارنر (١٥٥٨ - ١٦٠٩) فقد نظم قصيدة كبيرة في تاريخ انجلترا ، منذ الطوفان حتى عهد الملكة إليزابث . وكانت قصيدته عبارة عن مجموعة من الأساطير والحكايات منها الخطير ومنها المرح ، ولكنها جميعا رديئة التسلسل ، رديئة الحبك والبناء ، وقد أصابت مع ذلك نجاحا كبيرا .

وأما صاموئيل دانييل (١٥٦٢ - ١٦١٩) فقد كان أدنى إلى القصد من صاحبه . كان كاتباً مسرحياً ومؤلفاً تعليمياً في آن واحد . وقد كتب ثمانية أناشيد من قصيدة بطولية

كبيرة بعنوان « الحرب الأهلية بني يورك ولا نكاستر » ، وقد أحسن إذ حدّد موضوعه، إلا أنه أساء الاختيار . فإنه رجل وديع رقيق ، والعصر الذى يصفه عصر عنيف وحشى ، وليس يحسن تأريخ هذا العصر إلا بوهيمى أشعث ...

وأما منافسه درايتون (١٥٦٣ - ١٦٣١) فقد كان أقرب إلى روح العصر الإليزابثى ، أى كان أكثر حدة وانطلاقاً . فإنه لم يتوان لحظة واحدة عن إثارة الشعور الوطنى بتغنيه بالماضى المجيد (حرب البارونات ، قصيدة آزنكورت ، القصائد البطولية الانجليزية) . إلا أن فكرته الأساسية لم تكن نظم التاريخ بل نظم الجغرافيا . فأضخم قصيدة من قصائده وهى پولوليون (الجزيرة ذات البركات الكثيرة) تتغنى فى ثلاثين نشيداً بسهولة هذه الجزيرة الشهيرة بريطانيا ، وبجبالها وغاباتها وأنهارها ووديانها وغير ذلك من أماكنها ، مع خليط من أهم تواريخها وآثارها وعجائبها ومتعها ومزاياها . وقد جسد الشاعر هذه الأنهار والجبال والوديان والغابات ، وجعلها تروى الحوادث التى كانت مرتعاً لها . ونحمد الله على أننا نقع من حين إلى حين على وصف جميل ، كوصفه لصيد الأيائل فى غابة أردن .

وبالجملة نقول إن الشعراء الوطنيين هم أولئك الناس الذين

تحبيهم عن بعد، ولكنك تحاذر الاقتراب منهم خشية التورط معهم
في ثمرات لا خلاص لك منها إلا بشق الأنفس. وإنى لا غبط
من كل قلبى كل من يستطيع أن يقرأ قصائد وارنر ودانيل
ودرايتون دون أن يضيق بها . ولا شك أن من يستطيع ذلك
تهون عليه بعدئذ أشق أعمال البحث والدراسة والتنقيب .
ولا كذلك كتب الشعراء الإباحين ، فمازلنا نقلها إلى الآن
فى شيء من المتعة . فربما كان الحب أخلد على الدهر من البطولة
ومن هذا القبيل قصيدة «هيرو ولياندر» للشاعر العظيم مارلو .
(وقد كتبها قبل ١٥٩٣) ، وإن كان يفسدها شيء من التصنع
والتكلف ، من مثل حديثه عن النحل كيف كان يحسب زهرات
وشاح هير وزهرات حقيقية يشم شذاها الذكى ، فى حين أن
أنفاس الصبية الجميلة هى التى كانت تنشر عطرأ كعطر الزهر ...
ثم ما هذه الجرأة فى وصف الحب المحرم ! ما أشد ما يسرف
مارلو فى هذه الجرأة ، حين يحدثنا مثلاً عن نيتون ، المولع
بجمال الذكر ، وهو يلاحق لياندر تحت الأمواه .
أما قصيدتا شيكسبير القصصيتان ، فإن المعجبين بهما
والمتحمسين لهما كثر ؛ وعندى أنه لو لا أنهما مهورتان بهذا
الامضاء الضخم : شيكسبير ، لما نالا كل هذا الإعجاب وكل

هذه الحماسة. أما الأولى « فينوس وأدونيس » (١٥٩٣) فهي تعالج موضوع الفتى الرياضي (أدونيس) الذي يقضه حب عاهرة مجربة (هي فينوس). وأما الثانية « هتك لوكريس » (١٥٩٤) فهي تتناول، خلافاً للأولى، موضوع الصبية البريئة التي يلاحقها فاجر مجنون بالآبهة.

وفي رأي أن ليس في وسع القارئ أن يصبر طويلاً على قراءة هاتين القصيدتين، خصوصاً إذا كانتا في مجلد يضم مسرحيات شيكسبير.

والحق أن الشعر الأليزابثي الوحيد الذي قاوم الزمن هو الشعر الغنائي، المجنح، السريع، الذي تغنيه في داخلك أكثر مما تقرأه بلسانك. إنى لا يبع كل « هيرولياندر » بتلك المقطوعة الصغيرة من مقطوعات مارلو « من الراعى إلى الراعية » حيث يناشد الراعى حبيبته أن تأتي إليه، ليعيشا معاً أياماً كلها حب، في الوديان المشوشة، وفوق الجبال الشم، وبين المراعى والغياض والغابات. أليست أجمل الذكريات التي تبقى في الذهن من مسرحيات شيكسبير هي قراءة أو سماع تلك الأناشيد الرائعة التي تقفز كالأمواج، أو تن كالريح بين الأغصان، مثل هدهدة الجنيات (في « حلم ليلة صيف ») وأغاني آريسل

(في « العاصفة ») ، واللحن الذي يؤلفه أوتو ليكوس تغنياً
بحياة التشرد ، (في « حكاية الشتاء ») ، وأغنية الصفصاف
(في « عطيل ») ، وغير ذلك من الأناشيد التي لا يمكن أن
تنساها الذاكرة أبداً ؟ ...

وليست هذه الآلى منفصلة عن جملة الآثار الدرامية
لذلك العصر ، وقل أن تجدها مستقلة فيما تجمعه الكتب من
متقطعات غنائية . وإلا فهل سمع غير المختصين عن شاعر طيب
موسيقى درامى اسمه توماس شامبيون ؟ ومع ذلك فما أروع
ما نظم شامبيون هذا من شعر غنائى ! ما أجمل تلك القصيدة
التي يحدثنا فيها عن حبيبته ، فيشبه وجهها ببستان ، جمع من
الأزهار أزهارها ، ومن الثمار أشهارها :

ولكن الكرز الذى هناك
لا يمكن أن تمتد إليه يد
قبل أن ينادى هو نفسه :
كرز ناضج

وبعد فإن شمس الشعر الغنائى فى عهد إليزابث سرعان
ما شحبت فى عهد جاك الأول ؛ فقد كانت البيورينانية ، هذه
السحابة الكبيرة العاصفة ، تحتاج الأفق .

فانرى الآن إلا ويندر (١٥٨٨ — ١٦٦٧) ينظم فى

شبابه بضعة أبيات جميلة متغنياً بالطبيعة والحب : (« صيد
الراعى ») ونرى صديقه ولیم براون (١٥٩١-١٦٤٣) يتأثر
« أركاديا » سيدنى ، فينظم قصائد دينية فروسية مخدرة .
ونرى الأخوين فلتشر (فينياس ، ١٥٨٢ - ١٦٥٠ .
وجيلس ١٥٨٨-١٦٢٣) ، وهما قسيسان من قسس الأرياف .
أحدهما يتغنى بأعضاء الجسد الانسانى ، والثانى يتغنى بالمسيح ،
ويصف جمال الجنة . ونرى بن جونسون يقلد الأقدمين
تقليداً دقيقاً ، ولا سيما شعراء الأتولوجيا ، ويحاول أن يلقي
على الشعر الغنائى الإلزامى مسوحاً كلاسيكياً محدثاً . وطبيعى
أن لا يوفق إلى ذلك . فما كان للفراشة أن ترتدى فروة الخلد .
ونرى أخيراً دون (١٥٧٣ - ١٦٣١) عميد سان بول ،
يتصنع التعقيد والشدود إلى أبعد الحدود المضحكة . على
أنه إن كان لا يطاق فى مقطوعاته المتكلفة ، فإن فى قصائده
التي تسيطر عليها فكرة الموت ، نغبات مؤثرة فى بعض
الأحيان .

٢ — النثر الاليزاباثى

تكثر فى العصر الاليزاباثى الروايات القصيرة على غرار ليلى وسيدنى والإيطاليين. ولعل أقلها إملالا رواية «پاندوستو» لجرين (١٥٦٠ — ٩٢)، ومنها استمد شكسبير موضوع «حكاية الشتاء»، وكذلك «مينافون» لجرين أيضا، «روز النداء» للودج (١٥٥٨ — ١٦٢٥)، وهى التى استمد منها شكسبير موضوع مسرحية «كما يعجبك».

على أتى أرى أن تلك الكتب التى تكشف لنا عن حياة الطبقات الدنيا أحفل بالصور وأغنى بالألوان. فعندى أن كل ما ألف جرين من روايات يحتفى أمام قصص «سيد الأرانب»، التى تصف حيل اللصوص فى اقتناص أرنب أو سرقة حمامة. وكذلك فإن اسم ناش (١٥٦٧ — ١٦٠١) سيظل حيا، بفضل كتابه «حياة جاك ولتون»، حيث يحدثنا عن مغامر يساهم فى حركات الإصلاح بفلاندر والمانيا، وينخرط بإيطاليا فى عالم الجواسيس والشرطة ونساء السوء. وهناك أخيراً ديكور الذى منجده بعد قليل مؤلفا دراميا، وقد ضمن لنفسه الخلود بكتابه «قرن المخدوع»، حيث يحدثنا

عن حياة شاب يجب أن يبدو «ظريفاً، فيصابق بتظره الناس في المسرح والحانة والشارع، ويحسب أنه يخدع غيره، في حين أن غيره يزدرية ويهزأ به ويسخر منه.

أما توماس دلوني (١٥٤٣ - ١٦٠٠) فيستحق أن تفرد له مكانة خاصة. لقد جمع هذا الحائك الفالوني من معاشرته للعمال وصغار الناس والخدمات الثرائيات ثروة ضخمة من التجارب الشعبية، فألف في سني المجاعة قصائد قوية تصف بؤس الشعب، وكان يمضي ينشدها من ورشة إلى ورشة ومن حانة إلى حانة بل من مدينه إلى مدينه، حتى أهاج بذلك السلطات فأمرت بالبحث عن «شخص حقير يدعو دلوني». واعتدل بعد ذلك، ورأى أنه إذا صهر ماسمغه أثساء تشرده من حكايات فقد يكتب آثاراً تحظى باستحسان كثير من القراء. وليست رواياته الثلاث إذن (جاك نيوبري، و«توماس ريدنج»، و«المهنة الشريفة») إلا مجموعات من الاستطرادات المنسلية. وأبرز هذه الروايات هي أولاهها، وهي تروى لنا قصة جاك، أجير الحائك المخلص، كيف تزوج أرملته معليه، ثم ترممل، فتزوج ثانية من إحدى خادmatesه، ثم اشتهر بأنه خير صواف في بركشير، وكيف أصبح الناطق بلسان أهل

مهنته حين أتى هنرى الثامن إلى نيوبرى ، وكيف كانت الغازلات اللواتى يرهقهن بالعمل يرشقنه بيعر الكلاب
إن دلو فى قريب إلى النفس ، وقد كتب ، بدون أن يشعر ، ملحمة خالدة ، ملحمة العمل المهن فى القرن السادس عشر .
وكان النثر الفلسفى التاريخى فى هذا العصر لا يقل غنى عن النثر الروائى ، فإلى هذا العصر ينتسب فرنسيس بيكون (١٥٦١ — ١٦٢٦) . وهو من أكبر العبقرىات التى عرفها الإنسانية . وهو مؤسس الفلسفة العلمية الحديثة . كان عالما وفيلسوفاً لكنه كان دنىء الخلاق . حتى لقد قام بحملة قوية على صديقه الجيم كونت دسكس إرضاء لضغائن غرامية فى قلب الملكة . وعين على أثر ذلك كبيراً للأمناء . وقد كتب مؤلفاته الرئيسية باللغة اللاتينية ، لأنه كان يعد الانجليزية لغة عامية مصيرها إلى الفناء . ولم يكتب بالانجليزية إلا مقالات أخلاقية قصيرة ، كتبها ليتسلى بها رجال البلاط ، وسماها « مقالات » ، كما فعل مونتيني ، ولكن شتان بين هذه الأخلاق وبين تلك الأخلاق الجميلة التى تخرج من « مقالات » مونتيني . وهو سواء أتحدث عن الحقيقة أم الموت ، أم الحب ، أم الثروة ، أم الدراسة ، فإنه يسفر عن حكمة نفعية عملية واحدة ، ولكنه يبلغ من قوة التعبير ما يجعل

كل عبارة من عباراته المركزة مثلاً قائماً بذاته . هذا إلى لغة غنية ، وأسلوب مصقول ، وتركيب قوى .

وهناك ناثر فلسفي آخر في هذا العصر هو روبرت برتون (١٥٧٧ — ١٦٤٠) . وهو كاتب غريب معقد . كان قسيساً في قرية ، وكان فأر مكاتب كما يقولون ، وكان يعرف كيف يسخر من نفسه ومن الآخرين عند الاقتضاء . وقد اتحل لنفسه اسم ديموقريطس الصغير ، فكتب كتاباً ضخماً بعنوان « تشرح الكتابة » ، هو عبارة عن خليط عجيب من الفلسفة والطب والعبث والسخرية والتلاعب . وهو يذهب في هذا الكتاب إلى أن الكتابة (أو المزاج الأسود) هي علة الحرب ، والبيوريتانية ، والكسل ، وصداع الرأس ، والفسق ، وغير ذلك . ويستعرض برتون في هذا الكتاب معظم الأعوجاجات البشرية ، وترى ذلك كله محشواً باستطرادات وملح واستشهادات ، بأسلوب مطنب تارة ، موجز أخرى . . مع العناية بتجميع الكلمات على نحو غريب على غرار ما كان يفعل رابليه . ومن الصعب ترجمة نصوصه لهذا السبب .

وقد لا يكون عند برتون ما يشوق القارئ العادي . ولكن هواة الأشياء الغريبة واجدون لا شك في كتابه معنا

لا ينضب من هذه الأشياء الغريبة .

ولن يكمل عرضنا هذا للنثر الاليزاباثى مالم نذكر اسم
هوكر (١٥٥٤ — ١٦٠٠) . كان هوكر هذا رجلا من رجال
الدين ، وبطلا من أبطال الانجليكانية ضد أصحاب البيوريتانية .
وقد كتب ثمانية كتب بعنوان « قوانين السياسة الاكليركية » ،
بلغة انجليزية جميلة ، فيها كثير من الشعر ، وإن جنحت إلى
الإغراب في بعض الأحيان .

على أن أثر هذا الكاتب لا يعد شيئا إذا قيس بما قامت به
جماعة من العلماء من « ترجمة التوراة » عام ١٦١١ . كانوا سبعة
واربعين عالما ، استفادوا من الترجمات السابقة ، وأعادوا الفقرات
التي أسقطها سابقوهم ، ووصلوا إلى كمال التعبير في دقة المعنى ،
وجمال الموسيقى . ولن تجد بين ترجمات التوراة في لغات العالم
ترجمة تضارع الترجمة الانجليزية إشراقا وجمالا . فكل عبارة
من عباراتها صيغة سحرية تفتن النفس وتأسرها . ولو أبدلت
كلمة بكلمة أو غيرت موضع الكلمة ، لتبدد هذا السحر ،
وزالت القوة المستسرة التي تأسر نفسك وتسمو بها . ومن
التوراة إنما تعلم كبار الكتاب الانجليز كيف يحسون الجمال .

الفصل الخامس

الدرامة الاليزابثية

١ - التفتح

تطور المسرح الانجليزى فى القرون الوسطى كتطوره فى القارة على وجه التقريب ، فانتقل من داخل الكنيسة إلى فناء أمامها ، ثم انتقل من الفناء إلى الساعات العامة. واشتملت « الأسرار » و « المعجزات » الانجليزية على التاريخ المقدس كله، ومثلت أمام جماهير غفيرة من الناس . وأدى هذا النجاح نفسه إلى ظهور المسرحيات الهزلية .

وفى منتصف القرن الرابع عشر ظهر الاتجاه الخلقى أكثر تجرداً ولطافة ، فكان يقتضى جمهوراً من المستمعين أكثر ثقافة . ولكنه سرعان ما اجتاحت مع ذلك جمهرة الناس . ثم انفصلت المحاورات الهزلية المبثوثة فى « الأسرار » و « الأخلاقيات » عن هذه « الأسرار » وهذه « الأخلاقيات » ، وأصبحنا بصدد شكل درامى جديد ، هو المحادثة الهزلية ، وهى مسخرة قصيرة مؤلفة من سؤال وجواب وأخذ ورد ، وقد جلى فيها چون هايوود بوجه خاص .

ثم انبثقت النهضة حاملة تراث القديم والحديث . ورأينا
نيكولاس يودول، رئيس مدرسة ايتون، يؤلف مسرحية بعنوان
« رالف رويستر دوستر » ، ورأينا تلاميذ المدرسة يمثلونها ،
ورأينا المسرحية تضم عدا شخصيات خادمت انجليزيات
أحسن تصويرهن، شخوصا كلاسيكية صرفة (كالطفيلي، ومادح
نفسه وغيرهما) وتضم على كل حال مشاهد لا يملك المرء إزاءها
أن يمنع نفسه من الضحك ، كما لمشهد الذي يصور أحد شخوص
الدواية وهو يقلب معنى العبارة رأسا على عقب بمجرد تغيير
بسيط في النقط فإذا بها رسالة تحقير بعد أن كانت بطاقة تودد،
وفي هذه الفترة نفسها مثلت في كامبردج مسخرة جميلة بعنوان
« إبرة الأم جورتون » ، حبكتها كلاسيكية وشخوصها
انجليزية صرفة .

وكما قلدوا پلوتوس في الملهاة ، فقد قلدوا سينيك في المأساة.
وأول مأساة انجليزية جدية بهذا الاسم هي المأساة التي ألفها
الشاعران ساكفيل ونورتون بعنوان «جوربودك» (١٥٦١)،
وهي سلسلة من الجرائم قصد منها إلى بيان ضرورة تحديد
نظام التعاقب على العرش . وكان الجمهور الانجليزي قد أصبح
يشعر بالحاجة إلى الانفعالات القوية .

ومضت عشرون سنة في تلبس ومحاوله . وكان لابد من

إرضاء كل أنواع الناس الذين تضمهم قاعة المسرح الواحدة. كان هناك الشعب التت الذي يأكل لحم الخنزير ويشرب البيرة الثقيلة فكان لابد أن تتوفر في المسرحية جرائم عديدة ونكات كثيرة، وكان هناك أفراد الطبقات العليا من أكلة الطيور النادرة وشاربي الخمر المعتقة وقد تضمخوا بأطيب العطور، فكان لابد من لغة متعاطمة وعواطف نبيلة. هذه مسرحية «قميز» (١٥٦٩) : يريد الملك أن يبرهن على أنه ليس بسكران. فيتناول قوسه، ويقتل طفلاً، ثم يشرح جثة الطفل ليرهن على أن سهمه قد نفذ إلى صميم القلب. كل ذلك في أسلوب بلع من التنفخ، والتعاضم، أن انتقده بعد ذلك شكسبير. وسرعان ما أصبح المسرح مؤسسة قومية أو قل عمالاً مالياً يفصار الناس يقذفون إلى السوق بالمسارح كما يؤسسون اليوم البنوك. أما كيف يجب أن تتصور المسرح اللندني في عصر اليزابث فأليك الوصف :

كان المسرح يقوم في جنوب التامز، خارج ولاية لورد مير، فإذا اقترب أوان التمثيل، ارتفعت فوق سطح البيت راية كبيرة، يراها الناس من لندن، فيستقلون القوارب ويعبرون النهر. فإذا وصلوا تسكعوا في الساحة الواسعة،

حيث يباع لهم التفاح والجمعة والجوز ، فيأخذون يشربون
ويأكلون ويغازلون بنات الهوى اللواتي أتين لالتقاط
الزبائن . وعلى منصات ذوات قوائم ثلاث أو على حانات
المسرح يقعد المشرفون على الحفلة وبأيديهم عصي يضربون
بها الممثلين إذا اخطأوا ، ويدخنون التبغ بغير انقطاع .
ويقوم المسرح عاليا على الساحة ، ويتألف من ثلاثة أقسام :
المسرح الأمامي ، ومنه يخرج الممثلون إلى الكواليس من باين
جانبيين ، والمسرح الخلفي ، ويفصله عن الأمامي ستار يزاح أثناء
التمثيل ألف مرة ومرة ، ثم البلكون وهو يستعمل نادرا .
وهكذا يمكن أن يجرى التمثيل في مواضع ثلاثة ، بدون أن يكون
ثمت فترات تفصل مشهدا عن مشهد ، فما ينتهي الممثلون من
محاورتهم فوق المسرح الأمامي ويخرجوا من الجانبين حتى يزاح
الستار الخلفي ، ويدخل الممثلون الآخرون من باب في آخر
المسرح ويقولون ما يريدون قوله ، ثم يسدل الستار وينتقل إلى
المسرح الأمامي (أو يصعد إلى البلكون) وهكذا دواليك .
وبذلك لا يكون للجمهور متسع من الوقت للتصفيير .
ويكون الإيدان بالابتداء نفخاً في بوق ضخمة . ويبدأ
التمثيل : محاورات ورقص وغناء وموسيقى . تتعاقب بغير

انقطاع . . . أما الملابس فرائعة : سراويل مذهبة ، وثياب مطرزة بالذهب والفضة ، تمثل ثياب البلاط ويلبسها الممثلون على غير تمييز ، سواء أكانوا من الانجليز أم من الرومانيين أم من غير هؤلاء وأولئك . وأما التزيينات فأليك كلام قيل في مدحها : « صخور ، وسرير ، وعرش ، وأثاث كثير وابواب مدن ، وبيوت ، وأبراج ، وتابوت ، ومنبر ، وأشجار (منها أشجار تفاح من ذهب) ، وجرسان ، وأسود ، وقوس قزح . »

وأما الجمهور فهو يطرب ويهتز ويتحمس ويصخب ويصفق ويشرب ويأكل ويقىء ويتحرك ويعمل أشياء أخرى أيضا ! ويشعر الممثلون أنهم « ناجحون » فيتحمسون ، فيخرجون عن دورهم المكتوب ، يأخذون يتحاورون فيما بينهم وبين بعض ، أو فيما بينهم وبين الفكهين من النظارة .

وينتهى التمثيل بين الصراخ والصخب ، وما يأتى الممثلون على النهاية حتى يكون الاعياء قد أخذ منهم مأخذا كبيرا ، فإن معظمهم قد مثل أكثر من شخصية واحدة ، لقلة عدد الممثلين ، ومنهم من يمثلون دور النساء ، فلم يكن فى ذلك العهد ممثلات ، وكانوا يختارون لتمثيل أدوار الملكات والحرائر شبانا مردا .

هذا ما يتعلق بالممثلين ، أما المؤلفون فهم أدعى إلى الرثاء أيضاً . لقد كان عليهم أن يعملوا بسرعة متعاونين . . وكثيراً ما كانوا يعمدون إلى القديم ينهبونه ، أو إلى مسرحيات الجار ينتحلونها بعد تغيير في العنوان .

وأشهر المؤلفين يومئذ هو جون ليلي ، مؤلف «ابوفوس» ، وكان يستمد موضوعاته من التاريخ القديم تارة ، (ففي مسرحية كامباسب أخرج الاسكندر وآبليلس) ومن الأساطير تارة أخرى (آنديميون) . وكانت مسرحياته خفيفة الظل جميلة . وهناك الشاعر جورج پيل (١٥٥٨ — ١٥٩٨) ، وقد نافس ليلي بعض الوقت ، لكن ليلي غلبه فانصرف إليه الشعب وقد أخرج التوراة على المسرح (حب داود وبتهاسيه الجميلة) . وهناك الهجاء ناش ، والشاعر لودج ، والروائي جريرن ، وقد ألفوا كذلك مسرحيات كثيرة إلا أنها لم تلبث أن هوت إلى عالم النسيان ، ولم تعد أصواتهم الخافتة تسمع بين زئير كيد ومارلو ، هاتين العبقريتين الوحشتين .

أما توماس كيد (١٥٥٨ — ٩٤) فهو مؤلف أول ميلو درامة كبيرة في عهد اليزابث ، هي «المأساة الاسبانية» ، قد وصف فيها المؤلف عدداً من حوادث الثأر الفظيعة : يقتل هوراسيو

الجميل ذات ليلة بينما يكون مع حبيبته اميريا يادلها وعود
الحب . فيقسم أبوه العجوز المارشال هيرونيمو ليبيدنة الجناة
عن بكرة أبيهم . ويتظاهر بالجنون تمويهاً على أعدائه حتى
يهملوا الاحتراس منه والحيلة له . ولكن سرعان ما يختلط
عليه الأمر ، وينقلب الهزل جداً ، فافرق بين العقل والجنون .
إلا أن الفكرة الثابتة تظل مع ذلك قائمة في ذهنه تغذيها
الاشباح وتقويها رؤى الليل . ويستطيع هيرونيمو أخيراً
أن يقتل جانين رئيسيين من أعدائه ، ثم يستخرج جثمان ابنه
الغالي هو راسيو من التراب . ثم يعض على لسانه فيقطعه
بأسنانه . ثم يختم هذه السلسلة الدامية من الحوادث بأن يغمد
خنجره في صدر دون كاستيل ثم يغمده في صدر نفسه .
وقد ظلت هذه المسرحية رائجة خلال خمسة عشر عاماً ،
ولم تستطع السخریات يومئذ أن تقتلها ، أو أن تحد من رواجها .
ولو شهدناها الآن لكانت أدعى إلى الضحك منها إلى البكاء ،
ومع ذلك ففيها صرخات وحشية لانملك إزاءها إلا أن نتأثر .
أما كريستوفر مارلو فهو أدنى إلى الاعتدال وأرفع في سلم
العبقرية ، ولو لأنه مات شاباً لكان منافساً لشكسبير : وهو ابن
حذاء في كنتربري ، وقد عاش في طفولته حياة مشردة ، ثم تلقى علومه

في جامعة كامبردج . ويدل اختفاؤه من حين إلى حين وحماية القنصل الخاص له على أنه دخل مبكرا في سلك الجاسوسية التي تدر من الربح أكثر مما يدر تأليف الدرامات . وبين عامي ١٥٨٧ — ١٥٨٨ مثلت مسرحيته « تاملان » ، فما كان أجمله من موضوع هذا المذبذب الذي يمجّد ، في عبارات نارية ، الإرادة الوحشية ، والقوة الرجولية ، والسعي الدائب العنيف إلى المستحيل . حقا إن مسرحية « تاملان » مسرحية مضطربة مبهرجة ، متعاطمة ، ولكننا نجد فيها من قوة الانفعال وعنف الهيجان ما يجعلنا ننساق معها كأنسياقنا مع سيل جارف عرم . وقد اعتدل مارلو قليلا في مسرحية « تاريخ الدكتور فاوست المفجع » (١٥٨٨) . ولكن هذه المسرحية ليست للأسف إلا مخططا أو مشروعا ، أو هكذا وصلتنا على الأقل . وإنك لتحس في المشهد الأخير ، حين يكون فاوست ، يرتعد رعبا في انتظار الساعة المقدرة في منتصف الليل ، أقول إنك لتحس في هذا المشهد الأخير عظمة شكسبيرية رائعة . غير أن مجموع المسرحية ضعيف بوجه العموم . وأوضح ما يظهر هذا الضعف في شخصية مفيستوفيلس . وفي المسرحية استعراض للخطايا الرئيسية السبع ، ومحاورات بين ملاك الخير وملاك الشر ، بما

يدل على أن مارلو قد حاول أن يحدد « الأخلاقيات » التي كانت لاتزال رائجة إلى ذلك الحين .

وقد كتب مارلو مسرحية « يهودى مالطة » معارضة « للأساسة الاسبانية » ، فهي تقوم إذن على فكرة الثأر . ولكن باراباس بطل مارلو بلغ من الشذوذ أنه يوقظ في نفس مارلو شيئا من العطف الغريب .

ثم ازداد مارلو اعتدالا وتعقلا ، وازداد تمكنا من أدواته ، وصقلا لكتابته ، وترويا في عمله ، وتعد مسرحية « ادوارد الثاني » أول مأساة جميلة من التاريخ القومى فيما قبل شيكسبير . ومع ذلك فإنك تقع هنا وهناك على تطرفات شتى تدل على أن مارلو الفقى لم يمت من نفسه . ولكن قوة البناء ، وعمق التحليل ، وجدة الأسلوب ، كل ذلك يدل على أن مؤلفا جديدا عظيما جدا قد ولد . . . وأنه لن يلبث أن . . .

ولكن فى مايو من عام ١٥٩٣ وجدت عند كيد أوراق فيها هجوم على الدين ، فقبض على كيد ، واستجوب فى الأمر ، فاعترف أن الأوراق لمارلو . وأكد الشاهدون أن مارلو يدعو إلى الإلحاد أينما ذهب ، ويقرر أن « من لا يحبون التبغ والغلمان أغبياء مغفلون » . عندئذ أصدر القنصل الخاص أمره

إلى مارلو أن يحضر كل يوم ، وقرر أن هذا الجاسوس أصبح خطرا . وفي اليوم الأول من يونيه ، في أثناء شجار وقع لمارلو في فندق في ديتفورد وحضره بعض مخبري البوليس ، طعن مارلو بخنجر في صدره ، فوقع على الأرض وهو يسب الدين ، ومازال يحذف حتى لفظ آخر أنفاسه ، وأبي مارلو إلا أن يطلق مع آخر نفس شتيمة أخرى

كذلك مات هذا الرومانطيق الساطع المتهب في الساعة التي أخذ فيها يتسلق النرى . ولولا أن انبثق شكسبير في هذه اللحظة نفسها ، لكانت الخسارة فيه لاتعوض .

٢ — الازدهار

ينبغي أن لا يبهرنا نور شكبير فنعشى عن رؤية بعض الكواكب المتألقة .

ومن هؤلاء طائفة الانسانيين ، وبينهم شاپمان ، وبن جونسون ، الأول عادى والثانى عبقرى خالدا .

فقد أفاد شاپمان الأدب بترجمة لهوميروس أكثر مما أفاده في مسرحياته الصاخبة المزعجة . وليس لمسرحية « بى الامبوازى » من قيمة إلا فى عمق تحليله لشخصية تاميرا (سيدة مونتسورو)

ولا كذلك بن جونسون (١٥٧٣ — ١٦٣٧) ، فهو شاعر غنائى من الطراز الأول ، فضلا عن سعة اطلاعه وقوة شخصيته ، ويدين بخاوده إلى ملامه . وقد ألف خمس عشرة مسرحية . على أن المسرحيات التى كتبها فى سن النضج هى التى ينبغى أن تعد من عيون الآثار الأدبية ، أما الأولى فلا تبلغ هذا المبلغ من القوة .

فى مسرحية فولپونى يحدثنا بن جونسون عن شيخ عجوز اسمه فولپونى تحيط به طائفة من الناس تحاول أن ترث ثروته ، فيتظاهر بأنه مشرف على الموت ، فيجن جنون هؤلاء الناس ، ويتسابقون فى إكرام العجوز فى شبه مزايده محومة ، ويضحون من أجله بالشرف والثروة ، بل إن أحدهم يقدم إليه امرأته . ثم ينكشف لهم أمره ، فيهرعون إلى العدالة يشكونه . ولكن العدالة تبرئه . . . إن سراب الذهب ليسوغ أحقر الحقارات . إلا أن هذه المسرحية تؤلم أكثر مما تضحك . ولا كذلك مسرحية إيسين (١٦٠٩) فهى تضحك فحسب . هى قصة عازب مستوحش ، مصاب بالنورستانيا ، يخشى الضوضاء خشية مرضية ، فيلف أذنيه بعصبة كثيفة تمنع عنهما وصول الضجة ، ويسكن فى شارع ضيق لاسيل إلى مرور العربات .

فيه ، ويفرش السلاالم حتى لا يكون لوقع الأقدام صوت . ولكي يحرم ابن أخيه من ثروته ، يتزوج من فتاة صغيرة قالوا له في وصفها : إنها صموت إلى درجة الخرس . وكان ابن الأخ في الواقع هو الذى دبر المؤامرة . وفي وسعك إذن أن تحزرباقى القصة : ففي ليلة الزواج أخذت العروس الصموت تنبح وتعوى وتصدر أصواتا كأصوات الرعد ، ثم هى تدعو فرقة موسيقية لإحياء حفلة العرس . فيقرر موروز المسكين أن يطلقها على الفور . ولكن ما العمل ؟ وما هو السبب الذى يجب أن يحتج به لتسويغ الطلاق ؟ هنا يظهر دور ابن الأخ . فيعرض على عمه أن يحل له الأمر مقابل خمسمائة جنيه يدفعها له فى كل عام . ويقبل موروز . وهنا ينكشف أمر العروس : لقد كانت شابا ، فكان الزواج لاغيا إذن بطبيعة الحال

وقد كتب بن جونسون كذلك مسرحيتين رومانيتين هما « سيجان » و « كاتيلينا » ، وملهاتين هجائيتين هما « الكيمياء » و « سوق سانت بارتلى » ، وفيهما يهاجم البيوريتانية . ولو جردتا من بعض أثقالها لكانتا أشبه بما يروج الآن من مسرحيات فى المدن الصغرى بأمرىكا .

وأخيرا فقد برز جونسون فى كتابة ما يسمى « Masques » وهو عبارة عن رقص نفخ مصحوب بموسيقى وكلام .

وقد أصبح للكلام بفضل جونسون شأن كبير في هذا النوع من التمثيل ، ولكن برغم جهوده أصبحت الشخصيات الفظة أو الشريرة تسود شيئاً بعد شيء ، وحل محل هذا النوع نوع آخر سمي Antimasque ، كما ان الآلية والحركات ازدادت على حساب المحاورات والأناشيد الغنائية .

ونقول بوجه العموم إن العيب الرئيسى الذى يؤخذ على جونسون هو الثقل . وهو عيب شائمان كذلك . وقد تعاون هذان المؤلفان مع مؤلف درامى ثالث من كتاب الطبقة الثانية اسمه مارستون (١٥٧٥ - ١٦٣٤) فآلفوا معا ملهاة بورتوجوازية رائعة ، بعنوان « هيا إلى الشرق » ، وهى تمثل صانعا فى لندن . عنده أجيران أحدهما فتى نشيط والثانى شاب متهتك ، وعنده كذلك فتاتان إحداهما عذراء عاقلة والثانية سيئة مغرورة . يتزوج الأولان ، وينعمان بالسعادة ، ويشقى الآخران ثم لا ينجيهما من الفضيحة إلا تدخل الأولين . حقا إن الموضوع لقيمة له ولكنك تنسى الموضوع لجمال الوصف وتدفق الحيوية .

وقد شهدنا فى هذا العصر نفسه حالات كثيرة من هذا التعاون الخصب ، ولكنه لم يوفق مرة كما وفق فى مسرحية

« The Changeling » . لقد كتب مؤلفاها ، مدلتون (١٥٧٠ — ١٦٢٧) ورولى (١٥٨٥ — ١٦٤٢) ، آثارا طيبة منفردين ، ولكنهما لم يبلغا من كمال الروعة في تأليف المأساة ما وصلنا إليه في هذه المسرحية . لقد خلقا شخصية شيطانية من الطراز الأول ، هي شخصية المغامر فلورز : علجوم قدر مرعب ، يرتكب جريمة قتل بأمر. بياتريس الجميلة ، ويطلب إليها أن تستلم له ، منشبا فيها أظفاره . والفتاة تحبه في سرها حبا ينقلب إلى كره .

نصل الآن إلى ديكر (١٥٧٠ — ١٦٤١) . وبوصولنا إليه نعود إلى التفاؤل المرح . ومن مسرحياته مسرحية « عيد الحذاء » ، وهي تصور رجلا صبوراً لا يخرج عن أناته شيء ، لا أمراته الشرسة ولا أجراؤه الشكسون ، ثم « كونتا » شابا يشتغل أجير حذاء رغبة في التقرب من خطيبته . كل ذلك في جو متفائل مرح .

والمسرحية الثانية العظيمة من مسرحيات ديكر هي « البغي الشريفة » : وهي تصور بغيا تدعى بلافرنت ، ترد إلى الفضيلة بعد نصيح طويل يسديه إليها رجل صموت ، فترغم الرجل الذي أغراها لأول مرة على الزواج منها ، فإذا بالرجل الصموت

يغدو لعوباً يحاول إغراءها ، فتأبى ، وترده عن نفسها .
ويكون خادمها هو أبوها على غير علم منها ، ويحاول إغراءها
كذلك ! ما أمتعته من منظرٍ منظرٍ هذا العجوز المتيم
يلتهب شوقاً . . . أما المشاهد الأخرى التي يعرضها لنا ديكر
في « مستشفى المجاذيب » ، أو « سجن النساء » ، فقد بلغت غاية
ما يمكن أن يتمناه هواة الواقعية الفظة .. إن العاطفة والأخلاق
ليست من شأن هؤلاء المؤلفين الذين كتبوا في عهد الزابث .
إلا أن علينا مع ذلك أن نستثنى مسرحية « المرأة التي قتلها
العفو » ، وهي خير آثار المسرحي المكثّر توماس هيود
(١٥٧٥ - ١٦٥٠) . موضوع المسرحية موضوع مبدول :
زوجة فاضلة تعنو يوماً لإغراء صديق حميم لزوجها فتزل بها
القدم . ويتفق أن يفاجئها الزوج . . فبدلاً من أن يقتل
زوجته . يقضى عليها أن تعيش وحيدة ، بعيدة عن أقاربها ،
في بيت مستقل : فيكون عفو الزوج عن زوجته على هذا النحو
أبلغ تأثيراً في نفسها من الانتقام ، فما يسعها إلا أن تنتحر . . .
لعلك تسخر من الموضوع وترميه بأنه غير واقعي . فما
هذه البطيئة الغريبة من جانب الزوج ! وما هذه الفضيلة العجيبة
من جانب الزوجة ! نعم ، واسكنك لا تفكر في هذا كله إلا

بعد الفراغ من رؤية المسرحية . إن في مشاهدتها لمواقف نفسية قوية ، تصور النفس الإنسانية أصدق تصوير ، فما تستطيع أن تضحك مهما بلغت من قسوة السخر .

ومهما يكن من أمر فقد بدأ الجمهور الاليزابثي بعد عام ١٦٠٣ يميل إلى النوع الباكي . لقد كان قبل ذلك يتطلب مشروبات قوية ليعول ، وأصبح الآن يتطلب مشروبات ناعمة ليحاول أن يدمع . إن ظهور هذه العاطفية مؤذن بالانحطاط .

٣ — الذبول

طائفتان من مؤلفي الدرامات حاولتا أن تمهدا الطريق للانحطاط : الأولى بتقوية العنصر المأثمي في المسرح الاليزابثي والثانية بإدخال التقليد الساخر والملمهة الخفيفة في الإنتاج الدرامي .

أما الطائفة الأولى فأبرز رجالها اثنان هما تورنر (١٥٧٥ - ١٦٢٦) ووبستر . ويتجمع هذان المؤلفان بمواهب قوية ، ولسنا نعرف شيئاً عن حياتهما ، وقد اختصا فيما يسمى « بالدرامة السوداء » . فلسـت ترى بين المآسي مأساة جمعت من المشاهد الفضلية ما جمعت « مأساة الإتيقار » لتورنر ، وإليك بعض مشاهدتها فأحكم عليها بنفسك :

يكن قانديس (وهو المنتقم) في طريق موكب الدوق ،
وييده جمجمة عشيقته الذي سمها الدوق . حتى إذا مر الموكب
شد الدوق إلى مكمنه واضطره أن يقبل شفتى الرأس الميت
وقد طلاه بالسم : وفيما يكون الدوق في دور الإحتضار ،
يريه الدوقة بين ذراعى سپوريو ، ابنه غير الشرعى . ومشهد
آخر : مشهد أنطونيو الذى هتك ابن الدوقة عرض عروسه ،
يكشف عن جثمان امرأته . ثم مشهد جراسيا ، أم قانديس ،
تدفع ابنتها فى حماة الدعارة للحصول على المال ، وتقوم عند
ابنها بدور القوادة . ثم ختام الدراماة : مذبحة عامة .
ونلاحظ هذا التطرف فى « مأساة الملحدة » ، المسرحية
الثانية لتورنر : امرأة تتقدم إلى كل رجل قوى ، وتتلقى
الجواب على ذلك ملاطفات من هذا النوع : « إن حب
المرأة أشبه بفطر من الفطور ، ينبت فى ليلة ، ويقدم لذة
فى الغد على المائدة » ، ولكنه سرعان ما ينشر رائحته الكريهة
ويسمم . ويجرى أكبر مشهد من الدراماة فى المقبرة ، حيث
ترقد شخصيات هذه المسرحية . قال مارسيل شوب
متحمساً « لقد ولد تورنر من زواج إله مجهول بأم عاهرة »
وأقول أنا بدون أن أذهب هذا المذهب ، إتنا لا نستطيع إلا

أن ندهش لهذه الروح الفاجرة عند تورنر ، وهذه النفث
الفضيحة إلى الحياة ، ولهذا الإشمئزاز من الإنسانية .

أما وبستر (١٥٧٥ - ١٦٢٤) الذي أعقبه مباشرة ،
أسمى موهبة من ناحية البناء والشعر . وقد استمد موضوعه
من توارينخ إيطاليا في عصر النهضة ، وهي تفيض بأخ
الجرائم . في مسرحيته « الشيطان الأبيض » يصور
فضائح بغى اسمها فيتوريا تدفع بعشاقها وخلانها إلى ارتك
جرائم القتل ، ثم يرفع أمرها إلى القضاء لتحاكم على ج
الجرائم التي حضت على وقوعها ، فتقف تدافع عن نف
أمام القضاء ، فإذا بها تبلغ في دفاعها من قوة البلاغة وذ
التأثير ما يذهل القضاء فما يجرؤون أن يحكموا عليها بالاعد
وفي مسرحيته « دوقه أمالفي » يصور لنا امرأة مسكينة يذ
إخوتها إلى الجنون والموت : في وسط الظلام يمدون إ
يد رجل ميت زاعمين أنها يد زوجها أنطونيو ، ثم يضيق
النور فتري وراء حجاب شفاف وجوه أنطونيو وأبنائها في و
الموت (وقد صنعت الوجوه من الشمع) . ثم تتحاط المسك
بعدد من المجانين ما تلبث أحاديثهم الجنونية أن تفقد
عصوابها ، قبل أن يبطش بها السيف . ولكن كفى .. كفى

ولنعد إلى الاعتدال بحديثنا عن جون فلتشر (١٥٧٩ -
١٦٢٥) : هو ابن أسقف لندن ، أديب مرهف الحس دقيق
الذوق ، صاحب مسرحية ريفية جميلة بعنوان : « الراحية
الأمينة » . وقد كتب بالاشتراك مع بومونت (١٥٨٤ -
١٦١٦) معارضة هزلية رائعة للدرامة البطولية « فارس
السيف القاطع » . يذهب أحد البقالين مع امرأته إلى المسرح ،
ويخشيان أن تكون المسرحية المعلن عنها « بائع لندن » هجاء
لاذعا لطبقتهم ، فيطليان إلى أجيرهما رالف وهو ، من
قراء الروايات البطولية أن يلعب دوره في المسرحية ليكون
نحر البقالين ، فيقوم هذا بدور فارس السيف القاطع ، فنشهد
له عددا من المآثر الحميدة ، منها أنه ينقذ زبائن حلاق (كان
ينعت في ذلك الظرف بالعملاق بارباروسا) . . إلى آخر
ما هناك . وهكذا نرى ثلاث ملاء في ملهاة واحدة . المسرحية
الأولى (وهي هجاء الدونكيشوتية) ، وإضافات الفارس رالف
المتنفخة ، ثم تعليقات البقال وامرأته ، وهي من أجمل
التعليقات وألطفها . ونرى المؤلف ينتقل من الشعر المرسل
إلى الشعر المقفى ، ومن الشعر المقفى إلى النثر ، بدون أى
تدرج . ولكنك لا تحس في ذلك كله شيئا من الفوضى أو

الاضطراب . وهذه ناحية قوية لم يوفق إليها فلتشر فيما كتب بعد ذلك .

أما تليذه ماسنجر فتعوزه الأصالة والقوة . إلا أن له مسرحية بقيت مع ذلك حية إلى حد كبير ، وعنوانها « طريقة جديدة في تسديد ديون قديمة » ، وهي تمثل مرايا شاذاً غريباً ، يحب المال لأن المال يتيح له أن يحطم غيره . فهو أمرؤ مولع بالتعذيب ، فليس يسعده شيء كما يسعده أن يرى الناس يتعذبون . ولكنه يقع أخيراً في الفخ ، فنشده وهو يرغى ويزبد ويعض الأرض ، ويساق إلى مستشفى المجانين . ألم تذكر مارلو وبن جونسون ؟

هذا هو ، رغم كل شيء ، خير ما في الدراماة الاليزابثية (نحن الآن في عهد شارل الأول) . وقد اكتشفت أخيراً مسرحية لمؤلف اسمه فورد^١ (١٥٨٦ - ١٦٣٩) تمجد حب المحارم في حب جيوفاني لأخته أنابلا التي تزوجت . وتتأني الأخت على أخيها ، فيقتلها في الكواليس ، ثم يعود إلى المسرح وهو يهز قلب أخته الدامي على رأس خنجره . مرحى فورد ! ولكن تورنر كان « أشطر » منك ! . . .

ويمكن أن نذكر كذلك اسم شيرلي (١٥٩٦ - ١٦٦٦)

الذى قلد سابقه ، ولكنه برهن على تمكنه من صناعته وعلى براعة عظيمة .

وما هي إلا لحظة حتى ساد ليل شامل وظلام دامس .
ويقطف البيوريتانيون ثمرة جهودهم الطويلة ، فيصدر في عام ١٦٤٢ قرار يقضى بإغلاق المسارح . .

ولما فتحت المسارح بعد ثمانى عشرة عاما كان الذوق قد بلغ من التغير أن تساءل الناس : كيف أمكن أن يكون أجدادنا بدائيين إلى هذا الحد ؟

الفصل السادس

وليم شكسبير

١ - المؤلف والرجل

سيد الأدب العالمى غير منازع . معجزة من معجزات
العبقريّة . كان منافسوه من خريجي الجامعات يحسدونه فى أثناء
حياته ، فى ذلونه ويشترّون عليه . ولكن هيات أن ينال
قزم من عملاق . تعيش أبطاله حياة فوق الطبيعة فما يعرف
الهرم إليها سبيلا .

ليس يضيره أن يقع فى شىء من التكلف والغلظة من
حين إلا حين ، فقد كان يعرف كيف ينهض ثانية . لم يكن
يسعى إلى أصالة ، فإنما هو مورد مسرحيات يريد لفرقة
أن تكسب وتربح . كان يتبع الذوق السائد ، فشعاره الحياة
أولا . فإذا أصدرت الملكة أمرها إلى المسارح أن تعمل
على « إذكاء ، الوطنية ، هب شكسبير يكتب مآسى تاريخية
كبيرة فى تمجيد الانتصارات الإنجليزية .. وإذا كان الجمهور

يعنى بالدرامة السوداء ، رأيت شكسبير يكثر من حوادث
القتل والتعذيب والانتحار والجنون.. وإذا رأينا فلتشرى ضمن
الغلبة والسيادة للهياة الخفيفة ، رأينا شكسبير يبادر إلى تصوير
شخصيات لطيفة ، ورأينا مسرحياته تفيض عطرا وزهرا .
وكان الذوق العام يتطور بسرعة، فكان لابد من الكتابة
بسرعة . فكان شكسبير يستمد موضوعاته من أى معين كان :
من أخبار هولنشد أو من آثار بوكاشيو أو باندلو أو غيرها ،
بل كان فى غالب الأحيان يكتب بأن يعتمد إلى مسرحيات قديمة
فيضيف إليها بعض الفصول أو يحذف منها بعض الفصول
بدون أى مراعاة للانسجام . وكان لرغبته فى إرضاء الجماهير،
شأنه فى ذلك شأن معاصريه ، يمزج بين عقدة هزلية نثرا وبين
عقدة فاجعية شعرا .

ولعلك تقول : وكيف يكون إذن إنسانا عظيما مادام
يعوزه الابتكار الأصيل ؟
ولسكن مهلا . إن شكسبير ما يكاد ينشب مخله فى موضع
حتى ترى فيه طابع العبقرية .

ليس بين العبقریات التى عرفتها الإنسانية عبقرية واحدة
تضارعه خفة وانطلاقا .

عُصِّد شكسبير فى ستراتفورد أن آفن فى السادس والعشرين

من عام ١٥٦٤ . وكان أبوه تاجرا ميسورا الحال ، عُين رسميا في وظيفة ذائق للبيرة (في مصلحة قمع الغش) ، ثم عين قاضيا في بلدته (وبهذه الصفة كان يستقبل فرق الممثلين المتجولين) . وأما أمه ماري آردن فكانت تنسب إلى أسرة من صغار ملاكي الأطيان .

أدخل في « مدرسة النحو » بستر اتفورد ، وهي مدرسة ممتازة ، لم تكن تعنى بالدراسات الكلاسيكية (اللاتينية خاصة) فحسب ، بل بدراسة اللغة الانجليزية كذلك . ثم يفلس الآب ، وبعد ذلك تغيب عن نظرنا شخصية الفتى ولیم شكسبير . ولا نعرف من أمره إلا أنه في الثامنة عشرة من عمره تزوج آن هاتاوى التي تكبره بثمانى سنين ، وأن الزواج كان اضطراريا ، إذ لم ينقض عليه ستة أشهر حتى كانت الزوجة قد وضعت غلاما .

سافر وحده إلى لندن يسعى وراء الثروة . ودخل ميدان المسرح فكان ممثلا عاديا . لكنه لم يلبث أن اكتشف طريقه كملفك لمسرحيات . وحالفه الظفر ، فاندفع عندئذ وراء التأليف الشخصى . وتردد على اوساط البلاط . ففتح له كونت سوثامبتون حمايته . وقد عالج آلاما عاطفية شاذة : ففي « قصائده » ما يشير إلى

حبسه لسيد فتى خانة مع د امرأة سمراء ، ا وإنك لتحس في
نبراته لوعة حقيقية وألما صادقا .

ونال الثروة ، فقد كان رجل أعمال ممتازا . فاشترى في مسقط
رأسه منزلا استقر فيه عام ١٦١٠ . ومات في الثالث والعشرين
من شهر ابريل عام ١٦١٦ ، ودفن في الكنيسة امام الهيكل .
وجمعت مؤلفاته عام ١٦٢٣ في مجلد ضخيم وكان بعضها
قد نشر قبل ذلك في مجلدات صغيرة ، ولكنه لم ينشرها إلا
مضطرا ، فإن بعض النصوص قد نشر وانصا ناقصا حصلوا عليه
بواسطة الاختزال أثناء التمثيل . ويبلغ مجموع مانشر من هذه
المؤلفات تسعة عشر مؤلفاً . منها أربعة عشر فقط نشرت
بموافقة للمؤلف .

ولكن شكسبير كان يكتب ليُمثَّل لا ليُقرأ ، ويجب
ألا نعد النصوص التي وصلتنا من آثاره نصوصا مقدسة نهائية
لا يمكن أن تمتد إليها يد . فإنما هي في معظمها منقولة عن
الدقات التي كانت تكتب للملقنين ، وكثيراً ما كان شكسبير
يعود إلى نصوصه فيجري فيها قلبه تبديلاً وتنقيحاً وفقاً لما
تقتضيه النظارة أو الجودة الدارجة . وكثيراً ما كان يضيف
تفصيلات تقتضيها الطوارئ والحوادث المستجدة . بل كان

لا يعنيه أن يعرف هل هذه الإضافات أو الاختصارات تسيء إلى تفهم المجموع . وهذا هو السبب في أن كثيراً من الفقرات غامضة مبهمه .

وقد أمكن تحديد الترتيب الزمني لظهور مسرحياته الأساسية بالاعتماد على وسائل كثيرة ، منها ظهور المجلدات الصغيرة ، وما تضمنته سجلات «شركة المكتبات» ، وما تضمنه مؤلفات منافسيه من إشارات ، ثم الفقرات التي تشير إلى حوادث مستجدة ، بل والصورة التي كتبت بها المسرحيات (فإن شكسبير قد فقد شيئاً فشيئاً احترامه للقافية وأصبح أدنى إلى المرونة) . . الخ .

وتتفاوت قيمة مسرحياته علواً ودنواً ، فمنها الرائع ، ومنها الحسن ، ومنها المتوسط ، ومنها الرديء . وقد أخذ النقاد منذ ثلاثة قرون يقسمونها إلى ثلاثة أقسام عادلة معقولة ..

٢ — الشباب الطافح

نستطيع أولاً أن نستبعد كل المسرحيات التاريخية تقريباً . فمسرحيتا « هنري السادس » و « ريتشارد الثالث » أدنى إلى الغرابة منها إلى الواقع : تبدو جان دارك في مسرحية « هنري

السادس ، في ملاح امرأة ساحرة — على أن في مسرحية « ريتشارد الثالث » مشهداً ليلياً رائعاً غداة المعركة الحاسمة ، حيث نرى الملك وقد غزته أشباح ضحاياها .

والطائفة الأساسية من المسرحيات التاريخية هي ذلك التمثال الشاهق الذي أقامه شكسبير تمجيداً لبطل قوى هو الملك هنري الخامس بطل أزנקورت . ولكن قاعدة هذا التمثال أعنى ريتشارد الثاني لا قيمة لها إلا من حيث هي دراسة لطبع من الطباع : طبع الملك الضعيف ، الخيالي ، الذي يذهب ضحية أخطائه ، الكريهة والداعية إلى الشفقة في آن واحد . كما أن التمثال ، هنري الخامس ، يتحرك حركات فيها كثير من التفخيم . ويحس القارىء أن شكسبير أراد أن يؤلف مسرحية ذات أسلوب نفخ . لقد لجم عبقريته حتى خنقها .

وهناك الجزءان الآخران من مسرحية « هنري الرابع » وهما جزءان لا يزالان حين بفضل البطانة الهزلية للعقدة . ولئن كنا لا ننسى ذلك العنصر المؤثر في المشاهد التي تدور بين الملك الذي هرم قبل الأوان بتأثير الهموم وتأنيب الضمير والحب ، وبين ابنه الأمير هال الفتي الذي يتمرغ في حماة

الفسق والفجور بناء على خطة مرسومة ، فانتنا ننتظر بوجه خاص
مشاهد الخيانة حيث يلع سیر جون فولستاف ، رفيق الأمير ،
ومرشدہ ، وضحيته . إن فولستاف يلخص في شخصيته أبطال
الملحمة الراقبية .. إنه برمیل متجول يقضى ليااليه وهو يمثل .
وكما ازداد عباً للخمر ازدادت قريحته نشاطاً . إن عينيهِ الصغيرتين
تشتعان الخبث في وجهه المستدير استدارة البدر . إنهم يصفعونه
ويسرقونه ويصبون عليه ألواناً من الكذب والخيانة والغدر .
ومع ذلك فإن الكلمة الأخيرة دائماً له . إن الناس يضحكون
دائماً معه لا عليه . إنه البرهان الحى على عظمة الخمر .

وكان من نجاح هذه الشخصية أن عاد إليها شكسبير في
مسرحة « الزوجات المرحات في وندسور » . ولكنه يقدمه لنا
هنا هرما ، غيباً ، سريع التصديق ، تستطيع بورجوازيتان
سخيفتان أن تضحكا عليه وتدساه في سلة الغسيل الوسخة
وترمياه في النهر .

ولا تزال الملاحى التى كتبها شكسبير في شبابه تصيب
نجاحاً . ولا سيما اثنتان منها هما « تاجر البندقية » و « كما
يعجبك » . ويجب أن نذكر كذلك مسخرة قديمة عمد إليها
شكسبير فخورها ، وهى « ترويض النمرة » ، وما زالت هذه

المسخرة تنال رضى ممن يحبون أن يضحكوا على نحو ما كان الناس يضحكون فى القرون الوسطى .

أما « تاجر البندقية » ، فهى ملهاة سيئة التأليف ، بتناول ثلاثة موضوعات رئيسية ، فضلا عن الموضوعات الثانوية : الغرض الذى اتفق عليه بين اليهودى شيلوك والتاجر أنطونيو ، ثم قرار پورشيا فى أن يتزوج من بين المعجبين بها ، الرجل الذى يختار من بين الصناديق الثلاثة الصندوق الجيد ، ثم غرام لورنزو بجيسىكا ابنة شيلوك . أضف إلى ذلك أن هذه المسرحية تحتوى على أمور غير ممكنة الوقوع : فهل تبلغ الغباوة بياسانيو ألا يعرف خطيبته پورشيا لمجرد أنها ارتدت رداء قاض ؟ ولكن ، فى المقابل ، ما أروع ما هنالك من مشاهد فخمة ، كحديث الحب بين لورنزو وجيسىكا ، ثم ما أعظم اختراع شخصية شيلوك ! إن شخصيته لمن التعقيد بحيث فسرهما كل قرن تفسيراً مختلفاً عن تفسير القرن الآخر : مثله أيام شكسبير فى صورة عجوز كريبه مكشر لا يقصد من شخصيته إلا أن يضحك جمهوراً من يكرهون اليهود . ومنذ عهد الرومانطيقين . خففنا من غلوائنا وأصبحنا نشفق عليه بعض الاشفاق : ليس شيلوك بالذكى ، ولكنه يبلغ من

آلام قلبه وماله وكرامته الإنسانية أننا نكاد نبرر له ما عمد إليه مع أنطونيو من إبرام هذا الوعد الوحشي الذي يقضى بأن يؤدي له أنطونيو رطلا من لحمه . لم يكن ليدور بخلد شكسبير أن الناس ستعجب يهوديه : لقد فاقه بطله .

وليس في مسرحية « كما يعجبك » ، ولا في مسرحية « الليلة الثانية عشرة » أبطال بلغوا هذه الدرجة من قوة الوضع . وربما كان هذا هو السبب في أن هاتين المسرحيتين غير ذائعتين ذيوع مسرحية « تاجر البندقية » ، رغم أنهما أكثر توازنا منها . على أن في مسرحية « كما يعجبك » أشياء رائعة لا تنسى ، فهل ننسى غابة آردن حث نرى روزالند تخفي آلام قلبها ، ونرى جاك المريض بأعصابه يزجي وقته محللاً إحساساته ساخراً بالآخرين ! أما « الليلة الثانية عشرة » ، قصة التخفي والحب ، فما أظن أن كثيراً من الملاحى الخيالية تضارعها في توازنها وحسن تسلسلها ، بل إنك لتأخذ عليها هذا الإسراف في التوازن : فإن المرء ليشاهدها مفتوناً بها ، لكنه سرعان ما ينساها .

وأجمل مسرحيات شكسبير الشاب مسرحيتان : إحداهما خيالية من عالم الجن ، عنوانها « حلم ليلة صيف » ، والثانية

مأساة غرامية هي « روميو وجوليت » . ولا شك أن الأولى
تحتوى على طائفة من الشخصيات ليست بالشائعة كثيرا مثل :
شخصية الدوق تيزيه وحاشيته . ولا شك أيضا أن العقدة
الهزلية فيها تبطيء الفعل أو الحدث فيما لا طائل تحته .
فالصناع الغلاظ الذين يهثون مأساة لزواج دوقهم لا
يضحكوننا إلا على قدر ما يفيدون في إضحاك الجنيات : إن
العنصر الجنى فى المسرحية هو الذى يشوقنا : شخصية
أوبرون الزوج الطاغى الذى ينتقم من امرأته بأن يجعلها تحب
بوتون الحائك الخشن القاسى .. الذى ألبس رأس حمار ، الخ
أما روميو وجوليت ، فهى درامة الحب والشباب والنور ،
وقد عدتها الأجيال ثروة عامة للبشرية بأسرها . ولا شك أن
من الممكن أن نأخذ عليها هذه الخاتمة الميلودرامية المسرقة .
وقد نأخذ عليها عدم الاحتشام فى كلام المربية العجوز التى
لا تحلف إلا بعذراويتها ، وتمزج دائما بشئون الزواج . . . إلا
أن فى هذه الدرامة عنصرا أبديا خالدا ، هو هذا الحب الحار
العنيف بين شاين ، هذا الحب الذى يدوى فى أعماق القلب
كما يدوى صوت الأرنغ فى غابة واسعة . قلء بين الشعراء
الغنائيين من بلغ ما بلغه مشهد الشارقة من رفعة وسمو ، حيث
يتساقى روميو وجوليت أحاديث الغرام الذى سوف يربطهما
حتى فى الموت . . .

٣ — الفترة المظلمة

بأنقلاب صفحة القرن السادس عشر ينقلب شيكسبير إلى المأساة القاسية الدامية . . ولا شك أن من العوامل التي دفعت في هذا الاتجاه ما أصابته « الدراما القاتمة » من نجاح : إن مسرحية Measure for Measure تنتهى نهاية ملهاة ، ولكنها فى الواقع مأساة ، إنها دراما النفاق . إن أنجيلو الپيوريتانى الذى يستفيد من سلطته لإرضاء تبذله هو شخصية مأساة . أما مسرحية « ترويلس و كريسيدا » فهى معارضة لأدب القدماء الذى يريد أن يكون فكها وهو فى حقيقته مر « غاية المرارة . وأما « تيمون الاثينى » فهى دراما الخداع والدناءة الإنسانية والدعوة إلى كره الإنسان . وأحسن المسرحيات الرومانية التى كتبها شيكسبير مسرحية « يوليوس قيصر » ، وفيها يبين بمثال بروتس كيف يخفق مواطن طيب مستقيم مخلص أمام سياسى ماكر ، بل كيف يهدم ، بسلامة نيته ، القضية التى احتضنها ، قضية الحرية .

والسلسلة السوداء حقاً من آثار شيكسبير هى مسرحياته الأربعة « عطيل » و « الملك لير » و « هاملت » و « ماكبث » ،

وهي أشهر مؤلفاته على الإطلاق. وأكثرها اسوداداً هي «الملك لير»، فنحن هاهنا في عالم من المرضى والشواذ وأنصاف المجانين: هي قصة ملك عجوز متعاطم يدعى لير، يحب المديح، ويريد أن يقسم مملكته بين بناته الثلاث، فيطلب إلى كل منهن أن تقول كلاماً في مدح شخصه العظيم. أما الكبريان جونزل وريجان، فانهما تسمعانه أقوالاً معسولة تفيض بالتبجيل، وأما كورديليا فتشمتز من هذا النوع من التمثيل وترفض الإجابة، فيحرمها أبوها من إرثه، وتترك المملكة مع زوجها ملك فرنسا. إن لير لا يعرف من الملك إلا مظاهر العظمة... إنه عجوز مزعج يحف به حرس طائشون. ولم يكن يحتمل أقل شيء من النقد، فكلمة واحدة كانت كفيلة بأن تجعله يرغى ويزبد غضباً. وفي ليلة عاصفة ينبذه الجميع إلا مضحكه، فيهرب إلى أرض قاحلة وهو يهذى ويعربد ويشتم العاصفة. وفي ناحية منعزلة يلتقي بإدجار، الابن الشرعي لكونت جلوستر، الذي طرده أبوه على أثر وشاية نماها إليه ابنه غير الشرعي ادموند، فتخفي تحت قناع مجنون متسول. وبينما تزار الرياح وتعصف، نسمع هؤلاء الثلاثة: المجنون الحقيقي والمتظاهر بالمجنون والمجنون المحترف (مضحك الملك) يتبادلان الحديث والهديان.

وتتراكم الحوادث فتتفقاً عينا جلوستر ، وتأتى كورديليا مع الفرق الفرنسية لإنقاذ والدها ، ولكنها تهزم ، وحين يسدل الستار نرى جثث الأموات على المسرح أكثر من أجسام الأحياء . ولا يستطيع الإنسان أن يهتم كثيراً بهؤلاء المختلفين . إن لير الخرف وكورديليا العنيدة لا تثيران فينا سوى قليل من الشفقة . ولا يبقى لنا من عزاء إلا فى المضحك ، وهو شخص رقيق فكه ذكى من نوع فولستاف .

أما مسرحية « ماكبث » ، فهي أحسن تأليفاً وأقل تطرفاً ، وما أحسب أحداً استطاع أن يحلل الشعور المعذب بأحسن مما فعل شيكسبير فى « ماكبث » . وما كبث رجل كان فى وسعه أن يكون إنساناً صالحاً لولا تأمر القدر عليه . فنبوءة الساحرات ، وثقة الملك العمياء به ، ثم طمع امرأته القاسى . كل ذلك دفعه إلى أن يمثل ذات ليلة دور القاتل الخائف . ويصبح ماكبث ملكاً ، ولكنه لا ينعم بالهدوء ، بل تلازمه الأشباح ، وامرأته يحطمها تمزق الروح ولا أقول الندم ، فتصبح مجنونة ، وتجعل تطوف فى أنحاء القصر تمسح يدها لتمحو بقعة من الدم يصورها لها الخيال . وتتسارع الحوادث تترى ، ويموت ماكبث وهو يحارب ، فيفدى نفسه

بهذا الألم الروحي وهذه الميتة الشريفة . . .

أما « عطيل » ، فإنها تترك في نفسك شعوراً بالضيق والبرم ، لأن الطباع تتطور بسرعة كبيرة . فهذا عطيل ، المراكشي الذكي المستقيم ، ينقلب فجأة ، بمجرد ما يتسرب الشك إلى روحه ، إلى شيطان محوم غيور مجنون ، وهذه ديدمونة ، المتكبرة الجريئة التي تتحدى حنق أبيها وتطالب أمام مجلس شيوخ البندقية بحقوق الحب في كثير من الكبرياء ، تتحول بسرعة عظيمة إلى حمامة مذعورة بمجرد ما يبدى لها سيدها المراكشي شيئاً من غضبه . وأقوى شخصيات هذه المسرحية ، ولعلها أقوى الشخصيات الأدبية التي عرفها العالم ، شخصية إياجو ، هذا العبقري الشرير المبغض المتآمر الذي يجد أعظم اللذة وأكبر السرور في رؤية الناس يتألمون . وحين كشف أمره لم ينبس بكلمة واحدة تم عن الندم . . .

أما « هاملت » ، فهي أكثر درامات شيكسبير السوداء تفككاً ، ومع ذلك فهي أروعها وأكثرها إثارة للانفعال . إن شخصية هاملت سرّ محير ، بل إن أفعاله نفسها محيرة .

فالواقع أن هناك هاملتين . هاملت وحشياً وقها حقوداً يرغب في الانتقام ، ويهزأ بأوفيليا ، ويحفر جثة يولونيوس ،

ويدفع باثنين من رفاقه إلى الموت دون مأسفة ولا رحمة .
ثم هاملت آخر شريفا نبيل ، صريحا كريما ، يعترف باخطائه
ويحب أصدقاءه ، ويعبد أباه .

إن هاملت يتظاهر بالجنون . . لماذا ؟ إنه لم يكن معرضاً
لأى خطر . . . لقد كانت أمه تحبه ، وكان من الممكن أن
تحميه من عمه . وعمه يجهل كل شيء . ولكن هذا الجنون
المتكلف كان يجعله على حذر من الأمر . ولفرط ما يتظاهر
هاملت بالجنون ينساق مع هذه اللعبة الخطرة ، ويفقد رقابته
على نفسه . . لقد كان يستطيع تحت قناع الجنون أن يكسب
الوقت وأن يعمل . فها يكمن كل شيء . إن هذا الرجل
البالغ ثلاثين عاماً من العمر شخص ضعيف الإرادة . لقد
عاد إلى الدانيارك منك القوى ، وهو يفكر في الانتحار ،
ويرزح تحت عبء تلك الحالة النورستانية التي يخاف فيها
المريض من مجرد فكرة الجهد المتصل . فلما اكتشف مقتل
أبيه هوى إلى درك الانحلال الإرادى . حتى لقد جعل عمته
يحاذره ويخشاه على عمد منه . ويدفعه إلى الهجوم دفعاً .
ولو أن عمه استطاع أن يستشير فقط ، إذن لكان من الممكن
أن يندفع فجأة إلى قتله ، فإنه حين ضرب پلونيوس الذى كان

يتجسس عليه كان يحسبه عمه . إنه يحاول دائماً أن يستثير نفسه بصرخات وشتائم . . . ولكن عبثاً . . . وحين يظن أنه قد عزم على الأمر واتخذ قراراً نهائياً ، لا يلبث أن يوحى إلى نفسه اتجاهها آخر فيتسامل : أليس من الممكن مع ذلك أن يكون عمى بريثا ؟ وتحين الفرصة ذات يوم ولا يبقى بينه وبين الانتقام إلا أن يهوى يده ، فيصرع عمه . ولكن عمه كان يصلى ، فيجد هاملت فى ذلك حجة للتراجع ، فيقول لنفسه : لو قتلته الآن لمات شهيداً . ولم يقرر هاملت أن يعمل وأن يضرب إلا وقد طعن الطعنة القاتلة .

لم يسبر شيكسبير أعماق الأركان المستسرة من النفس الإنسانية مرة كما فعل فى هذه المرة . وليس هاملت الشخصية المعذبة الوحيدة فى هذه المسرحية الخالدة . فهناك أوفيليا التى يتقاذفها حبها من جانب وواجبها البنوى من جانب آخر . وهناك أيضاً الملكة جيرترود التى لا تعلم هل يجب عليها أن تحب ابنها أم تبغضه . إن مسرحية « هاملت » ، هى ذروة من أرفع ذرى الأدب .

٤ — الصفاء الأخير

ولقد عاد شيكسبير في نهاية حياته إلى الختام التفاؤلى .
ومنع ذلك فليس بين مسرحياته الأخيرة إلا مسرحية واحدة
استحقت الخلود بالفعل وهى « العاصفة » .

أما مسرحية « سيبيلين » فإنها تتناول مرة أخرى موضوع
الغيرة ، ولكن عطيلها رجل محبوب ، كما أن شخصية إياجو
قد لانت . ولكن ديدمونتها ، أغنى إيموجين ، مخلوقة جميلة
نذيلة ، ولعلها أصفى وأنقى بطة خلقها شيكسبير .

وأما « حكاية الشتاء » فهى أيضاً تروى قصة الغيرة
الجنونية متمثلة فى شخص الملك ليوونتس : إنها محكمة التأليف ،
ولكنها تشعب إذا وضعت يازاء « عطيل » . على أن المشهد
الريفى فى الفصل الرابع يتمتع بكثير من النضارة والفتنة . إن
العبد القروى ، وأفراح خطبة فلويزل إلى پرويتا ، وأغانى
أوتوليكوس ، هذا المتشرد المفتون بالفضاء والشمس والحب ،
كل ذلك يجعلنا ننسى أن خاتمة المسرحية بعيدة عن سياق
المعقول والممكن ، وأن من المستبعد أن تكون الملكة التى
ظنوا أنها ماتت لا تزال حية . لئن قلنا لشيكسبير منذ هنيهة :

إنك أسرفت في الخواتيم السيئة ، فليس يسعنا الآن إلا أن
نصرح له بأنه أسرف في الخواتيم التفاؤلية .

وأما في « العاصفة » ، وفي « حلم ليلة صيف » ، فإن الشخصيات
السمائية هي التي تخلف في نفوسنا ذكريات لا تبلى : مثل
شخصية آرييل الذي ينطوى اسمه نفسه على عنصر هوائي
مجنح خفاق ، والذي ينفذ أوامر سيده بروسير و ثم يغنى فرحة
حياته المقبلة تحت الزهرة المعلقة بالغصن - ومثل كاليان ،
خصمه الفظ الغليظ الذي يزجر زجراته الغريزية الصماء .
لقد أراد رينان أن يعد كاليان رمزا للشعب المستعبد الذي
يضمثر ثورات قاتمة ، في حين أن شكسبير لم يخلقه إلا ليجعله
موضوعا للصحك . ويرى كلاريدج أن آرييل يمثل الخيال
الحر ، ويرى هازلت أنه يمثل الروح في مقابل المادة ، ويرى
شليجل أنه يمثل الهواء الخفيف في مقابل العنصر الثقيل
أعني الأرض ، ويرى ريشين أنه يرمز إلى « الروح التي
تطوف في الأشياء » . أليس من خصائص العبقرية أن تخلق
شخصيات يفسرها كل عصر من العصور وكل شارح من
الشارح على نحو خاص ؟

لم يخلق شكسبير شيئاً . إن شكسبير لص سارق . . . إن

شكسبير عبد « المودات » . لقد استلب موضوعاته من غيره ، وأغار على مؤلفات منافسيه . ولكن شكسبير قد أقام قصورا تتحدى الزمان . إنه الوحيد في زمانه الذي رأى النفس الإنسانية عارية في كل جمالها وفي كل قبحها . ولعله الوحيد في العالم الذي أوتي من مواهب الرؤى ما لا يسند في العادة لغير الآلهة .

القبض على السابج

الأدب في ظل البيوريتانية

١ - النثر والشعر

ذبل الأدب في عهد تشارلز الأول في إبان الجمهورية
ثم ما لبث الليل أن ساد . . . تقطعه بعض البروق الخاطفة . . .
إن النثر فقير . . . أول من نصادفهم سير توماس براون
(١٦٠٥ - ٧٢)، وهو لا يكاد يقل غرابة وشدوذا عن يرتون.
وأكبر مؤلفاته Religio Medici وهو مجموعة من المواعظ
والاعترافات كتبت بلغة مرهفة فنية . ولا يزال براون يحظى
بعدد من المعجبين المتحمسين. على أن المعجبين به أقل عددا
من المتحمسين لإسحاق والتون ، وهو كاتب غريب قريب
من القلب. حبيب إلى النفس ؛ حتى لقد دخل كتابه «الصيد
الماهر» في عداد المؤلفات الكلاسيكية ، وهو مجموعة من
الثرثرات الممتعة اللذيذة . . .

غير أن الكتاب الكبير النثرى الوحيد الذى يحمل
طابع البيوريتانية لم يظهر إلى النور إلا متأخرا جدا . أى

حين أخذت البيوريتانية تطارد من كل مكان ، وأخذت تميل إلى الأفول أعنى كتاب جون بنيان (١٦٢٨ - ٨٨) : هو إنسان صوفي من أصحاب الرؤى ، قضى في السجن سنين طويلة في سبيل إيمانه ، وختم حياته الإشرافية رسولا وراعيا لفرقة كبيرة من الخوارج . إنسان فطرى ، تغذى بالتوراة ، وبعض الكتب اللاهوتية الغامضة ، وكتب لنا كتابا رائعا بعنوان « تقدم الحاج » ، (١٦٧٨) بلغ فيه أرفع الذرى الصوفية . روى لنا ما كان من أمر (المسيحى) الذى نجا من المغريات ، وأصغى إلى النصائح الحكيمة ، كيف اجتاز وادى (ظل الموت) بدون عائق ثم (سوق الغرور) وكيف نجا من العملاق (اليأس) ، وكيف وصل أخيرا بمساعدة (الأمل) إلى نهر (الموت) وبلغ أبواب (مدينه السماء) .

« وعبر (المسيحى) النهر . وكان على الضفة الأخرى شخصان نورانيان فى انتظاره . سار معهما إلى أعلى الراية فلما وصلوا قالوا له : ستدخل الآن جنة (الرب) ، حيث ترى شجرة الحياة ، وتأكل من ثمارها التى لا تذبل ، وسيلبسونك حين تصل رداء أبيض ، وستتنزه وتتحدث كل يوم مع (الملك) إلى الأبد

« ولما اقتربوا من الباب كان في استقبالهم طائفة من حرس السماء . فقال الشخصان النورانيان : هذا هو الرجل الذى أحب الرب حين كان على الأرض ، وترك كل شيء فى مسيله ، وقد أرسلنا الرب لإحضاره فأحضرناه ، حتى يستطيع أن يدخل ، وأن يرى وجهه (مخلصه) فرحاً . . .

« واجتاز (المسيحى) الباب ، فتحول إلى كائن آخر ، وألبسوه ثوباً يلعب كالذهب ، وسمع أجراس (المدينة) كلها تدق دقاً فرحاً . لقد كانت المدينة تلعب كالشمس . وكانت الشوارع مفروشة بالذهب . .

غير أن بنيان لم يستطع أن يضع قدمه مرة ثانية على هذه الذرى الصوفية ، فقد جاء الجزء الثانى من كتابه ، حيث يروى لنا ما كان من أمر (المسيحية) حين مضت للحاق بزوجها ، أشبه « بسخرة » أجبره على القيام بها الواجب والنجاح . على أن فى كتابه « موت السيد الشرير » لفتات واقعية جميلة تنهى بدىقو .

أما الشعر فى هذا العصر فهو أنمى جداً من النثر ، وإن لم يكن من الطراز الأول . وفى هذا العصر نرى المسرح تحتله طائفة من الشعراء تتصف بالتعقد والتكلف والشدوذ على

غرار دون، وتسمى بطائفة الشعراء الميتافيزيائيين، لأنهم يريدون أن يتجاوزوا الطبيعة، وأن يحدوا شيئاً وراء الظاهر الواضح للأشياء. وقد أسرفوا في مذهبهم فوقعوا في الشذوذ والمفارقة والمبالغة والاستعارة المعقدة. من ذلك قول أحدهم، وهو كروشو (١٦١٢ - ٥٠): «إن دموع مريم المجدلية هي زبدة أنهار المجرة التي تشرب منها الملائكة عند الصباح». ومن هؤلاء أيضاً فوجهن وهو طبيب قرية، نظم قصائد قصيرة في الطفولة والطبيعة، وهي قصائد تسيطر عليها فكرة الماضي والموت في جو ديني. على أن أكبر هؤلاء الميتافيزيائيين قس هادى. يدعى جورج هربرت (١٥٩٣ - ١٦٣٣)، يضم ديوانه «المعبد»، قصائد مقفاة تلتزم أدق القواعد الشعرية وأخرى حرة لا تتقيد بشيء قط، كما يستعمل استعارات أرضية في التعبير عن وثبات صوفية.

ويمكن أن ننسب روبرت هيرك (١٥٩١ - ١٦٧٤) إلى طائفة الميتافيزيائيين، ولو أنه في الواقع أعظم وأكثر أصالة من أن ينسب إليهم. وهو قس في الريف أيضاً، ولكنه كان قبل ذلك في البلاط، وكان أبوه صائغا، وكان يقرض الشعر هو الآخر. وديوان هيرك «هسييريدس»، عبارة عن قصائد

دينية وأخرى هجائية وبعض مقطوعات المناسبات . وقد عفى الزمان عليها وطواها النسيان . إلا أن له شعراً عن الجن لا يزال حياً ، وله كذلك شعر جميل في الحمر وفي الحب الشهواني . ولا يزال نقرأ بشغف قصائده القصيرة التي يتغنى فيها بالموسيقى والأزهار والمراعى .

وعلى الطرف المقابل لطائفة الشعراء الميتافيزائيين ، هؤلاء الشعراء الدينيين ، الانجليكانيين أو الكاثوليكين ، تقف طائفة الشعراء الفرسان أو شعراء البلاط . وزينة هذه الطائفة شاعران أولهما كارو (١٥٩٨ — ١٦٣٩) ، وثانيهما لقليس (١٦١٨ — ٥٨) ، وقد عرفا كيف يغنيان الحب المتحلل في شعر فني جميل — ثم طائفة البيوريتانيين ، وألمع شخصياتها شخصية أندرو مارقل (١٦٢١ — ٧٨) وهو رجل سياسى . كانت له ساعات من الإلهام الشعرى فذة نادرة . وهو شاعر الحدائق بالدرجة الأولى ، وأول من راقب طير السمانى ولاحظ بريق عينيه .

وفي آخر هذه الفترة ظهرت المدرسة الكلاسيكية الجديدة التي حاولت ، بدون أن تتحرر من هوس الميتافيزائيين ، أن تقدم للعالم الحديث قصائد تضاهى عيون الآثار القديمة .

وأكبر أقطاب هذه المدرسة كولى (١٦١٨ — ٦٧) وقد عرف «كيف يحلل الحب إلى عناصره كما يحلل الموشور شعاع الشمس إلى ألوان الطيف». وقد تعهد الأنواع الكلاسيكية، كالرثاء والقصيدة الپندارية^(١) بل والملحمة. وفي هذه الأثناء كان دنهام (١٦١٥ — ٦٩) فى «راية كوبر» يروى لبنى وطنه الحوادث التاريخية التى شهدتها ضفاف التاميز، وكان والر (١٦٠٧ — ٨٧) ينظم أشعاراً جميلة فى المناسبات.

ولكن ذلك كله ذهب مع الريح. إن هؤلاء الكلاسيكيين، المحدثين أصبحوا لا يهتمون الآن غير المؤرخين. ولئن كان كولى لا يزال يحتفظ ببعض المعجبين فإنه يدين بذلك بالدرجة الأولى إلى «مقالاته»، النثرية الرشيقة. ومع ذلك يجب ألا ننسى أنه ظل خلال قرن كامل يعد أبا الشعر الحديث.

(١) بندار (٥٢١ — ٤٤١ ق.م) أمير شعراء اليونان الغنائيين، امتازت قصائده بقوة الفكر وجمال الاستعارة وروعة الأسلوب ووفرة الصور، وحرارة الرواية. ويؤخذ على قصائده شيء من الغموض والتعاضل.

٢ - جون ملتون

هناك كاتب موهوب واحد يسود انجلترا البيوريتانية :
جون ملتون . وهو كاتب عظيم مافى ذلك ريب . ولكنهم



ملتون ١٦٠٨ - ١٦٧٤

بالغوا فى تعظيمه فى الأوساط الفكرية بانجلترا . والطريف فى
الامر أنهم كانوا يظنونه أرثوذكسيا إلا أن الأبحاث الجديدة
بينت أن تفكيره الدينى كان مستقلا جريئا إلى حد بعيد . وقد

عدّه بعضهم نداءً بشكسبير . وأصبح ملتون الآن موضوع خلاف كبير بين الباحثين . والاتجاه الراجح الآن هو تمجيد ملتون الفارس الغنائى على حساب ملتون الملحمى المسيحى . ولد ملتون فى لندن عام ١٦٠٨ ، وانصرف إلى حياة الأدب فى سن مبكرة . وكان أبوه يحضه على ذلك . وكان منذ عهد المراهقة إنسانى النعمة ، بارعا فى الموسيقى ، تقيا على غير إفراط .

ودخل جامعة كبردج عام ١٦٢٥ . ولفت إليه أنظار الجميع بوفرة اطلاعه وقدرته على العمل ، وكان موضع إعجاب أساتذته وزملائه جميعا . وكان ينظم شعرا باللاتينية والإنجليزية ، فكان هذا مؤذنا بعبقريته . فلما بلغ الحادية والعشرين من عمره كتب قصيدته عن « صباح عيد المسيح » وهى تحتوى على مقاطع منسجمة مؤثرة فى موت پان .

وكان كل شىء يهينه لأن يكون كاهنا ، ولكن الأسقف لود كان يسير بالكنيسة الانجليكانية عندئذ نحو الأرثوذكسية . وترك ملتون الجامعة بدون أن يدخل فى سلك الكليروس . واعتكف عند أبيه فى هورتون مدة خمسة أعوام . وفى خلال هذه المدة (١٦٣٢ — ١٦٣٨) نظم قصيدتين

رائعين أولاهما « L'Allegro » ، وهى تغنى ربيع الطبيعة والقلوب
والثانية « Penseroso » ، وهى تتغنى بالتأمل الكئيب الذى
يهجر الأرض متجها إلى السماء . وكتب بعد ذلك فوراً
مسرحية خيالية بعنوان « كومس » تكاد تكون مسرحية واقعية ،
وفىها صور لنا أليس الحسناء ، بنت كونت برىدجوتر ، تفضل
فى الغابات ، ويلاحقها كومس الجنى الساحر يحاول عبثاً أن
يغزيها وآخر قصائد شباب ملتون قصيدة بعنوان « ليسيداس »
وهى مراثاة رقيقة نظمها بمناسبة موت زميل له فى المدرسة ،
ولا يفسدها إلا إسراف فى الروح الريفية .

وفى عام ١٦٣٨ سافر ملتون إلى إيطاليا ، وكان يفكر فى
كتابة ملحمة قومية كبيرة عن الملك آرثر . فلما أتته أخبار
الحرب الأهلية أسرع إلى لندن واندفع جسماً وروحاً يساهم
فى النضال مع البرلمان ضد الملك . وكاد يهجر الشعر هجراً
تاماً ، فما كان ينظم إلا بعض السونيتات من حين إلى حين ،
(واحدة عن مذبحه الفوديين وأخرى عن فقد بصره
الخ) ؛ ووقف نفسه على خدمة الحرية بمهاجمة أعدائها ،
فهاجم أولاً الأساقفة الانجليكانيين ، ثم الملك ، وأخيراً
البرسبترين . كان بطل الأفكار التقدمية ، وأحسن

كتابات الهجائية ما كتبه بعنوان « Areopagitica » ، وفيه هاجم قيام الرقابة بمنطق قوى وبلاغة رصينة . واندمج في الحياة العالمية ، فكان السكرتير اللاتيني لسكرومول ، وتساجل مع أكبر مفكرى أوربا ، وظفر عليهم جميعا .

قد هوى فجأة وزال مجده . فلما وافى عام ١٦٦٠ وارتقى شارل الثانى مرش آبائه ، لم يعد ملتون شيئا مذكورا ، وأنفق السنين الأخيرة من حياته فى كتابة ملاحم من التوراة كان قد تصورها فى صورة مآسى يونانية مصحوبة بكورس . وعندئذ سيطرت عليه فكرة الأسطورة . وكان قد فقد بصره . ولعل ذلك يرجع إلى أنه أسرف فى استخدام عينيه المسكينتين دفاعا عن البروتستانية . وأخذ يملأ أشعاره على امرأته وبناته ، وهن يكتبن ما يملئ ، ويعزفن أحيانا على العود ترويحاً لنفسه وإيقاظا لوجيه .

وفى نهاية عشر سنين كان ملتون قد نظم ثلاث ملاحم بلغة انجلازية تتبع خطى الجملة اللاتينية ، وشعر مرسل يسكاد يخاور من الوزن ، اثنتان من هذه الملاحم الثلاثة كاد يطويهما النسيان : « العودة إلى الفردوس » ، وهى تصور امتحان المسيح فى الصحراء ، و « شمشون المقاتل » ، وهى درامة يشبه فيها ملتون مصيره بمصير بطاله .

أما الملحمة الثالثة منهي « الفردوس المفقود » (١٦٦٧) .
وقد ظل الناس خلال قرنين كاملين يكيلون لها المديح جزافا ،
والحقيقة أنها في مجموعها لا تصمد لامتحان نقدي . فلئن كان
يحلو للعلماء والمؤرخين أن يمشوا يكتشفون مصادرها في التوراة
ويؤولونها ، فإن القارىء العادى ليضيق ذرعاً بهذه التشبيهية
اللفظة في الغالب . إن الأشخاص فيها تتطور وتبدل ، حتى
« الأبدى » الذى كان يجب أن يظل ثابتاً لا يعتوره تغير
ولا تبديل . والملائكة عزّاب قساة لا يكادون يتأدّبون في
معاملة حواء ، فكانوا يرسلونها إلى المطبخ متى أرادوا أن
يلقوا على آدم درساً في الكوزموغرافيا أو اللاهوت أو
التاريخ . والسماء منظم كتنظيم مجلس اللوردات ، والجحيم أشبه
في تنظيمه بمجلس العموم . وفي قلب المعركة يخترع الشيطان
المدفعين ، ولكن مدفعه قريبة المرمى جداً بحيث يستطيع
رؤساء القطع أن يتحدثوا بسهولة مع المحاربين الذين أمامهم .
« والأبدى » مولع بالاستعراضات ، مغرم بالتمارين
العسكرية في الثكنات . إنه يعين هيئة من الحرس في دهليز
الجنة الأرضية ، ويأمر بطواف العسس في الليل ، ولكن هذا
لا يمنع « الشيطان » من أن يمر ، وحين يأتى الملائكة قلقين

لتقديم تقريرهم ، يزعم «الأبدى» بكل هدوء وبرود أنه قد تنبأ بأن الحرس لن يكونوا إلا خشبا مسندة . . .

وإذا كان ذلك كذلك ، فمن أين أتت هذه الشهرة العظيمة التي أصابتها هذه القصيدة . لقد أتها أولا من أنها تحتوى على فقرات وصفية رائعة ، وإيجاءات موسيقية خارقة ، وأتها ثانيا من شخصية (الشيطان) البطل الحقيقى للقصيدة ، الذى يعيش حياة عنيفة غنية . إنه التمجيد الرائع للكبرياء . إنه بطل (الحرية) الذى لا يمكن ضبطه أو السيطرة عليه . إنه (الروح) . وليس آدم أو الأبدى أو الابن أو حتى حواء ، إذا وضعوا بجانبه ، إلا دى متحركة . .

لم تقدر قيمة ملتون فى العصر الذى نشر فيه هذا الأثر الذى يعد أحسن آثاره ، ثم أسرفوا فى تمجيده بعد ذلك . وهو يحتل اليوم مكانا مرموقا فى تاريخ الأدب الانجليزى . إنه أول من شعر بأن الثورة والتمرد والألم صفات تعظم من شأن (الشيطان) . ومن هذه الناحية يمكن أن يُعد الرومانطيقيون أتباعا له .

الفصل الثامن

أدب « الإصلاح »

١ - العقلية الجديدة

قلّ أن تجد بين الثورات ثورة تضارع « الإصلاح » .
عام ١٦٦٠ نفاذاً إلى عالم الآراء والأخلاق والعادات .

لقد كانت إنجلترا حبيسة في غرفة خائقة ، فأخذت تفتح
النوافذ . كان الناس قد عاشوا في سأم خلال عشرين عاماً ،
فأخذوا الآن يمرحون ويسرفون في المرح . هاهم يلعبون
ويسكرون ويعربدون ويشتمون ، ويمجرون في الشوارع ليلاً ،
يضربون العسس ، ويبقرون أنوف الآخرين ، ويشنقون
النساء من أرجلهن ، ويظهرون في الشرفات سكارى في
أوضاع منافية للحشمة .

أما في ميدان الأدب فقد كانت السيادة للتأثير الفرنسي .
كان كل شيء يهيء إنجلترا لنزعة كلاسيكية من الطراز الفرنسي ،
على قدر ما يمكن للغة الانجليزية ، وهي رومانطيقية غامضة
بطبيعتها ، أن تكون كلاسيكية .

على أن النثر ينتسب إلى ميدان الفلسفة أو التاريخ أكثر من انتسابه إلى الأدب بالمعنى الأصلي للكلمة . وكل من يعنى بتطور الفكر الإنساني لا يستطيع أن يهمل هوبز (١٥٨٨ - ١٦٧٨) مؤلف كتاب «Leviathan» الذى هاجم التيوقراطية ، ومهد للذهب الإلهي ، والمذهب الوضعي ، والمذهب النفعي ، وكثير من المذاهب أيضا - لا ولا نستطيع أن ننقل لوك (١٦٣٢ - ١٧٠٤) صاحب كتاب «رسالة فى العقل الإنسانى» الذى يمكن أن نعهده من ناحية علم التربية مهداً لروسو . هذا وقد أحيا هواة الطرف الأدبية مؤلفات جلائل (١٦٣٦ - ٨٠) عن الساحرات .

وفى وسع المؤرخين أن يتلقطوا كثيراً من الأشياء فى هذا العصر ، فيجدوا مؤلفات كلاريندن (١٦٠٨ - ٧٤) عن الحرب الأهلية ، ومؤلفات الأسقف بيرنت (١٦٤٣ - ١٧١٥) عن الأزمات الداخلية لبان «الإصلاح» ، وأن يجدوا أخيراً وخاصة عدداً من كتب «اليوميات الخاصة» . وأهم هذه الكتب ثلاثة : يوميات ريزبى (١٦٣٤ - ٨٩) ويوميات إيفيلين (١٦٢٠ - ١٧٠٦) ويوميات بينز (١٦٣٢ - ١٧٠٤) . وقيمة هذه المؤلفات متفاوتة . فأما

يرزى فقد كتب للأجيال المقبلة ، وأما إيشيلين فقد كتبت
لأبنائها ، وأما بيير فلم يكتب إلا لنفسه ، فكان إذا أتى المساء
يتناول قهلاً وورقة ويدون سراً بأسلوب مختزل كل ما رآه أو
خطر له طيلة النهار . ولم يبدأ الباحثون بفك رموز يومياته
إلا في عام ١٨٢٥ ، ولم يجرؤ أحد على نشر هذا الكتاب كاملاً
إلى الآن ، فلا تزال هناك فقرات لم تطبع ، فقد ارتاع الناشر
حين رآها وآثر أن يتجاوزها .

إن هذا البورجوازي الجريء الذى كان موظفاً فى البحرية ،
وتزوج بنت هو جنوتى مبعد لم يخف عنا شيئاً من ضروب
الضعف الإنسانى الذى يتمثل فيه . كان يحاسب نفسه كل يوم ،
ويسجل كل شيء كيفما اتفق ، بدون نظام ، فتراه يحدثنا عن
تتويج الملك ، عن الأحاديث البذيئة التى تدور فى حاناته
المفضلة ، عن طاعون ١٦٦٥ ، عن الفطائر التى أكلها ،
والمسرحيات التى شهد تمثيلها ، والمواعظ التى نام أثناءها ، عن
الحريق الكبير فى عام ١٦٦٦ ، عن النساء اللواتى امتلكن ،
عن لحظات حماسه الوطنية ، عن تغو طاته الشاقة ، عن خصوماته
مع امرأته ، عن العقوبات التى يوقعها على نفسه كلها ارتكب
إثماً ، عن الوعود التى كان يرتبط بها ويتحلى منها باطاقة .

وهو حين يروى سقطاته يحمر خجلاً ، ويستعمل كلمات
أجنبية . . .

إنى لا يبيع يوميات پيز كل أدب « الإصلاح » ، ماعدا
المسرح . إن الشعر فى هذا العصر يكتفى بالتهجير عن أفكار
شائعة فى صورة سهلة منسجمة . وقد عمل كونت روسكين
(١٦٣٣ - ٨٥) على ترجمة هوراس فى شعر مرسل ، واشتهر
بالرصانة والجد ، ولكن هذا لم يمنعه من أن ينظم فى مغنبة
كانت تخشى أن نصاب بالزكام . وهناك كونت روتشستر
(١٦٤٧ - ٨٠) وهو مثال الرشاقة فى شعره ، وقد نظم
قصائد قصيرة رقيقة وأخرى بذئة ، كان يتداولها الناس سرّاً .
والأثر البارز الوحيد هو أثر صموئيل بطلر (١٦١٢ - ٨٠)
وقد ظفر بالمجد والشهرة على أثر نشر قصيدته « هودبراس » ،
وهى قصيدة طويلة من النوع البطولى الهزلى ، متأثرة بسر قانتس
وسكارون ، تروى لنا قصة برسيترى اسمه هودبراس يمضى
مع تابعه البخيل رالف ليحارب مفاسد العصر ، فيلقى ما يلقى
من عنت وعناء . ولكى نقدر ما فى هذه القصيدة من تندر
« بالنور الداخلى » ، وغير ذلك ، لابد أن نلم إلماماً جيداً
بالخصومات اللاهوتية فى ذلك العصر .

٢ - جون درايدن



درايدن ١٦٣١ - ١٧٠٠

إن الرجل العظيم في هذا العصر هو درايدن . وهو ابن رجل محترم من الريف . حصل ثقافة قوية في وستمنستر أولا ، ثم في كامبردج بعد ذلك . وعاش حياة أدبية طويلة . وقد تزوج فتاة من الطبقة النبيلة ، وكان يحظى بعطف الملك ، فاندمج في حياة البلاط اندماجا وثيقاً ، ولكن هذا لم يمنع كبار النبلاء من معاملته معاملة الحقراء . . وقد رأيناه في فترة

قصيرة يتغنى بكرمول أولاً ثم بالإصلاح بعد ذلك بنفس الحماسة . وحين ارتقى جيمس الثاني الكاثوليكي العرش رأينا درايدن ينقلب إلى الكاثوليكية . . ولكن حين دارت الرياح نحو البروتستانتية ، لم يجرؤ أن ينكر نفسه مرة أخرى ، فقضى ما تبقى من حياته منبوذاً .

ليس شعره الغنائى بالشعر الشائق . وقد اندفع في شبابه مع التيار الميتافيزيائي .

وبعد ذلك أصبح بطل المذهب الكلاسيكي ، وأصبحت أشعاره أقرب إلى الاعتدال والرصانة . ولا شك أن في قصيدته « Annus Mirabilis » التي تصف حريق لندن ، كثيراً من الوثبات الروحية ، كما أن في « أنشودة عيد سانت سيسيل » وفي « عيد الإسكندرية » موسيقى قوية . على أن أمهات آثار درايدن في نظر معاصريه هي ترجماته الشعرية الحرة للشعراء اللاتين ولا سيما ترجمته للإنيافة .

ولا شك أنه في الهجاء أعظم منه في غير ذلك . حتى لقد ظلت قصيدته « أبسالون وأكتوفل » رغم أنها تدور حول السياسة الداخلية في تلك الفترة فحسب ، أكثر قصائده شهرة وذيوعاً بين الناس . وقد نظمها بناءً على طلب البلاط في

مهاجمة كونت شاقسبرى ودوق مونموث . ليست تعيننا الأسرار التي يفضحها ، وإنما نحن نعجب بهذه الصور الناطقة التي يرسمها لأشخاصه . إن درايدن يرسمها شيئاً فشيئاً ، خطأ خطأ . يخط أولاً دائرة واسعة ثم يأخذ في ملء هذه الدائرة بالخطوط الصغيرة التي تبلغ منتهى الدقة والوضوح . فليس من الصعب على مطلع أن يتعرف تشارلز الثاني ومونموث وشاقسبرى وبكنجهام في شخوص دافيد وأبسالون واكتوفل وزمرى .

ولكن الشعر لم يكن ليغذى صاحبه ، فكان درايدن يكسب معيشته عن طريق تأليف الدرامات . وكان المسرح والمجتمع قد تطورا بوجود ممثلات يمثان أدوار النساء . هاهى نل جون (وهى عاهر من بيوت الدعارة) تظهر ذات مساء على المسرح ، فما يكاد يراها تشارلز الثاني حتى يطير لبه إعجاباً بها ، فيمضى إلى لقاءها وراء الكواليس ويتخذها خلية له . لقد أصبح المسرح مكاناً يلتقي فيه الناس ، تأتيه السيدات مقنعات متخفيات . هاهى النظارة تلعب الورق في الشرفات . . . والشعب من تحتها يترشق قشور البرتقال . . . وكان المؤلفون يحاولون لاجتذاب انتباه مثل هذا الجمهور ، أن يثيروا الشهوات المنحلة

ويبالغون في العناية بالديكور ويولون القسم الموسيقى جل
عنايتهم :

وكان درايدن يعد ملك المسرح غير منازع . . وقد كتب
عدة بحوث قوية عن الفن الدرامي . ولكنه لم يكن موقفا في
تأليف الملاحى ، حتى لقد كان دون منافسيه قوة في هذا
الباب . في مسرحية « المتوحش الأنيق » يرينا كونستانس وهى
تضع تحت ثوبها مخدة لتوهم بأنها حامل وتقنع أباهما بأنه هو
نفسه على وشك أن يلد .

أما إذا تناول المأساة البطولية رأيت أكثر اطمئنانا
وحرية . في مسرحية « كل شيء فى سبيل الحب » يتناول مرة
أخرى موضوع أنطونيو وكليوباترة . ومن مسرحياته « فتح
الاسبان غرناطة » . ومنها « أمبوينار » ، وهى مسرحية وطنية
ترينا الانجليز يعذبهم الهولنديون فى الهند .

ولسكتنا لم نعد نقرأ الآن من هذه المؤلفات إلا المقدمات
التي كان يكتبها درايدن فى الدفاع عن منهجه وصناعته .

٣ - المسرح في عهد الاصلاح

في حين أن كثيراً من منافسيه مازالوا يجدون من يقرؤهم بل ويمثلهم ، على الرغم من أنهم أضعف موهبة منه .
من هؤلاء لي (١٦٥٣ - ٩٢) وهو طالب قديم في كبرج ، كان بوهيميا يعيش حياة فوضوية منحطة ، وكان مدمناً على الخمر إدماناً لا يبرء منه ، وقد جن أخيراً وأودع مستشفى المجانين . كتب عدداً كبيراً من الدرامات في شعر مرسل تتدفق فيه الشهوانية تدفق سيل عرم . كان يكتب وهو في سورة من الحمى ، ولا يزال هذيانه يؤثر في النفس لأنك تسمع فيه رنة الصدق . ولكن أبطاله في معظم الأحيان أشبه بدمى مصروعة . ولعل أحسن مآسيه « الملكات المتنافسات » ، وهي درامة مؤلمة (من الصعب أن نجد شيئاً أعنف من تهديدات روكسانا لساتيرا) وهي في الوقت نفسه غنية بمشاهدتها (نرى في الفضاء معركة تدور بين جمع من البوم وجمع من الغربان ، ونرى معركة عجيبة بين نسر وصقر) .
ومنهم أتواي (١٦٥٢ - ٨٥) وقد عاش هو الآخر حياة شقية كممثل وجندى ومتطفل . ولكنه استطاع قبل أن يموت

جوعاً ، أن يستمتع بفرحة الظفر بمسرحيته « اليتيمة ،
و « إنقاذ البندقية » . وقد وضع قلبه في خدمة حزب المحافظين
أعنى حزب التاج ، فصور الزعيم الشعبي المجدد شافيتسبرى
عضواً عجوزاً بمجلس الشيوخ يقلد الكلب ليضحك لعشيخته .
ثم إن لهاتين المسرحيتين ، ولا سيما الثانية قيمة حقيقية . فما
أروع هذا التناقض بين المتآمر پير الذى يتصف بقوة العزيمة
وصلابة العود وبين صديقه جافير الذى يشى بالمؤامرة حباً
لامراته ويستطيع مع هذه الحقارة أن يقوم بأعمال التضحية
فيقتل نفسه بعد أن يخدم پير بقتله إنقاذاً له من المقصلة .

أما الملهاة فى عهد الإصلاح فلا تزال تقرأ إلى الآن . ولسكنها
أدنى إلى المسخرة المنحطة منها إلى الملهاة الرفيعة ، فهى تستفيد
من كل أنواع القذارات ، وتلعب فيها أصناف الرذيلة دوراً
أساسياً ، ولعل كثيراً منها لا يمكن أن يمثل كاملاً إلا فى
بيوت الدعارة . . .

ومن مؤلفى الملهاة سير جورج إثيرج (١٦٣٤ ؟ - ١٧٠٩)
كان قنصل إنجلترا فى راتشبون (رجنسبورج) . وفق إلى
خلق ثلاث شخصيات نالت رضى الجمهور وإعجابه ، هى

شخصيات : الشاب المتكلف (سير فردريك فرولك في مسرحية « الانتقام الهزلى ») والمتغندرة الشريفة (لادى كوكود في مسرحية « تريد لو كانت تستطيع ») والظريف المتفرنس (سير فويلج في مسرحية « رجل على المودة »)

ومنهم شادول (١٦٤٢ - ٩٢) : مؤلف مغرور متعجل ، ولكنه استطاع في مسرحياته المفككة أن يصور مختلف نماذج المجتمع الانجليزى من الطبقات الراقية والطبقات المنحلة . ومنهم ويتشرلى (١٦٤٠ - ١٧١٦) : يفوق منافسيه بموهبته التأليفية وواقعيته الفظة . إن هذا الرجل الراقى الذى كان يتردد باستمرار على صالون دوقة مونتوزيه والذى اندمج في حياة الطبقات العليا حين عاد إلى لندن ، لم يصور لنا إلا غلاظاً أو معتوهين ، وشخصياته ، رجالاً ونساء ، لا تعيش إلا من أجل اللذة الجسدية فى أحط صورها . إلا أنك تحس عنده رغبة قوية فى تلبس الحقيقة تضاف بصورة لاشعورية إلى هدف أخلاقى : وأقوى مسرحياته *The plain Dealer* « تصور رجال القانون ومن ينخدعون بهم . وأفسكه هذه المسرحيات » السيد أستاذ الرقص ، وهى تصور رجلاً إسبانيا يدعى دون ديجو مولعا بالمودات الإسبانية ، وسيداً من باريس يبلغ به خب عادات

مما وراء المانش أنه يقبل خادمتا المطاعم ، ويصاب بالأمراض
التي يسمونها فرنسية . لا يكلّ ويتشرب من الهزء بأولئك الذين
يتظاهرون بترك العادات البريطانية القديمة .

وقد رهفت الملهاة بعد ويتشرب . ومن المؤلفين بعد ذلك :
كونجريف (١٦٧٠ - ١٧٢٩) رجل من الطبقة الراقية ،
كف عن الإنتاج بمجرد ما تجهم له الجمهور . وقد شاء سوء الحظ
أن يصيب هذا التجهم أحسن مؤلفاته ، أعني « طريق العالم » ،
وهي مسرحية جميلة تذكرنا بطلتها ملامانت بطلات شكسبير .
هي فتاة ذكية ، مرهفة ، فكهة ، ماكرة ، رقيقة القلب على ندرة
ذلك في هذا العصر .. إن لها من قوة الإشعاع ما يجعلنا ننسى
من أجلها ملامهي كونجريف الأخرى .. وأحسن هذه الملامهي
الأخرى « الحب للحب » ، وهي من ناحية الصناعة والاتقان
تفوق « طريق العالم » كثيرا . ويمكن أن نذكر من منافسي
كونجريف :

- فانبروج (١٦٦٤ - ١٧٢٦) : تميل مسرحياته إلى
المسخرة على طريقة رابليه .

- ثم فاركار الإيرلندي (١٦٧٧ - ١٧٠٧) :
أرهف من سابقه وأقرب إلى القلب ولكن نقضه المسائل

الجنسية . وكلا الرجلين قد أزعجه تطور الذوق العام ، فقد أخذ الناس يحبون العاطفة ويميلون إلى الحشمة والخفر والحياء . فقد كتب القس جريمى كولير فى عام ١٦٩٨ مقالة هجومية بعنوان « نظرة سريعة إلى فساد المسرح الانجليزى » ، أعلن فيها أن المسرح أشبه بمدرسة نعلم فساد الأخلاق . لقد أزال البيوريتانيون المسائل الجنسية . وهانحن رأينا رجال (عهد الإصلاح) لا يعيشون إلا من أجلها . ولا بد أن يبدأ الآن عهد جديد ، عهد التوازن بين العاطفة والعقل ، بين الجسد والروح .

الفصل التاسع

عصر الملكة آن

١ — الشعر الكلاسيكي : بوب

هذا هو الازدهار الأدبي الثاني تعيش على رأسه ملكة أيضا . ويمتد عصر الملكة آن فيشمل العهود التي تلي عهدها .



بوب ١٦٨٨ — ١٧٤٤

الشعر في هذا العصر تمتع ولكنه سطحي . إنه أولا يكاد

يجهل الاندفاعات العاطفية ، وهو ثانيا عبد السياسة ، وهو ثالثا قد أسرف في استعمال المفردات الريفية .

هناك شاعر واحد في هذا العصر وطائفة كبيرة من النظامين . أما النظامون فيمكن أن نذكر منهم براير (١٦٦٤ — ١٧٣١) وأن نمنحه مرتبة الشرف الأولى ، وقد نظم قصائد جيدة في المناسبات كما نظم بعض القصائد الغزلية الفكاهية — ويمكن أن نذكر أيضا جاي (١٦٨٥ — ١٧٣٣) ونمنحه مرتبة الشرف الثانية ، ومن قصائده : « أسبوع الراعي » ، وهي تمتاز بأسلوب أنيق متخير ، وكذلك قصيدته « فن السير في شوارع لندن » ، وهي من النوع البطولي الهزلي ويتغنى فيها بأخطار الشارع اللندني .

أما الشاعر العظيم في هذا العصر ، فهو رئيس مدرسة ، بل قل رئيس قبيلة ، ألا وهو الكسندر پوپ (١٦٨٨ — ١٧٤٤) . كان هزيعا ، ومشوها ، وكاثوليكيًا . وتلك كلها أسباب جعلت الناس ينبذونه ، وجعلته يصبح إنسانا شريفا . ولكنه كان ذكيا نشيطا . تفتحت مواهبه مبكرا جدا . قضى سني مراهقته العاملة النشيطة قريبا من غابة وندسور . ولم يتجاوز الخامسة والعشرين حتى نشر القصائد التي ضمنت له المجد وجعلته في طليعة الشعراء . لقد استهدف في أول الأمر أن يكون قريبا من إنجلترا ،

فنظم «الريفيات» ، ولكن طبيعته المنطقية تغلبت عليه بعد ذلك ، فكتب «مقالة في النقد» . وقد اجتمعت هاتان الصفتان في «غابة وندسور» حيث تتخضب الناحية الريفية بأهداف تعليمية . ولكن أول روائعه قصيدة بطولية هزلية بعنوان : «سلب خصلة الشعر» .

وأخذ پوپ ابتداء من عام ١٧١٥ بترجمة هوميروس شعرا انجليزيا ، وقد درت عليه هذه الترجمات حوالى تسعة آلاف جنيه ، فلما أصبح غنيا ، وضمن استقلاله ، استقر في توبكهام ، واتخذ له صالونا في مغارة اصطناعية . وقضى القسم الأكبر من وقته يحارب أعداء قدماء ويوجد أعداء جدد . وأكبر آثاره التى كتبها فى كهولته ملحمة هزلية بعنوان «Sottisiade» ، يسخر فيها من الشعراء الذين لا ينتسبون إلى قبيله . ورغم أننا لا نعرف شيئا عن هؤلاء المساكين فما زالت بعض مقاطع هذه الملحمة تبعثنا حين نقرأها على كثير من الضحك .

أما باقى آثار پوپ فلا تعنى غير المؤرخ . وقد عاد إلى مهاجمة صغار الشعراء فى قصيدته «رسالة إلى الدكتور أربنت» كما نظم نظريات صديقه بولنجبروك الفلسفية ، وذلك فى قصيدته «مقالة فى الإنسان» . ومات فى عام ١٧٤٤ راضيا

مطمئنا إلى ما نال به غيره من عرض موجه
أما في المسرح فليس هناك إلا أثر عين واحد من تأليف .
جاي بعنوان « أوبرا المتسول » ، وقد خلدت هذه الأوبرا
بالموسيقى الممتعة التي وضعها لها بيوش الذي أراد أن يسخر
من هندل ومن الأوبرا الإيطالية ، فعمد إلى ألحان شعبية
قديمة ، وخصص أرق الألحان لأفظ الأغنيات . ونرى هذه
المعارضة الساخرة نفسها في كلام المسرحية من أولها
إلى آخرها .

وقد وفق جاي إلى الهزم بالدرامة العاطفية التي كانت
تعيث فسادا في ذلك الوقت ، واستطاع أن يقضي على الدرامة
البورجوازية وهي في مهدها .

٢ - النثر الكلاسيكي : سيكتاتور

كلما سادت الكلاسيكية في إنجلترا كان النثر هو زينة
الأدب . كانت السياسة في إنجلترا ، أيام حكم الملكة آن
ناشطة ، وكانت المساجلات الدينية عنيفة ، وكانت الآراء
تتصادم في طائفة من النشرات والصحف .

ويمكن أن نذكر بين الذين كانوا يدافعون عن الديانة
الأرثوذكسية جوزيف بطلر (١٦٩٢ - ١٧٥٢) ، ومن خصومه

يمكن أن نذكر بولنجبروك (١٦٧٨ - ١٧٥١) ، وخصوصاً
ماندويل (١٦٧٠ - ١٧٣٣) مؤلف «أسطورة النحل» ، التي
تبرهن لنا ، من وراء المظاهر البريئة ، على ضرورة الفساد
والرذيلة لكل مجتمع أحكم تنظيمه .

وبين المؤلفين السياسيين الهجائيين (باستثناء
دي فوسويفت) يجب أن نذكر بالدرجة الأولى آريثنوت
(١٦٦٧ - ١٧٣٥) وهو يروى لنا في كتابه «تاريخ جون
بول» بصورة فكهة خصومات نيقولا فروج (لويس الرابع
عشر) . وأعتقد أنه مامن أحد كتب التاريخ كتابة متحيزة
وفكهة إلى هذا الحد .

وتعد الجريدة الأخلاقية (أو جريدة المقالات غير
السياسية) التجديد الأساسي في هذا العصر . وأول جريدة قيمة
بهذا الوصف هي «الثرثار» لصاحبها الإيرلاندي ستيل
(١٦٧٢ - ١٧٢٩) . كان العدد من أعدادها عبارة عن
مقالة سريعة تتحدث عن الأخطاء الاجتماعية الصغيرة ،
وتعرض لآخر مسرحية ناجحة ، وتتناول موضوعات
من النقد الأدبي . ولكن ستيل ، هذا البوهيمي الذي كان
ضابطاً ومؤلفاً درامياً وناقداً ، كانت تعوزه الأناة والوقت

والثقافة العامة . إلا أنه في المراحل الأخيرة من مراحل «الثرثار»
قد تعاون مع صديق له مرهف مثقف أديب هو جوزيف
إدسون (١٦٧٢ - ١٧١٩) ، فأصدرا معا جريدة جديدة
سميها سبكتاتور (أى المتفرج) . وما زالت هذه الجريدة
تعد خير نموذج في بابها .

وكان الصديقان يكمل كل منهما الآخر ، فقد كان كل
منهما نقيض الثاني . أما ستيل فقد وصفته لك ، وأما إدسون
فقد كان رجلا هادئا متأنيا . وهو ابن أحد القسس ، وكان
طالباً في أكسفورد . ساح كثيرا في أوروبا ، وكان عضواً
في البرلمان . وقد نظم شعراً باللاتينية ، ونظم قصائد طويلة
في المناسبات ، وألف مأساة على الطريقة الفرنسية بعنوان
« كاتون » . وقد أصدر عدة صحف ، ولكنه لم يكتب شيئاً
يضارع مقالاته في سبكتاتور . وقد استطاع بمعاونة ستيل أن
يجعل ما يطبع من هذه الدورية الأدبية التعليمية ثلاثين ألف
نسخة . فما كنت ترى امرأة في إنجلترا ، وعلى رأسهن الملكة ،
إلا وتطلب سبكتاتور في نفس الوقت الذي تطلب فيه
فطورها عند الصباح ، هذا بالرغم من أن معظم مقالاته كانت
موجهة ضد الجنس اللطيف وغدره وجهله ، إلا أن مسخريته

كانت من اللطافة والحنفة بحيث لم تكن تؤذى السيدات بل كن على العكس يحدن في قراءتها لذة كبيرة .

وأجمل ما ابتدعته جريدة سبكتاتور طائفة الأشخاص الشواذ التي تشتمل على مثل لكل طبقة من طبقات المجتمع : رجل قانوني يحب الأدب والمسرح ، تاجر غني يكره الحرب ، جندي متقاعد متواضع بقدر ما هو شهيم ، قس يفيض معرفة وفضيلة ، السبكتاتور نفسه (المتفرج) ، هذا الشخص العاقل الذي يطوف في الحياة ملاحظاً صامتا — وأخيراً سير روجر كشرلي وهو سيد من الريف لبق أنيق يحب أرملة فتية جميلة .

على أن شخصية سير روجر كشرلي هي بين يدي ستيل ألطف منها بين يدي إدسون . لقد جعل منها ستيل أو أراد أن يجعل منها شخصية رجل بوهيمي ملتهب العاطفة يعيش حياة عنيفة ، يكثر من شرب الخمر ، ويحب الحب . أما إدسون فقد تمثلها شخصية رجل شاذ ، غريب الأطوار ، امتلاً رأسه بالآفكار العجبية المضحكة ، يعيش حياة خاصة من طراز قديم ، ولا يفقه شيئاً في المسائل السياسية ، وهو أشبه بدمية مضحكة . وفي مقابل ذلك نرى إدسون يفوق صاحبه ستيل في النقد الأدبي .

كانت جريدة سيكتاتور تظهر كل يوم ، ماعدا الأحد ، وظلت تصدر مايقرب من عامين (من مارس ١٧١١ إلى ديسمبر ١٧١٢) . ويجب أن نعى خاصة بثلاثمائة العدد الأولى التي أوجدت هذا النوع الزاهر من الكتابة : أعز المقالة ، .

٢ — العملاقان ديفو وسويفت

سادا عصرهما ، وظلا بعد موتهما بقرنين يعيشان حياة تبعث على العجب .

دانييل ديفو (١٦٦٠ — ١٧٣١) : هو ابن قصاب . وقد شهد أثناء طفولته المجتهدة وباء الطاعون الكبير والحريق الكبير ، وظلت ذكرى هذين الحادثين ماثلة في ذهنه لا ترحه . واشتغل بعد ذلك تاجراً ، وأفلست تجارته (١٦٩٢) ، لكنه نهض ثانية وأصبح الصديق الحميم للملك ولیم الثالث الذي اعتلى عرش إنجلترا عقب ثورة ١٦٨٨ . وفي الدفاع عن اتهام هذا الأخير بأنه ملك أجنبي إنما كتب قصيدته السياسية الهجائية المشهورة « الانجليزى النقى الدم » .

و حين ارتقت الملكة آن العرش هبط من سنامه وأخذ يحارب الكنيسة الانجليكانية في صف الخوارج فأصدر بياناً يستخر فيه سخرأ مرأ من أبطال الكنيسة القومية وكان من نتيجة ذلك أن قبض عليه وسجن في نيوجيت وحكم عليه بأن يعرض على الجمهور ويهان ثلاث مرات .

واستطاع أحد السياسيين المهرة وهو روبرت هارلى أن يخرجـه من السجن . فأصبح ديفو التابع المخلص الوفى لهارلى الذى أصبح وزيراً . حتى لقد أصدر لتأييده جريدة اسمها « المجلة » كما قام بجولات جاسوسية كبيرة فى الأرياف ليطلعه على اتجاهات الشعب ، وراقب فى عام ١٧٠٦ المفاوضات التى جرت للاتفاق على الاتحاد بين إيقوسيا وانجلترا . وقد ظل ديفو فى ركاب هارلى عندما انقلب هذا الأخير على حزب الشعب ، وانخرط فى حزب المحافظين .

و حين ارتقى جورج الأول العرش وفاز حزب الشعب هبط ديفو مرة أخرى . ولكنه كان فى هذه المرة ماهراً فأنقذ نفسه . كان الناس يعتقدون أنه قد انضم إلى المحافظين ، فاشتغل ، انقاذا لنفسه ، جاسوساً على جرائد المحافظين عند الوزير الشعبى . ثم أقام فى ستوك نيونجتن من ضواحي لندن .

وهناك كان له من فراغ وقته ما أتاح له أن يكتب تلك الروايات التي ضمنت له المجد . ومات ديفو ميتة غامضة يطارده دائن ملحاح .

ويمكن أن نعد رواية « روبنسون كروزو » ، الرواية الانجليزية الأولى الجديرة بهذا الاسم : وقد أسسها على المغامرات الواقعية التي قام بها الايقوسى سلكيرك ، وأيقظ بها في نفوس الناس محبة الوحدة والعزلة . ويمكن أن نعد شخصية روبنسون ، هذا التاجر العملى المنظم البورجوازى الساذج التقى ، صورة تكاد تكون صادقة غير مبالغ فيها للرجل الإنجليزى العادى . وقد روى ديفو معامرات روبنسون — وهى غير ممكنة الوقوع قطعاً — بتفصيل دقيق يكاد يوهم بأنها واقعية .

إلا أن رواية « روبنسون كروزو » ، قد هرمت الآن وعفى عليها الدهر . وأصبح الأدباء يفضلون عليها روايات ديفو الأخرى . لقد خلق ديفو الرواية التاريخية بإدخاله شخصية خيالية فى أحداث واقعية « مذكرات سنة الطاعون » ، ومع ذلك فلا شك أن خير رواياته هى تلك التى تصف حياة المغامرة والبؤس ، كالقسم الأول من رواية « كولونيل جاك » ،

التي تروى قصة الحياة البائسة التي عاشها أحد قطاع الطرق ،
ورواية «مل فلاندرز» وهي ترجمة ذاتية أو قل اعتراف كامل لفتاة
غُرر بها فأحالتها البؤس والظلم إلى مغامرة خطيرة ، وزوجة
خائنة ، وأمرأة عاهرة ، ولصة . ولو لم يكن لصاحبها غير
هذه الرواية لكفاه بها فخرا .

سويفت (١٦٦٧ - ١٧٤٥) : كان كل ما كانه ديفو ، مع
زيادة أخرى هي أنه موظفًا كإيركي محروم من الذخيرة الثقافية
الراقية . ولد وترعرع في إيرلاندة . وأصبح في رجولته سكرتيرًا
لسير ولیم تمپل السفير السابق والسياسي الكبير . وقد أتاحت
له أوقات فراغه أن يكتب كتابيه الأولين الرائعين « معركة
الكتب » التي تتحيز للقديما على المحدثين و « قصة البرميل »
وهي قصة رمزية تصور پيتر (الكنيسة الكاثوليكية) و جاك
(الكنيسة البرسيترية) ومارتن (كنيسة انجلترا البروتستانتية) .
ومارتن هذا هو الإنسان العاقل المتزن وهو الوحيد الذي يتبع
روح ونص العهد الذي خلفه أبوالأخوة الثلاثة (التوراة) .
وقد حصل سويفت على وظيفة كنسية في إيرلاندة
حيث تقيم أيضا ستیلا ، ابنة تمپل غير الشرعية . وقد ظلت
ستیلا هذه نجته المعذبة طوال حياته . على أنه قضى القسم

الأكبر من وقته في لندن واتخذ له فيها عدداً من صفوة الأصدقاء في الأوساط الأدبية كما ألب عليه عدداً من الأعداء في الطبقات الراقية . وقد منعه هؤلاء الأعداء من أن يصبح أسقفاً ، فكان عليه أن يقنع برئاسة سان باتريك في دبلن . وقد وقعت له حوادث غرامية تعيسة انتهت بزواجه سرا من ستيللا ، وأثرت على أعصابه ، فطاش رأسه ، واندفع في حرب هجائية يسكتب « رسائله » المشهورة دفاعاً عن الأيرلانديين (الذين يحتقرهم) ضد مضطهديهم الانجليز . ثم ازداد شذوذه فكان يصنع أصدقائه بحجة التمرين . ومسته فكرة الوسخ والقذارة ، وأصيب بقرحة في عينه ، فزاد توحشه حتى أصبح أشبه بحيوان مفترس في قفص ، ثم جن ومات تاركا مالا لبناء ملجأ للجانين !

لا يكاد يبق من آثاره الكثيرة إلا مقالاته الهجائية ذات النكتة الوحشية (يبين في الاقتراح المتواضع ، أن الحل الوحيد للمسألة الأيرلاندية هو أن نكره الأيرلانديين على أن يأكلوا أولادهم) ثم « مذكرات يومية إلى ستيللا ، (وهي مكتوبة بقلم إنسان نصف مجنون ولكنها غنية بالحقائق الانسانية) . أما كتابه الخالد فهو « رحلات جليفر ،

(١٧٢٦). وقد هوى هذا الكتاب إلى مستوى أدب الأطفال في حين أنه من أنتم الكتب التي عرفت الإنسانية . يبدأ الكتاب لنا فكها وما يزال يتدرج حتى يصل بنا إلى أسفل دركات التشاؤم . ما الذي يبرهن عليه هذا الكتاب ؟ انه يبرهن على أن الإنسان كائن أحق ، مغرور ، مشعوذ ، مجنون ، محتال ، مجرم . وأنه أخبث حيوانات الخليقة طرا . ولا شك أن في هذا شيئا من حقيقة ، ولكنه ليس كل الحقيقة . لقد كان يعوز سويقت ، هذا الطموح المشوش ، شيء من رباطة الجأش وشيء من الاستبشار .

الفصل العاشر

القرن الثامن عشر

إن حياة صموئيل رتشاردسن (١٦٨٩ - ١٧٦١)
سر غامض كحياة شيكسبير .

كان يعمل طابعا، ولم يتلق إلتعليما أوليا ، ثم إذا بشيطان
الوحي يواتيه فجأة في الخمسين من عمره . كان يكثر من قراءة
الدوريات الأخلاقية كالسيكتاتور ، وكان يبغيض الأدب
الخيالي على الطريقة الفرنسية بغضاً شديداً ، وكان يحب أن
يهبط بالرواية إلى الأرض . وقد هبط بها إلى الأرض فعلا ،
بل لقد شدها إلى الأرض شداً عنيفاً لا هوادة فيه .
ألف رواية طويلة هي عبارة عن مجموعة من الرسائل سماها
« پامبلا » ، (١٧٤٠) : هي قصة خادمة صبية جميلة يحاول سيدها
أن يغريها بشتى الوسائل ولا يفلح ، ثم يتزوجها أخيراً ولا يندم
على هذا الزواج .

وقد لقيت هذه الرواية نجاحا كبيرا شجع رتشاردسن

على أن يؤلف رواية أخرى في سبعة مجلدات ، تعد من عيون الآثار الادبية العالمية وهى : « كلاريسا هارلو » :

كلاريسا فتاة من الريف ، نبيلة جميلة ، ناعمة ، مثقفة ، سعدت على الارض سعادة الملائكة إلى أن ظهر لقليس .. لقليس شيطان فى صورة إنسان ، عدو العفاف ، متكبر متعجرف ، عبقرى من عباقرة المغامرة والفجور . ويريد أهل كلاريسا أن يزوجوها لشخص كره ، فلا يسعها إلا أن تلقى بنفسها فى حماة لقليس الذى يستطيع بالحيلة أن يهرب بها إلى لندن ... ليقيم معها فى شقة هياها لها فى بيت من بيوت الدعارة .. ولكنه هناك يتردد . إن أشعة البراءة والطهر لى من القوة بحيث ينجل لقليس من نفسه ... وتفهم كلاريسا أنها مخدوعة .. فتهرب إلى هامبستد .. فيغضب لقليس غضباً شديداً . ان كبرياء الاغراء قد جرحته فيه .. وهاهو يتتبع خطى كلاريسا حتى يجدها ، ويستطيع بحيل أخرى أن يقتاد فريسته الجميلة مرة ثانية إلى لندن ، حيث يسقيها شراباً مخدراً ليظفر بجسد ساكن لا حراك فيه .

ولكن هل نال لقليس ما يتمنى ؟ كلا ، فقد أحس أنه يجب كلاريسا ، وكلاريسا الآن تحتقره وتشمئز منه وترفض

أن تتزوجه . لقد أصبحت لا تفكر إلا في الموت ... لقد تأملت كثيرا على هذه الأرض ، ولم تصل رسائل الصفيح من أهلها إلا غداة تركت الأرض إلى السماء .

ويسافر لفليس إلى القارة ينشد عزاء وسلوى ، ويتعزى شيئا فشيئا ، ولكن ابن عم كلاريسا يدعوها ذات يوم إلى المبارزة ، ويسدد إلى صدره طعنه قاتلة . ويقول لفليس وهو يحتضر « ليكن هذا تكفيرا عما أئمت يداي »

سيول من الدمع سكبتها انجلترا ، وأوربا من بعدها ، بتأثير هذه الرواية . وأصبح الناس يعبدون رتشاردسون عبادتهم لإله . ثم يحمله محيطه النسوى على أن يصور الآن نموذجا لفضائل الرجل ، فيكتب « قصة سيرتشارلز جرانديسون » . غير أن رجله الفاضل هذا شخصية باردة رتيبة يضيق بها المرء ذرعا . وليس في الكتاب كله ما يشوق القارىء إلا جنون كلايمانتين ، الحسناء الإيطالية ، التي تحارب عبثاً حبها لسيرتشارلز .

وقد أصبحت قراءة روايات رتشاردسون الآن ثقيلة . فإن طريقة الرسائل بطيئة متكلفة ، والاسلوب مختلط ، والتكرار كثير لا يحصى ، ولكنى ما أظن أن بين الكتاب

قديمهم وحديثهم ، من يضاهاى رتشارد سون فى عمق التحليل النفسى .

أكثر ما كان يسوء رتشاردسون فى حياته وجود ذلك المنافس الخطير له : هنرى فيلدنج (١٧٠٧ - ٥٤) . كان فيلدنج من عائلة أرستقراطية أختى عليها الدهر ، فاشتغل كاتباً بالآجرة ، وألف نحواً من عشرين كتاباً تدين بنجاحها إلى موضوعاتها الخطرة .

ونجاح رتشاردسون هو الذى دلّه على طريقه ، فلقد ضاق برواية پامبلا ، وأزعجه مذهب الطهر المفيد ، فألف رواية بعنوان « جوزيف أندروز » : هى قصة خادم شاب تحاول سيدته أن تغريه ، فيولى هارباً ، ويمضى يطوف بانجلترا بصحبة قس شهم يدعى آدمز ، ويتزوج أخيراً بفتاة ريفية تحبه حب شبق .

وقد عارض فيلدنج رواية « كلاريسا » برواية « توم جونز » ، وهى تعالج نفس الموضوع ولكن بدون عنصر مرضى هى : قصة فتاة عنيفة متمردة اسمها صوفيا تهرب من بيت أبيها خلاصاً من زواج كره ، وتمضى للحاق بحبيبها الشاب توم ، وتلقى فى سبيل ذلك كثيراً من العناء ، إلى أن تعثر عليه .

والشباب لفيط فقير يعيش حياة اندناعية ، يطلق العنان لغرائزه ، ويمتاز بأنه على جانب من الجمال ، وينتهي الأمر بأن تتزوج صوفيا .

لقد كان تأثير رتشاردسون في عصره من القوة بحيث لم يستطع فيلدنج أن يتحرر منه . وقد كتب تحت هذا التأثير رواية « أميليا » ، وهي رواية عائلية بورجوازية عاطفية تحتوي على مشاهد قوية تجري في السجن لكنها تخلف في النفس شعوراً بالضيق والخرج .

مهما يكن من أمر فإن أحسن آثار فيلدنج رواية « توم جونز » ، وهي رواية قوية التأليف جيدة الأسلوب . هذا إلى فكاهة جذيرة بمولير ، وكان فيلدنج يقضى « آلاف الساعات » في صقل أسلوبه وتحسينه ، ولكن يجب نعترف بأن ليس بين شخصياته شخصية واحدة أسرة حقا . . أضف إلى ذلك أن فيلدنج يسرف كثيراً في إحكام التأليف ، فكأننا يازاء مجموعة من العجلات كل منها ضرورية للآخرى ليتم سير الآلة . وفي رأي أن أمتع ما فيها استطراد لا يمت بصلة إلى مجرى العقدة ، وهو الذي يحدثنا فيه عن رجل الراية ، ذلك العجوز المبغض للبشر ، الذي يقع عنده توم جونز وهو يضرب في الأرض .

ومن دفعهم نجاح رتشاردسون إلى دخول الحياة
الادبية دفعا ، الكاتب الايقوسى سمولت (١٧٢١ - ٧١) :
كان طبيبا فى البحرية ، ولم يكن على جانب عظيم من
الثقافة ، ولكنه كان ينعم بخيال خصب ، وقدرة على
الملاحظة العميقة النافذة . كان قد لقي فى حياته عددا كبيرا من
الحمق والمجانين والسخفاء واللصوص ، وتلك هى الشخصيات
التي صورها فى روايته الاولى « رودريك راندم » التي يمكن
أن تعد فى جلها ترجمة شخصية لصاحبها . وكان يقتنى أثر
الرواية البيكارية (حتى لقد ترجم جيل بلاس) وجميع
أبطاله تقريبا تميل نحو الكاريكاتور ، وقد سماها بأسماء خاصة :
لاقمانت ، پوشيون ، كراب . وتكثر فى روايته المشاهد
القظة والمستخرات الغليظة ، وقد رسم بعض نماذج البحارة
الانجليز ، مثل أوكم الحشن المشثوم ، فى دقة بالغة تجعلهم
يحيون أمامك .

إن رواية « رودريك راندم » هى أحسن كتب هذا
الكاريكاتورى العبقرى ، ذلك أنه عاشها تجربة حية . أما روايته
الثانية « بيربحرين بيكل » فإن الخيال يحتل فيها مكانا أكبر
وليس فيها مافى الاولى من قرب من الواقع ، وقد حاول

سمولت أن يكتب رواية بالرسائل نسجا على منوال
رتشاردسون وطمعا فيما ناله من مجد وشهرة ، فأخفق
المسكين إخفاقا يستحق الرثاء .

ولنتحدث بعد «همفري كلينكر» عن ستيرن (١٧١٣ - ٦٨)
إكليركي شاذ غريب تقضه مسألة الجنس وجسد المرأة . كان
يكي إدامات حمار ، ثم لا يبالي أن يدع أمه تعاني آلام الفاقة
والعوز . وقد ألف خطبا ومواعظ جميلة كثيرة ، وكتب تقليدا
لمعاصرة رواية بعنوان «حياة وآراء تريستام شاندييه» . إنها رواية
لا أول لها ولا آخر ، ولا يظهر بطلها إلا في الفصل الخامس ،
بل قل إننا لانراه إلا بعد عشر فصول ، لأن الحديث في
أثناء ذلك يدور حول العم توبي . هي مناقشات لاتنتهي حول
تعميد الطفل الذي يموت في رحم أمه قبل أن يولد ... أوهي
دراسة طويلة لقوانين الحرمان السكني . . أوهي أيضا
كتاب في فن الولادة . ويكثر ستيرن من الشعوذة ، فهذه
فصول بيض ، وهذا فصل مؤلف من كلمات مكررة المقاطع
وأصوات مشوشة ، وهذا فصل لا يحتوى إلا على كلمة «أسفا»
مكررة بأحرف مازال تكبر ، وهذه مواعظ واستشهادات
فرنسية ولاتينية وأغنيات وهو من حين إلى حين يشجع

قارئه ساخراً على الاستمرار في القراءة ، وفي نهاية الباب السادس يصرح بأنه سيدخل في موضوعه .
وهذه الرغبة في التقليد هي التي دفعته أيضاً إلى تأليف كتابه الثاني « الرحلة العاطفية إلى فرنسا » . ينسى ستيرن أن يصف لنا كاتدرائيات فرنسا . ثم هو يحدثنا طويلاً عن زرزور في قفص . . . وليس يعنيه أن يشهد ارتقاء الملك للعرش ، ثم هو يعنى كل العناية بوصف إحدى خادومات الفنادق ، بوصف كيس من الساتان أو قرط من الفضة . أما لماذا نجح ستيرن : هذا النجاح كله ولماذا يولى الآن كل هذه الأهمية ! فذلك يرجع إلى شعوره المرهف الحساس . إن قدرته على تحليل أبسط الخلجات الانفعالية ، والتقاط أسرع الخطرات الفكرية وفضح أخفى الرغبات التي تنبثق من أعماق الشعور ، ثم رقة العاطفية الممتزجة بالسحر ، مع فكاهته الحلوة ، وموسيقى عباراته كل ذلك يثير فينا الإعجاب ويعطينا إليه عطفاً شديداً .

٢ — كتاب المقالة والمؤرخون والمفكرون

من الأحكام المدرسية الشائعة أن صموئيل جونسون (١٧٠٩ — ١٨٤) هو سيد الأدب الانجليزي في النصف الثاني من القرن الثامن عشر :

رجل ضخمة الجثة ، مصاب بداء الخنازير ، أعور ، نصف
أطرش ، له كتفان أشبه بكتفي الثور ، ومزاج أشبه بمزاج كلب
حاد . كان يجلس في المقهى يتحدث إلى الفنانين والشعراء
الملتفين حول عرشه ، فيهرم بوحشية أحكامه ، وغزارة
اطلاعه الهائل . . إلا أن كتابة جونسون ، إذا كتب ،
أشبه بالجمعجة . وقد ألف مآسى ضعيفة وقصة شرقية
بعنوان « راسلاس » ، وأصدر غداة صحف من طراز
سيكتاتور . وكان عصره يضيق بهذه المؤلفات ، ولكنه كان
من فرط خوفه منه لا يجرؤ على الاعتراف بذلك . وقد خدم
جونسون الأدب بقاموسه أكثر مما خدمه بمؤلفاته الأدبية .
فقد ساهم هذا « القاموس » في تثبيت معالم اللغة ، ومنعها من
الإسراف في التفرنس . ومع ذلك فإن هذا القاموس ليس
ثمرة عمل هادئ متأن . فما أكثر ما فيه من أخطاء .

أما في النقد . فقد كان جونسون متحيزاً في أحكامه
لا يرى من الأمور إلا جانباً واحداً . وقد نعت شكسبير
بالخروج عن الأخلاق . وعاب عليه أنه لم يلتزم الوحدات .
على أنه قد اعترف له بالعبقريّة ! . ومن مؤلفاته « حياة

الشعراء، وهو كتاب ذو قيمة تاريخية ثمينة، وقد عاقت أحكامه الاطلاقية ازدهار الأدب السابق للرومانطيقية.

ولم يذع كتاب من كتب جونسون ذيوع ذلك الكتاب الذى ألفه عنه صديقه بوزويل عام ١٧٩١ . فجمع أحكامه الغريبة ونكاته وآراءه ، وروى حياته رواية حيادية . وإنك لتستشف عند بوزويل شخصية قوية ونفاذاً فى التحليل النفسى . وقد جاء نشر مخطوطاته فى المدة الأخيرة مصداقاً لذلك .

ومن اختلفوا إلى ندوة جونسون، وأصابوا شهرة ذائعة ، ذلك الإيرلندى جولدسميث (١٧٢٨ — ٧٤) : بوهيمى لطيف ، كان قساً مبتدئاً ثم أصبح طبيباً ، فدرساً ، فكاتباً بالآجرة . وقد طاف أوروبا بامتشردا ينام على البياذر ، ويعزف للناس على الناي تحصيلاً لقوته . واستطاع أخيراً لكثرة ما كتب من المؤلفات التبسيطية أن يحقق حلمه الأكبر وهو أن يستطيع التألق فى ملبسه . ونجمه الآن فى أفول . ولن يبق من مؤلفاته الكثيرة إلا بعض مقالات كتابه « مواطن العالم ، (مثل « رسائل صينية ، على طريقة مونتسكيو) ثم قصيدته « المسافر ، و « القرية المهجورة ، وهما قصيدتان تعليميتان

تتمازان بطابع كلاسيكي كامل وتتصفان بنوع غامض من
الكتابة ولا يفسدهما إلا شيء من التكلف في « التخير
الشعري » ، ثم رواية ريفية صغيرة بعنوان « قس ويكفيلد » ،
كتبت بأسلوب ناعم عذب ، ويقرأها المرء بسهولة محبة ،
إلا أنها للأسف تنسب إلى أكذب وأخطر أنواع الرواية ،
أعني الرواية الخيالية الباكية التي إن كانت تحتل في قصص
الجن فإنها لا تطاق في أوصاف الحياة الواقعية ، فإن العناية
الإلهية فيها تجزى الفضيلة دائما وترد الأشرار إلى الخير وتمنح
الآنسات العاطفيات أزواج أحلامهن ، وتمنح القسس المجدين
المال الذي يسعدهم .

وقد رأينا بعد ذلك عددا كبيرا من الروائيين يضربون
على هذه النغمة السخيفة وينشئون أدبا عاطفيا كاذبا يسود
خلال قرن كامل .

والحق أن جولد سمث الحقيقي العظيم هو جولد سمث
الدرامي الذي سنتحدث عنه .

والأدب السياسي في هذا العصر وافر غزير نذكر منه أول
ما نذكر (رسائل جونيوس ١٧٦٩) التي يشيع فيها حب قوى
للوطن والحرية — وقد أعقبتها خطب بيرك العظيمة

(١٧٢٩ - ٩٧) وصاحبها عدولود للثورة الفرنسية .
وفي هذه الفترة أصبح التاريخ علماً . وليس حظ الفلسفة
في هذه الفترة بأقل من حظ التاريخ حتى لقد استحق هيوم
(١٧١١ - ٧٦) أن يسمى ديكارت انجلترا . وفي هذه الأثناء
كان آدم سميث (١٧٢٣ - ٩٠) من جهته ينادى بأن العمل
منبع الثروة . وأخيراً فإن الأدب اللاهوتي في هذا العصر
ليزهو بمواعظ جون ويزلي (١٧٠٣ - ٩١) التي تقع في اثني
وثلاثين مجلداً .

وهناك طائفة من الكتاب بقي علينا أن نذكرها الآن ،
أعني طائفة كتاب الرسائل . وفي الصف الأول من هذه
الطائفة يأتي تشسترفيلد (١٦٩٤ - ١٧٧٣) الذي يتألف
من « رسائله إلى ابنه » ، كتاب في الوصولية المحببة القائمة على
الإغراء الشخصي — ثم هوراس والپول (١٧١٧ - ٩٧)
وهو من هواة الأسلوب الجوتي العالمي ، وكأني به بواباً
مشقفاً يروى بروح فنية شئون صالونات باريس ولندن صغيرها
وكبيرها — وفي هذه اللحظة نفسها رأينا عدداً كبيراً من
السيدات يكتبن على غرار سيشنييه مثل مسز مونتاجيو (١٧٢٠)

— ١٨٠٠) ولادى موتاجيو (١٦٨٩ — ١٧٦٢) التى
كتبت إلى ابنتها من إيطاليا رسائل تفيض بالشر ولكنها
تفيض أيضا بالأدب . . .

٣ — المسرح

إن الناس يكثرون من التردد إلى المسرح فى نهاية القرن
الثامن عشر . ولكنهم يعنون بالممثلين أكثر مما يعنون بالتمثيلية .
إنهم يشغفون بمسز سيدنز أو بجاريك أكثر مما يشغفون
بشيلوك أو ديدمونه . على أننا لا يسعنا إلا أن نغبط بنجاح
مثل مثل جاريك الذى أحيا مسرحيات شيكسبير .

وقلّ أن نجد بين إنتاج هذا العصر مسرحيات أصيلة .
وكانت المودة الشائعة إذ ذاك هى مودة الملاحى الفكاهية
المؤثرة معاً ، مثل مسرحية « بنت الطاحونة » من تأليف اسحاق
يكر ستاف (١٧٦٥) ، وكذلك الملاحى الهجائية التى تسخر
من العاطفة ، مثل « پولى هانيكومب » من تأليف جورج
كولمان (١٧٦٠) .

ونستطيع أن نقول بأنه ليس هناك إلا مؤلفان مسرحيان :
جولد سميث وشريدان . أما جولد سميث فقد كتب ملهاة

تعد من عيون الآثار الهزلية التي تثير فيك الضحك الصريح والمرح البريء ، أعني مسرحية « تتمسكن لتتمكن » (١٧٧٣) . إنها تدور حول ذلك الموضوع المضحك دائما ، موضوع الفتاة الجريئة التي تحاول أن تنتزع اعترافا بالحب من رجل خجول : وتظفر بذلك بواسطة سوء تفاهم طريف : يلقون في روع الخجول أن البيت الذي تعيش فيه الحسناء هو فندق من الفنادق . ثم نرى الخجول يعامل الناس بتلطف وتظرف ، ويغازل تلك التي يريدونها خطيبة له وهو يظنها خادمة . ونرى الفتاة تقبل أن تقوم بهذا الدور . إنها تتمسكن بإرادتها حتى تتمكن من الحصول على زوج . ومن هذا الموقف الغريب ينشأ عدد من حوادث سوء الفهم والتورط يستشير فينا ضحكا لاسبيل إلى مقاومته .

أما شريدان (١٧٥١ - ١٨١٦) فهو أقل هزلا من صاحبه ولكنه ألطف فكاهة ، ومع ذلك فإنه يعرف كيف يضحك وكيف يضحك . أليس إيرلانديا كصاحبه جولدسميث سواء بسواء ؟ وما محمد لشريدان أنه لم يدع نفسه يتسمم بجو الصالونات ولا بجو الحياة السياسية (لقد أصبح عضوا للبرلمان وسكرتيرا للدولة) فراه يسخر من التكلف والتحذلق والإمعية

سخرأ لطيفا (المتنافسون) كما أنه هزىء هزءاً مرأ بالأدباء
(الناقد) ، وكان قاسياً وحشياً مع المنافقين والمرائين . وأحسن
آثاره «مدرسة الفضيحة» وفيها يصور لنا «ترتوفا» انجليزياً باسم
چوزيف سيوفيس ، يحاول أن يؤدي بأخيه تشارلز ، المبذر
ولسكن المستقيم ، إلى الدمار ، وأن يسلبه خطيبته لأنها غنية
وإنك لتجد في هذه الملهاة من قوة الحبك وإحكام تسلسل
العقدة وجمال المحاورات ما يستثير إعجابك الشديد ويتغلب
على روح النقد عندك . حتى لقد ظل هذا الأثر لا يضاهيه أثر
آخر خلال قرن كامل .

٤ — الشعر السابى على الرومانطيقية

الحق أن التيار الرومانطيقى لم ينقطع عن التفرق في
أعماق الشعر الانجليزى الجيد . ففي اللحظة التى كان فيها شعر
بوب سائداً ، كان جيمس تومسون الإيقوسى (١٧٠٠-٤٨)
ينشر أشعاره «الفصول» حيث يتصفح وجوه الطبيعة ويتغنى
بها . ولئن كانت طريقة نظمه للشعر كلاسيكية ، وكذلك
المعالم الأسطورية فى آثاره ، فلقد أحس بجمال الأرض التى
نشأ فيها : فصور لقراءه الثلج فوق الروابي ، والسيول تقفز
بين الصخور ، والرياح تهب من الشمال باردة سهوجاً . وقد

نظم بعد ذلك بعدة سنين قصيدة قصيدة طويلة بعنوان « قصر
التشاغل » التفت فيها نحو القرون الوسطى .

ولبس |تومسون الوحيد في هذا العصر ، فهناك أصحاب
مدرسة الحديقة والمناظر الطبيعية الذين ينسجون على منوال
بوب ، وهناك مدرسة الحالمين الذين كانوا يحبون الطبيعة لذاتها
ولما توحى به إليهم من أفكار .

أما ولیم كولنز (١٧٢١ - ٥٩) فهو شاعر جاف بطن
صعب ، وقد استعاد اليوم شيئاً من الشهرة . ولولا أنه قصير
النفس ، ولولا أن القدماء سيطروا عليه سيطرة حبست فكرة
في نطاق القصيدة (ode) الضيق ، ولولا أنه أسرف في
استعمال التشبيهات الأسطورية ، لكان شاعراً عظيماً . علي
أنه قد استكشف في قصيدته عن الخرافات الشائعة في
« ايقوسيا » ينبوغا شعرياً جديداً . كما أنه استطاع في قصيدته
« المساء » ، وهي خير قصائده ، أن يصور لنا ، بنخلة جرس الالفاظ ،
جمال الشفق وفتنته وذلك الشعور الغامض الذي يداخل النفس
إذا اقترب الليل .

وهناك جرای (١٧١٦ - ١٧٧١) ، وهو يكمله ويفوقه ،
وأهم قصائده « مرثاة كتبت في مقبرة ريفية » . وإليها يرجع

الفضل فيما حصل عليه من شهرة . وهى تبدأ بمقاطع تكاد تكون من شعر لا مارتين . ولكن خاتمة الرواية ليست للأسف إلا نظماً لذلك الموضوع المبتذل ، الشائع فى الشعر التعليمى ، أعنى موضوع تساوى البشر أمام الموت . غير أن المجموع رغم كل شىء على جانب من الجمال ينسينا القصائد التى يحى فيها جرای خرافات الماضى ويكشف عن الأساطير الاسكندنافية . والحق أن جرای يمكن أن يعد مهدا بل رائدا . فقد رسم الخطوط الأولى لكبريات الموضوعات الرومانطيقية : كالمقبرة ، والشعر البدائى والشعبى ، وحياة صغار الناس .

وقد استولى الرومانطيقيون على « الليالى » التى كتبها يونج (١٧٤٢ — ٤٥) والتى أسكبت كثيرا من الدموع حزنا على حظ هذا الشاعر التعس الذى يدفن ابنته بيديه فى ليلة ظلماء لأن سكان مونبليه القساة رفضوا أن يمنحوه مدفنا ما دامت الميتة بروتستانتية . وكان هذا كله أسطورة من صنع الخيال ، إلا أنها أسطورة لا تخلو من عاطفة صادقة ، وقد تأثرت القارة الأوروبية بها تأثرا عظيما .

لما سمع ما كفرسون الإيقوسى الأساطير الجائلية القديمة ، أعجب بروحها الوحشية . وأدرك أنه يازاء ثروة يمكن

لإستغلالها ، فأعلن للبلا أنه أكتشف مخطوطات قديمة ، وأخذ ابتداء من عام ١٧٦٢ ينشر مترجمات مزعومة للشاعر السلتى أوسيان . وقد أثر نثره الموقع الخشن فى أوروبا كلها ، وأثار إعجابها به ، بل حماسها له ، حتى أصبح أوسيان موضوع عبادة وتقديس .

وكان لما كفر سون أنداد . فهذا شخص اسمه إيرلاندا يزعم أنه اكتشف مسرحية مفقودة من مسرحيات شكسبير ويدفع بها إلى المسرح . وهذا الفتى تشاترتون يؤلف بعض النصوص ، ويزعم أنها من القرن الخامس عشر . وإلى جانب هؤلاء المزيفين يجب أن نذكر الأسقف پرسى الذى نشر فعلا بأمانه ، فى عام ١٧٦٥ ، مخلفات من الشعر الانجليزى القديم التى كشفت للناس عن كنوز من شعر الماضى .

ثم كان طبعيا أن يكون هذا الميل إلى البساطة وهذه العودة إلى الأصول البعيدة مصحوبين بميل قوى إلى الشعراء الذين كانوا يتحررون من سلطان الصالونات ويفيئون إلى الأرض . ومن هؤلاء الشعراء كراب ، وهو ابن فلاح ، وقد نظم فى هموم الفقراء وأمراضهم وآلامهم ، واستحق أن ينعت بالواقعى (القرية ١٧٨٣) . ولكن آثاره تتصف

برودة موضوعية فلا تستثير فينا الشفقة .

وهناك كوبر (١٧٣١ — ١٨٠٠) . وهو شاعر لم يخلق شاعرا وإنما نظم الشعر ليشغل فكره ويتفادى خطر الجنون . قضى الشطر الأعظم من حياته في بلد بالريف على خفاف الأنهار المناسبة بيطء ، وفي المراعى تحت أشجار الصفصاف . كان يهرب من الناس إلى أقصى حد . ولعله غالى في تصور مفسد المدنية وانحطاطها وتفسخها . ولكنه أول من صور الطبيعة تصوير فنان ، فأرانا الشمس تعبت بالغابة ، وأسمعنا صوت جناح اليمامة وهى تطير . وأكبر قصائده « المهمة » . وهى قصيدة جميلة ليس يفسدها إلا اهتمام بالتعليم وتطرف فى الدين . إلا أن فيها أوصافا خالدة . ولأول مرة منذ زمن بعيد نرى فى قصيدة من الشعر نفسا معذبة صوفية تقضها أحزان غامضة .

وهناك بيرنز (١٧٥٩ — ٩٦) ، وهو أقل عمقا من صاحبنا ، إلا أنه يمتاز بروح الاستقلال والميل إلى الثورة ، الأمر الذى أعوز ذلك المتوحد المنعزل . هو فلاح إيقوسى ثقف نفسه بنفسه ، وكتب بلغة الأرائضى الواحدة التى تسمع فيها محبوب الريح وهطول المطر . وقد أكسبته الطبيعة إلى حشدة

حب الحرية : حرية الروح فسخر من التقاة الورعين
والكهنة المنافقين والآلهة المرعبين ، وحرية الجسد فتغنى
بالهوى الجارف والصراخة التامة . كان يكره كل غموض ..
ومن قصائده قصيدة بعنوان « المتسولون المرحون » وهى نشيد
نغم وتحد وقح للبواضعات الاجتماعية .

ولئن ظل يبرز على الأرض فإن معاصره ولیم بليك
(١٧٥٧ — ١٨٢٧) حاول أن يهرب منها . كان شاعرا ورساما .
ولقد عاش فى عالم صوفى ، فكان يكتب أو يرسم فى الليل
ما تملأه عليه الأرواح . كان أشبه بالبدايين والأطفال يخلق
الأساطير ويؤمن بمخلوقات خياله . وقد أوجد لنفسه ديانة
خاصة غامضة رمزية . ومن أهم آثاره « أغاني البراءة » وهى
أغنيات طفولية قصيرة جميلة ، تفيض بالفرح النقى والطيبة
البريئة — و « أغنيات التجربة » ، وفيها يشيع شيء من الألم
إذ تصور فرح الطفل تقتله القوانين الاجتماعية والدينية .
ولا أعرف أحدا طوَّف فى عالم الهلوسة والحلم بأيسر مما
فعل بليك .

الفصل الحادي عشر

الشعر الرومانطيقى

١ - الجيل الجديد : الأرثوذكس

يطلق اسم شعراء البحيرة على ثلاثة شعراء رومانطيقين نظموا أحسن قصائدهم فى بلد البحيرات (كبرلاند) . وهم مختلفون بعضهم عن بعض فى العقلية والموهبة . ويجمعهم أنهم كانوا ثواراً متمردين ثم سرعان ما أرتدوا عن حماسهم وفاءوا إلى الدين وإلى المجتمع .

أولهم ديردسورث (١٧٧٠ - ١٨٥٠) . عاش طفولته فى بلد البحيرات ، فأيقظ ذلك فى نفسه تذوق الجمال ومحبة الطبيعة ، وكان منذ لحداثه سنده يميل إلى السفر مشياً على الأقدام ، ويحب الوقوف طويلاً أمام الشمس أثناء الغروب . وكان فى إبان دراسته فى جامعة كامبردج يفكر فى الشعر أكثر مما يفكر فى دروسه . وكانت الشكوك الدينية التى تساوره تمنعه من دخول الكنيسة . وسافر إلى فرنسا أيام كانت فرنسا

تتمنح عن مولودها الجديد (١٧٩١) . وتعرف في مدينة بلوا على صبية فرنسية أسمها آنيت فالون ، وقد أنجبت منه طفلة ، فاعترف الشاعر بأبنته واحتضنها ، ولسكنه لم يصلح غلطته .

ثم رأى من الحكمة أن يعود إلى إنجلترا ، وعانى في إنجلترا فترة من التمزق والقلق . فضميره يخزّه على سوء تصرفه مع آنيت ، ثم يؤلمه أن يرى الثورة تغرق في الدم . ولسكنه استعاد هدوءه شيئاً فشيئاً . فقد استطاعت أخته دوروثي أن تصلح من حاله ودينه بالتدريج ، وأن تبث في نفسه شيئاً من الراحة والطمأنينة . كما أن صديقاً له غنياً ترك له مبلغاً من المال ، فاستطاع أن يعيش في الريف حياة بسيطة خالية من الهموم .

وفي عام ١٧٩٧ تعرف إلى كولردج ، ونشر الشاعران ديواناً مشتركاً بعنوان « قصائد غنائية » ، وكان لويردسورث في هذا الديوان نصيب الأسد . وفي هذا الديوان أصبحت « أنا » هي الموضوع الأساسي . لقد ولد الشعر الرومانطيقي وقد شرع ويوردسورث بعد ذلك في نظم قصيدة فلسفية أراد أن يتغنى فيها بأفراح الحياة اليومية ومزايا الوحدة

والاتصال بالطبيعة . ولم ينظم من هذه القصيدة إلا جزأين « التمهيد » و « الرحلة » . وأهم هذين الجزأين هو « التمهيد » حيث يحدثنا ويردسورث عن تطور حياته الروحية . وأخذ شاعرنا يعيش حياة هادئة متشابهة تتخللها بعض الأسفار إلى ألمانيا وإيقوسيا ، وإلى إيطاليا وفرنسا بعد ذلك . ثم استقر في مراتع طفولته بإقليم البحيرات ، وهناك إنما ألف خير آثاره .

ثم انتابه نوع من الجمود الفكرى فاذا هو يحطم ما كان يعبد ، فيصبح ألد أعداء الثورة ، ويرتد أرثوذكسيا أخلاقيا محافظا ، وهنا تنهال الأبحاث على رأسه كالطر ، ويحيا شيخوخة طويلة لا يكف فيها عن تأليف ذلك النوع من الشعر الأخلاقى المؤثر الذى هو للشعب الانجليزى كالجزر للحمير على حد قول ادموند جوس .

ومن الأفضل أن نذكر ويردسورث الشيخ فما نتذكر إلا ويردسورث الشاعر الشاب الذى كان أول من عرف تلك اللحظات من الوجد التى لا يكون بدونها شعر غنائى عظيم . على ويردسورث يتعجب حين يدع الطبيعة ليتحدث عن الإنسان ، فليس فى أمثاله شيء من الجمدة . ولئن استطاع أن يفهم قيمة

الاشياء الطفيفة ، فإنه لم يفرق دائما بين الطفيف والعامى .
ومن أحسن آثار ويردسورث قصائده القصيرة التى تميل
إلى البلاد الشعبية حيث يستطيع الابتعاد عن البساطة المزيفة ،
مثل «لوسيا» ، «الحصادة المنعزلة» . الخ . أما حين يحاول
أن يعظ فإنه لا يطاق . وذلك فى مثل قصيدته « پيتر بل » ،
وهى قصة حمار مخلص وسيد خبيث . ومن آثاره «سائق العربى»
وهى قصة حصان نشيط وسكير محبب . إن المؤثر فى مصير
ويردسورث أنه ولد ذنباً ومات كلباً .

وشتان بينه وبين كولوردج (١٧٧٢ — ١٨٣٤) من
حيث قوة الروح ؛ كان كولوردج على جانب كبير من القلق
والاضطراب فلم يعطنا كل ما كان فى وسعه أن يعطيه . لقد
كان موهوباً فى الشعر والفلسفة والنقد جميعاً .

ولقد نضب معين الشعر فى نفسه فجأة وهو لما يزل فى
السادسة والعشرين من عمره . ولم يستطع بعد ذلك أن
يتصل مرة واحدة بذلك الوحي الشعرى المتدفق الذى يدين
له بقصائده : « نشيد فرنسا » ، « البحار العجوز » ، « كريستابل » ،
« كوبلا كان » (حتى أن هاتين القصيدتين الأخيرتين لم
تكتملا) . ولم يكتب كولوردج بعد ذلك الا نثراً . وقد قرأ

الميتافيزياء الجرمانية فأساء هضمها وتمثيلها . ولكنه من حيث هو ناقد أدبي يعد في الطليعة الأولى ، ولا سيما حين يتحدث عن حياة مخلوقات شكسبير . هذه النفس التي تحتوى على ألف نفس ، . وإنما أفسد عليه حياته سوء صحته فقد كان يشكو التهابات حادة وآلاماً عصيية لا تطاق فكان يلجأ إلى الأفيون محاولاً أن ينسى آلامه . وظل بعد ذلك عشرين سنة يعالج التخلص من سموم الأفيون . وسرعان ما أصبح الألم الجسمي يمنع عن كولردج ذلك الهدوء الضروري للشعر .

قصائده أحلام غريبة في الغالب . فإذا قرأت قصيدته كريستال فقد دخلت في جو من الليل وضوء القمر الشاحب ، وأحسست أنك في قصر مسحور ، أو في غابات سرية ، بين كائنات خفية مرعبة .

وقصيدته الأساسية الثانية أعنى « البحار العجوز » أشبه بحالة من الهلوسة . ولئن كانت موسيقاها مجلجلة ، فإن هذه الجلجلة تساعد أكثر من غيرها على تصوير النوفى ذى اللحية البيضاء الطويلة والعينين البراقتين وهو يروى رحلته المرعبة في بحار النار وسط مائتي جثة من جثث الموتى .

إن كولردج لم يحتل بعد في الشعر الإنجليزى المكانة التي

يستحقها ، وفي رأبي أن مجده سيزداد مع الزمن علواً .
وثالث شعراء البحيرة هو ساوذي (١٧٧٤ — ١٨٤٣) ، وهو
شاعر عادي ، كان في أول أمره ثوريا عنيفاً ثم اعتدل . وكانت
ثورته عنيفة بقدر ما أصبحت محافظته عدائية هجومية . وقد
تأثر بألف ليلة وليلة ، وبالأساطير الهندية ، فكتب قصائد
قصصية طويلة مثل «تالابا» و «لعنة كيهاما» ، وهما قصيدتان
لا يعوزهما إلا شيء واحد : الشعر . وأحسن آثاره مقطوعات
صغيرة مثل « برج الأسقف هاتو » وغير ذلك مما تلقفه
المختارات الشعرية المخصصة للتلاميذ .

وتعد آثار والتر سكوت الشعرية قريبة جدا من آثار
شعراء البحيرة . وقد أصابت في حينها نبجاً عظيماً . وخير
ما يمتاز به أنها صورت جمال إيقوسيا القديمة تصويراً حياً ملوفاً .
إلا أن له حكايات شعرية عملة مثل « أغنية المنشد الأخير »
« ومارميون » « وغادة البحيرة » . إن أشعار سكوت حين
تقرأ بكميات صغيرة ، ولا سيما المقاطع الوصفية ، ما تزال تجد
سبيلاً إلى القلوب ، أما إذا قرأتها بكميات كبيرة شعرت
برتابة عملة لا تطاق . لقد أحس سكوت نفسه أن عبقرية
الحقيقية ليست في الشعر .

ونستطيع أن نذكر من صغار هؤلاء الشعراء الرومانطيين
«سز هيانس» (١٧٩٣ - ١٨٣٥) التي عرفت كيف تصنع
موهبتها في تناول الأطفال - ثم كامبل (١٧٧٧ - ١٨٤٤)
شاعر البحارة والجنود - ثم روجر (١٧٦٣ - ١٨٥٥)
وهو مرهف الروح ولكن ردىء النظم - وأخيرا
وخاصة توماس مور الذى نسي الآن ظلها وأهم آثاره «الحان
إيزلاندية»، وهى مزيج من الموضوعات الوطنية والموضوعات
العاطفية.

٢ - الجيل الثانى الثأرون

أولهم لورد بايرون ، وهو الوحيد الذى طبقت شهرته
الآفاق فى أول الأمر. أما الآخران شيلى وكيثس ، فلم تقدرهما
إلا صفوة صغيرة من الناس . ولكن شهرتهما تزداد يوما بعد
يوم ، بينما يميل نجم لورد بايرون إلى الشحوب .

لورد بايرون (١٧٨٨ - ١٨٢٤) : وهبت له الأقدار وهو
فى مهبه كل ما يوهب لأمراء من جمال ونبل وثروة ، ولكنها
وهبت له أيضا قدما عرجاء ، وكبرا عجيبا شاذ لقد كان بين
أجداده مجانين وفجرة ، فاعتقد أنه لابد مطبوع على هذه الخلقة .

فها هو ذا يصرح أنه برم بالحياة وضاق بها وملها قبل أن يكون قد عاش الحياة ، وهاهو ذا يرحل إلى اسبانيا وتركيا وهو في في مستهل شبابه .

وكان إلى ذلك الحين يتبع في مؤلفاته خطى پوپ ، ومن آثار شبابه « أسفار اتشيلد هارولد » ، (١٨١٢) وهو يروى في النشيدین الأولین من هذا الكتاب قصة أسفاره ، ويعرض كآبة نفسه ، ويضرب على أوتار غريبة غير متوقعة . ولقد كان من شأن هذا الكتاب أن أطار سمعته في الآفاق . ونشر بعد ذلك طائفة من المؤلفات كانت تزيد شهرته وتعظم من أمره ، منها « الكافر » ، « عروس أیدوس » ، « لارا » ، « حصار كورینث » . وأبطال هذه الروایات جميعا واحدة : شخصیات عظيمة تتوء بحمل جريمة خفية تسبب ذكراها لذة مرة — ثوار يكافحون المجتمع . . .

وهناك جريمة لم يكن بايرون يجرؤ على تذكرها إلا كخيال مرعب فظيع ، أعنى نكاح المحارم . وقد ارتسكب بايرون هذه الجريمة بالفعل ، تدفعه إليها رغبة مرضية عنيفة في اقتراب هذا الخطيئة الكبرى التي لا تغتفر . فمن عام ١٨١٣ عقد بينه وبين أخته أوجوستالی صلات إجرامية حتى أنجبت منه

طفلة . وبعد ذلك بستين تزوج فتاة نبيلة المحتد ظنت أن في وسعها أن تحيل زوجها إلى إنسان طيب :

وأبي بايرون إلا أن يعرض مخازيه ، وقام الناس في انجلترا وقعدوا يستنكرون الجريمة الكبرى ، فما كان من بايرون إلا أن أبحر في ذات يوم من ابريل سنة ١٨١٦ إلى القارة الأوروبية فطاف في بلجيكا ، وأقام مدة في سويسرا حيث التقى بشيللى ، ثم استقر في البندقية بإيطاليا حيث جهد أن يدهش العالم بضروب شذوذه وفنون مجونه . وفي تلك الفترة إنما ألف أحسن آثاره : « سجين تشيلون » و « مازيبا » وخصوصا « مانفرد » و « قابيل » و « دون جوان » . ولكي يلفت إليه انتباه العالم مرة أخرى سافر بعد ذلك إلى اليونان ، لتحريرها ومات من الحمى في ميسولونجى . وقد ألهمه الرومانطيقيون تأليفها لفرط ما تأثروا بهذه الظاهرة الدونكيشوتية ، وفاتهم أن إلههم ليس إلا كومة من الوحل .

ليس يخلد من آثاره إلا شيء قليل ! فكتابه أسفار اتشيلد مارولد ، إذا استثنينا منه بعض المقاطع الجميلة كوداعه لبلده ومسقط رأسه ، وقصة واترلو وغير ذلك ، أشبه بدليل منظوم يسترشد به السياح في أسفارهم .

ولكن «ما نقرأ» ، هذه الدراما الغنائية المستوحاة من جوته ، فإنها تؤثر فينا تأثيراً قوياً . وأما «قاييل» ، هذه الدراما الفلسفية ، فهي أشبه بمقالة ضد الدين . ولكن بايرون ، في هذه المرة ، يقدم لنا أبطالاً فوق الطبيعة ، كما أن التطرف الرومانطيقى لا يبدو مزعجاً . وأما كتابه «دون جوان» الذى لم يكمل فإنه تعبير عن السخرية المرة ، على طريقة فولتير ، التى تفوق حد الثورة وحد الروح السلبية . إنك تجد فيه حروباً هزلية واحتقاراً لاحد له للبشر والأشياء ، وتقريراً لحماقة الإله . إنه أثر من آثار القرن الثامن عشر . ليس بايرون شاعراً كبيراً فحسب ، إنه «حدث أدبى» .

والآن فلتحدث عن كيتس (١٧٩٥ — ١٨٢١) : هو ابن خادم فى اسطبل ، علم نفسه بنفسه ، وكان طالباً يدرس الطب . خلف لنا آثاراً قليلة ، لأنه مات بداء السل ولما يزل فى الثامنة والعشرين من عمره . ولكن لئن كانت آثاره ضئيلة فإن مجده لسكبر دائماً . كان كيتس ، على حبه للحياة والخمر والحب ، أهدأ ممثلي هذا الجيل من الثائرين .

تتلمذ كيتس على أكبر الأساتذة : الأليزابيثيين وملتون . ولئن أعوزه التعليم فقد واثته العبقرية . وعلى أنه كان يجهد

اللغة اليونانية وكان مضطرا لقراءة التراجم والمعاجم فيما يتصل بالأساطير اليونانية ، فقد كان في عصره ، الوحيد الذى يحس الجمال التجسيمي ، والوحيد الذى يتذوق الجمال اليونانى . ليست كل آثاره رائعة ، فكثيراً ما يعوزه الذوق ، ويكاد يكون قصير النفس فى كل ما أنتج ، وتدل «أنديميون» على أنه شاب عديم الخبرة ، كما أن فى أسلوبه أحيانا كثيراً من التكلف . ولكن إلى جانب ذلك ما أعظم هذا الغنى الحسى فى ألحان بان ، أو فى وصف نوم آدونيس ، أو فى أغنية الخريف . وقد كتب كيتس قصيدة ناقصة بعنوان «هايبيريون» أراد أن ينافس بها «الفردوس المفقود» ، وهى فى جملة متكلفة ، إلا أن كيتس يبلغ فى بعض مقاطعها ، مثل احتضار التيتان ، أرفع ذرى الملحمة .

ومن أجمل آثاره تلك القصائد القصصية القصيرة ، مثل «إيزابل» (وقد استمر موضوعها من بوكاشيو) و «ليلة سانت آجنس» و «لاميا» (وهى حكاية سحرية غربية مستمدة من برتون) . إلا أن كيتس سيظل يعرف بأنه مؤلف ذلك الكتاب الرائع الذى يصور القرون الوسطى الفروسية الخيالية ، أعنى «المرأة الجميلة التى لا تشكر» ، وبأنه

مؤلف أناشيد جميلة موسيقية تنقلنا إلى آفاق من الفرح الصوفي،
مثل « نشيد الخريف » و « نشيد الهزار » .

لقد تذوق كيتس جمال الأشكال ، وجمال اللحم الحى ،
ولكنه كان ينشر دائما رائحة الموت . لقد كان وثنيا . لقد
أحب العدم . لم تكن عواصف نفسه تثور على السطح بل في
الآعماق . إنه بأس هادئ ، انصعاق تحدثه رؤية الهوة السحيقة .
لم تكن لغة كيتس الشعرية في مستوى أفكاره . غير أن
الأسلوب ينصقل مع مرور الزمن . ولو قد عاش كيتس أكثر
بما عاش . . . ولكن من يدري ! فلعل الحياة كانت تؤدي
إلى أقول مجده .

الفصل الثاني عشر

شيللى

١ - الرجال وآثاره



(شيللى ١٧٩٢ - ١٨٢٢)

لأن كنا نفصل شيللى عن جيله ، فلأنه ثالث فئة من

فهم الأدب الانجليزى بعد تشوسر وشكسبير .

لقد ظل شيللى يرتعش طيلة حياته ، يرتعش للظلم ، يرتعش
للبغض ، يرتعش للجمال ، يرتعش للحب ، يرتعش للنور .
كان مؤمنا كره الدين ، وأحب الإنسان ، وعبد الحرية .
كان فى أول أمره واحدا من أمثال رينيه ، وسرعان ما ارتفع
بعد ذلك فوق الرومانطيقه ، وفوق الكلاسيكية ، وفوق كل
المذاهب ، ليحقق شخصيته الخاصة ، ويكون هو نفسه .

كان طفلا غريبا : كان يجلس إلى أخواته يقص عليهن
قصصا مخيفة مرعبة ، ويطوف فى أبهاء المنزل يحمل إناء مملوءا
بالسوائل المشتعلة ؛ أو يمضى إلى لقاء ساحر محتبى فى مكان
مجهول ؛ ويسعده أن يعيش خائفا من الحية الرقطاء العجوز
التي كانت تسكن الحديقة . وكان فى مدرسة ايتون ، بعد أن
يقرأ أوراد ساحرات (ماكبث) يشعل السكريت ، ويقرب
منه مولدات كهربائية ، يحاول أن يستحضر الشيطان . كان
يلتهم حكايات استحضر الأرواح ، ويكثر من قراءة الروايات
المرعبة وأقاصيص اللصوص والعصابات . وبذلك كان
ينسى استهزاء رفقائه منه ، إذ كانوا يسخرون من أبازيمه
الذهبية ، وعينيه الزرقاوين ، وصوته الأثوى . وحين دخل
جامعة أكسفورد تمتع هنالك بكثير من الحرية ، وأسرف

في هذا التمتع، وكان معجبا جدا بالثورة الفرنسية، وكتب كتيباً بعنوان « ضرورة الإلحاد »، لم يستقر في واجبات المكاتب أكثر من عشرين دقيقة، لأن السلطات الجامعية أمرت حالاً بمصادرته؛ وطرده من الجامعة وهو في الثامنة عشرة والنصف من عمره، فوجد نفسه يحيا في لندن شريداً، ويتعيش من دراهم أخواته اللواتي كن يقطعنها من مصروفهن اليومي. وكان لأخواته صديقة اسمها هاريت ويستبروك أظهرت إعجاباً شديداً جداً بشخص شيللي، وبآرائه، فكتبت إليه، وشاء سوء حظها أن تقع رسالتها في يد الناظرة، فطردت من المدرسة. إلا أن شيللي كان جريئاً، فلم يتردد بل انتشل هاريت، ومضى بها إلى إيقوسيا، حيث الزواج سهل، وتزوجها في أدنبرج. ولم يكن مجموع سني العروسين يتجاوز خمسة وثلاثين عاماً...

وفي عام ١٨١٢ سافر العروسان إلى دبلن، ثم لم يلبثا أن عادا إلى لندن واستقرا فيها. ولكن على قدر ما كانت هاريت تغور في عالم المسادة كان شيللي يعلو ويغيب في السحاب. وتبدد الحب. فانفصلت هاريت عن زوجها. ولم تكثف بذلك، بل عقدت صلوات مع غيره، وبذلك جعلت التفاهم مستحيلاً.

وفي أثناء ذلك كان شيللى يزداد افتتانا الفتاة الصغيرة ماري، ابنة الفيلسوف جودون وفي عام ١٨١٤ مضى بها في رحلة قصيرة إلى سويسرا . وبعد ذلك بقليل نشر قصيدته الكبيرة الأولى « آلا شور » ، ولم يكديلتفت إليها أحد من الناس .

وفي عام ١٨١٦ قام برحلة أخرى إلى جنيف ، وكانت رفيقته في هذه الرحلة أخت زوجته ، كلارا كير مونت التي كانت تريد اللحاق بعشيقها بايرون . وفي أثناء هذه المدة التي أقامها شيللى في سويسرا ، إنما شعر حقاً بتيقظ عبقريته . ولما عاد إلى لندن علم بانتحار هاريت على أثر حمل . وحاول أن يسترد أولاده ، ولكن القضاة ، نظروا إلى سوء سمعته ، حرموه من رؤيتهم إلى الأبد

وستطاع أن يوطد صلته بماري ، واستقر في مارلو على التاميز . وساءت صحته ، فنصححه الأطباء أن يكثّر من التعرض للشمس ، فسافر إلى إيطاليا ، ولم ير انجلترا بعد ذلك أبداً .

وفي إيطاليا إنما تفتحت عبقريته تفتحها النهائي فكان عام ١٨١٩ هو العام الذي كتب فيه « بروميثيوس طليقاء » ، وفي عام ١٨٢٠ كتب أناشيده الكبرى . وقد خلق من حوله ندوة فذة

من أشرف إيطاليا واليونان . وكانت فرحته بالشعر تخفف بعض ألمه لفقد عدة أبناء من أبنائه .

وفي ذات صباح عاصف من يولية عام ١٨٢٢ ، سافر على باخرته (L'ariel) في رحلة بحرية . ولسنا ندرى بما الذى حدث على وجه الدقة . هل غرق ؟ هل أنتحر ؟ هل قتل ؟ لا يدرى أحد . وما زال السر غامضا إلى الآن . فقد طال انتظار صحبه له إلى آخر الليلة العاصفة دون أن يعود ؛ وفي ذات صباح مشمس شوهد جثمانه على الساحل الرمل . وقرر الصبح حرق الجثة والاحتفاظ برمادها . وحضر بايرون الاحتفال المريع ، فلم يلاحظ عليه أحد شيئا من علامات التأثر ، بل كان هادئا كل الهدوء ، ثم شرب خمرأ وأنطلق يضرب في الغابات يصيح ويغنى ويعربد . وقد انتزعوا قلب شيلي من اللهب ، وأسلموه إلى مسز شيلي .

لقد خلف هذا الشاب الذى مات في الثلاثين من عمره أثارا ضخمة لم يكتب مثلها شاعر غنائى انجليزى قط . ليس بين هذه الآثار التى خلفها أثر واحد لا يؤثر فيك . ولكنها تبلغ من شدة اللعنان لتعدد أضوائها أن عينيك تعشى في بعض الأحيان عن رؤيتها . لقد كان لشيلي عيانا قادرتان

على تفريق الشعاع الضوئي ، وكان له أذنان تسمعان حفيف
أجنحة الأرواح ، وكان له شم بلغ من فرط الرهاقة انه
يكشف وجود زهرة بنفسج بين عيدان القصب . لم يصور
ألوانا بل حركات قوس قزح والنور الداخلى للسحب
والأمواج . لم يسجل أصواتا وكلاما بل ألحان الصوت
الإنساني الذي يشبه بالريح بين الأشجار ، بالريح فوق الأزهار ،
بالريح فوق الماء ، وبالريح بين الخرائب والأطلال . كان
يتنسم وهو في نشوة ممتعة رائحة الأزهار التي تحملها عند الظهيرة ،
على الأجنحة ، رياح الصيف الرطبة .

لقد أحب تقلب السماء ، أحب خيالات السحاب ، أحب
شعاع القمر ، أحب الضوء السريع ، تداخل النور بالظل ،
انكسار الأشياء في الماء . أحب صوت الصدى المتغير ، وهو
يبتعد ، ويضعف ، ليموت هناك ، في بلد الأحلام .

أحب كذلك الإنسان ، وفاض قلبه رحمة على المتألمين .
حتى لقد ألهمه موت كيتس مرثاة فخمة رائعة . كان يكره
الظالمين . لقد وضع إحساسه الجمالي المرهف في خدمة حبه
العنيف لأقرانه البشر .

إن صعوبة لغته الشعرية تقلل عدد قراء آثاره الطويلة ،

مثل «الاستور»، و«ثورة الإسلام»، و«جوليان ومادالو»، . إلخ
وتعد «الاستور»، أكثر قصائده رومانطيقية، وفيها يصور
العبقرية منعزلة في هذا العالم تتنقل بين المناظر الرائعة باحثة
عبثا عن رفيق تكون روحه في مستوى روحها . ومن آثاره
درامة «آل سنسى»، وقد مثلت وأصاب نجاحا عظيما،
وهي تحدثنا عن بيا تريس سنسى كيف قتلت أباه العجوز المجرم
الذى تجاسر على عفافها . ومن أجمل آثار شيللى تلك القصائد
القصيرة التى ليس هنالك انجليزى مثقف إلا قرأها وفتن بجمالها،
مثل «المستحية»، «الجيل الأبيض»، «القبرة»، «السحابة»،
ثم «نشيد ربح الغرب»، وأخيرا فإن من يحبون الشعر المعقد
لن يجدوا أجمل مبنى ولا أرفع معنى من قصيدة شيللى
(Epipsychidion) التى يروى فيها غرامه بصيغة إيطالية فاتنة .

٢ - انطلاق بروميثيوس

هذه المسرحيات التى سبق ذكرها كفيلة بأن تنزل شيللى
المنزلة الأولى بين الشعراء الغنائيين . ولكن شيللى قد ارتفع
على هذه المنزلة أيضا بكتابه «إنطلاق بروميثيوس»، أو
«بروميثيوس طليقا» .

في عام ١٨١٦ قرأ كتاب أشيل « اعتقال بروميثيوس » ،
وأعجب بعظمته البدائية إعجاباً عظيماً . ومنذ ذلك الحين قرر
أن يكتب الدراماة المفقودة عن « انطلاق بروميثيوس » ،
وظلت فكرة هذا الموضوع ملازمة له أثناء رحلاته في إيطاليا
إلى أن انصرم صيف عام ١٨١٨ فبدأ بتنفيذ هذا المشروع .
وكتب الفصل الأول منه ، وهو أكثر الفصول إغريقية أما
الفصلان الآخران فقد كتبهما في خرائب كاراكالا بروما في
عنقوان الربيع ، وهما شخصيان إلى أبعد الحدود وأما الفصل
الرابع وهو آخر ألحان هذه السمفونية الرائعة ، فقد أضيف
متأخراً في ديسمبر عام ١٨١٩ وكتب بفلورنسا .

يطلع الفجر على منحدر متجمد في القوقاز ، حيث
بروميثيوس معتقل ، وفي أسفل المنحدر تجثم امرأتان مجنحتان
هما يانثيا وابونية ، تحاولان أن تواسيا بروميثيوس وتخففا
من آلامه . ولكن بروميثيوس يتحمل الألم لا يبالى ، ذلك
أنه يعلم أن الساعة التي سيهوى فيها الطاغية چوبتر في الفضاء
اللانهاى آتية لا ريب فيها . ويود لو يسمع من جديد عبارات
اللعة التي لا يزال چوبتر يرتجف لها . ولكن أصوات الجبال ،
والينابيع ، والهواء ، والعواصف ، والأرض نفسها ، لا تجرؤ

أن تكرر ذلك الكلام الفظيع . وعندئذ يستحضر بروميثوس
شبح جوبتر : وتدوى في السماء مرة أخرى تلك الكلمات التي
تقض الطاغية ، الكلمات التي تبشر بسقوط جوبتر على أثر عمل
لا يعرف سره أحد غير بروميثوس . ويضطرب الطاغية :
ويرسل المريخ يطلب السر ثمناً للحريه ولكن بروميثوس
يفضل أن يظل يتألم ، فتقض عليه الهات العذاب بين اصطفاق
الاجنحة ، وتطوف أمامه رؤى : رؤية رجل مصلوب ، ورؤى
سجون ومذابح . ثم ينتشر الهدوء من جديد . هاهي
الارواح تغنى ، وتنشر ابتساماتها مضية كنار النجوم . وتمضى
پانثيا نحو غابة الهند ، حيث تمكث آسيا منفية بانتظار حبيبها
بروميثوس .

ومرة أخرى يطلع الفجر على الغابة حيث تلتقى پانثيا
بآسيا . وتقرأ آسيا في عيني پانثيا رسالة بروميثوس . وكانت پانثيا
قد تراءى لها قبل ذلك حلم أزعجها . فإذا بالحلم يتجسد الآن ،
وإذا به يصبح « روحا » ترتدى غلالة رمادية . وتدوى في
في الفضاء كلبة ترددها الأصدا . من كل الجهات « ورائى ورائى » ،
وتمضى آسيا وبانثيا في إثر الصوت الذى يبتعد . إنهما تمران
بغابة مظلمة يغنى فيها الهزار ، في رابعة النهار ، وقد اسكرته

رائحة الأزهار . ثم تصلان إلى الهوة التي يعيش فيها ديموجورون أي « الأبدية » ، أو « ناموس العالم » ، فتحملهما الأرواح إلى العرش الذي يستوى عليه ديموروجون ، وهو كتلة من الظلمات أو هو شمس سوداء تصدر عنها اشعة قائمة . وتسأل آسيا الكائن الرهيب عن الساعة التي سينهض فيها برومسيوس من مضجع العذاب الذي هو فيه . فيشير ديموجورون إشارة بيده تتباعد في أثرها الصخور وينكشف من ورائها الجانب الآخر من الأرض . وفي هذا الليل الأرجواني تلعب عربات الزمان فيركب ديموجورون إحداها ويغيب في الظلام ، وتركب آسيا وپانثيا العربة التي خلفها ويغيبان وراء ديموجورون .

وفي أثناء هذه الرحلة السرية ، تستحيل آسيا كائنا آخر : إنها كائن من نور . وكأن روحها الآن زورق سحري يسبح فوق الأمواج الفضية للألحان التي تغنيها الأصوات الهوائية . وفي أثناء هذا الوقت ، يعمى چوپتر . فقد اقترب الفعل الذي فيه هلاكه : لقد تزوج تيتسي . وتصل عندئذ عربة الزمان المحتومة ديموجورجون . لقد هوى الطاغية ، وشهد اوقيانوس وآبولون سقوطه المريع .

وينقذ هرقل بروميثيوس ، ويتزوج بروميثيوس آسيا .
وأمام أيونية وبانتيا ، المفتوتتين ، تغنى الأرواح زوال الموت
والفوضى والليل . وتفرح الأرض لان الحب يشق طريقه عبر
السماء . و «القبر» يضيف إلى صوته الفخم ألحان فرحة القوية
ثم يسكت كل شيء . لان صوتا يدوي : إن ديمو جورجون
يهب للوجود « القانون » .

إن هذه الدراماة الغنائية هي انجيل شيلي . إنها رسالة حب
وحرية . ولكنها تحتاج إلى تأويل ، شأنها شأن كل كتاب
مقدس . أما الرمزان اللذان يمثلهما چوبيتر (الإله الطاغية)
وبروميثيوس (الإنسانية المعذبة) فواضحان لا يحتاجان إلى
شرح . وإنما الالتباس يقع في ثلوث آسيا وبانتيا وأيونية
بنات أوقيانوس . وقال بعضهم إنهن رموز إلى الحب والإيمان
والأمل . ولكن شيلي يرى أن ليس ثمت إلا قوة واحدة ،
تسود العالم : الحب . وليست الأخوات الثلاث ، اللاتي يحبن
بروميثيوس جميعا ، إلا تجسدا لمختلف أنواع الحب : أما
أيونية فهي الرغبة الفتية في الحب الغامض العذراوي . وأما
بانتيا ، وهي امرأة أخبر وأنضج ، فهي الحبيبة الأرضية ،
وهي انعكاس لآسيا . وأما آسيا فهي الحب المثالي . هي روح

الحب المحض . وإذن فليس سفر آسيا وبانثيا في إثر الصدى
مجرد استطراد ريفي . إنه يمثل حياة الحب : منذ الرؤى
الأولى وضروب الإخفاق الأولى ، حتى ذلك الوجد المسكر
الذي يسوق النفس العاشقة إلى قلب الحياة الخفي المستتر .

صدق آرنولد حين قال : إن شيللي ملاك جميل كان عبثا
يضرب الهوة بجناحيه . لقد أحس إحساسا قويا بالرغبة التي
تحدو بالفراشة إلى بلوغ النجم . ولكنه كان شاعرا ، فعاش
في أحلامه أكثر مما عاش في الواقع . لقد أحب الحب بعنف
ويجب أن تغفر له كل شيء .

وقد أحسن القدر إذ قطع خيط حياته قبل أن تأتي سحب
الكهولة فتظلم سماءه .

الفصل الثالث عشر

نثر العصر الرومانطيقى

١ - الروائيون

حين هدم ستيرن هيكل الرواية العاطفية نشأت الرواية « القائمة » ، وأخذت تهز مشاعر الجماهير ، ولم يعد المؤلفون يحاولون أن يستدروا الدموع ، ولا أن يستثيروا الضحك ، بل يحاولون أن يخلقوا فى القارىء رعدة القلق والغم . وكان رائد هذا النوع هوراس والپول فى رواية « قصر أترانتو » . عام ١٧٦٤ . فنحن هنا فى جو غريب : فهذا قصر جوتى ، وهذه ممرات تحت الأرض ، وأبواب تفتح بصورة سرية وقبور وأشباح . كل ذلك فى إطار الجو الإيطالى إبان القرون الوسطى

وسيد هذا النوع أو قل سيدته مسز رادكليف (١٧٦٤ - ١٨٢٣) وأهم مؤلفاتها رواية « الغابة » و « أسرار أودلفو » الخ . وقد برعت خاصة فى تصوير حسناوات يعذبن فى غرف منعزلة من أديرة مهدمة تسمع فيها مصاريع الأبواب تضرب

بشدة ، وترى الأبواب السرية تنفتح ، وتدوى من بعيد أصوات موسيقية .

وكان لمسز رادكليف عدة منافسين حاولوا أن يفوقوها ، نذكر منهم لويس في رواية « الراهب » (١٧٩٥) ، وقد أضاف الى هذا النوع عنصر الشهوانية والنفور الجسدى . فيرينا في هذه الرواية حجرة لوثت ملاحظها بالدم ويرينا طيف راهبة دامية كانت بغيا وقاتلة ، ويرينا مشهداً من السحر والرقية يدور في دائرة رسمت بالدم . وبعد ذلك رأينا مسز شيللى تؤلف روايتها « فرانكشتين » (١٨١٧) فتدخل في الرواية عنصر العجائب العلمية . إنها تتخيل إنساناً قادراً على خلق كائن حي . ولكن هذا الكائن الحى يبلغ من إدمامته المنفرة أن أولئك الذين كان يريد لهم الخير كانوا يتحاشونه مشمئزين حتى ضوى جسمه وأصبح شريراً لا يفكر إلا في القتل .

وقد شهدنا بعد ذلك بقليل رد فعل قوى ضد الرواية القائمة . فرأينا بوجه خاص عدداً من الروائيات الموهوبات يحاربن النزعة إلى إثارة الأعصاب ، ويفضلن التأثير في العقل والقلب . نذكر منهن مسز إدچورث (١٧٦٧ - ١٨٤٩) وقد طواها الآن النسيان ، وليس لرواياتها التى تصف الأخلاق

الإيرلاندية ولا لحكاياتها الكثيرة من غاية إلا أن تستثير عاطفة الشفقة في القارىء .

ولا كذلك فرانسز برنى (١٧٥٢ - ١٨٤٠) ، فلا تزال آثارها تحتفظ بكثير من النضارة ، أو على الأقل روايتها الأولى « إيفلينا » ، وهى خير هذه الآثار .

وتمتاز برنى بحضور البديهة ، ولكنها ليست على جانب كبير من العمق . وقد سخرت من العامية البورجوازية ، جاهلة أن تلك « الإمعية » الأرستقراطية التى تمتدحها أدعى إلى الاحتقار . كانت تشعر شعوراً قوياً بالتفاوت الاجتماعى . ولكنها تنجو من الوقوع فى المضحكات بفضل حيويتها وخفتها وروحها المرححة . على أن الروايات التى كتبتها بعد « إيفلينا » لا تتوفر فيها هذه الروح المرححة ، وبذلك يعوزها العنصر الأساسى من جمالها .

ولاجدال فى أن جين أوستن (١٧٧٥ - ١٨١٧) أعمق هن برنى ، وهى تمتاز بروح نضالية أقوى ، كما أنها أدنى إلى الواقعية . كانت تعيش حياة بورجوازية هادئة لا تعرف الهوى ، وكانت توزع وقتها بين القيام بواجباتها المسيحية وتأليف رواياتها . كانت حكيمة فلم تصف إلا الأشخاص الذين

كانت تستطيع أن تلاحظهم في ركنها الريفى . لم تتحدث عن الحب أو المصائب الفادحة، بل تناولت شئون الزواج وخصومات الناس ، وحاولت أن تضحكنا من ضعف الآخرين ومن صغاراتهم وتفاهاتهم، وهى فرحة بذلك فرح العانس العجوز (رغم أنها كانت مازال شابة حين كتبت «العاطفة والعاطفية» و «الكبرياء والهوى») . لقد كانت الحماقة الإنسانية موضوعها الاساسى . أحسن رواياتها «الكبرياء والهوى» وهى تصور طائفة من فتيان الريف يبحثون عن الزواج — وأما تصف للخاطبين ما يمتاز به ابتهاها من مزايا جسدية وروحية — و «ارستقراطيين يمنعم كبرياتهم الاجتماعى وتمنعم اعتبارات الثروة من الاقدام على زواج بورجوازى — وطائفة مضحكة من الإمعات والاغبياء والمغرورين — وفرقة صغيرة من شباب شجعان. وقد برعت جين أوستن فى تصوير البنات، ولكنها لنقص تجربتها لم تدرك شيئاً من نفسية الرجل . ولم تعد روايات جين أوستن تقرأ بكثرة ، لان المجتمع الذى تصفه لنا قد مات ، وقيمة هذه الروايات الآن قيمة تاريخية بالدرجة الاولى .

وبفضل والتر سكوت (١٧٧١ — ١٨٤٢) دخلت الرواية

التاريخية في الأدب . كان يحب التنقيب في زوايا التاريخ ،
واقترناء الكتب النادرة . وكان إطاره الشعري الأراضى
العالية والآثار الجميلة التى تشير إلى عادات الماضى وأخلاقه
وأكثر عهود التاريخ الانجليزى والتاريخ الإيقوسى خيالية .
وقد كرر نفس الموضوعات ، فتارة يتناولها منفردة ، وتارة
يمزجها فى مؤلف واحد . وهذه الموضوعات هى : الحب
(شاب عاشق وبطلة شقراء) الثورة ، (بطل قومى وشريكة
سمراء) ، النزاع بين أسرتين (على غرار روميو وموتاجيو
وچوليت كاپيولت) . وإلى جانب الأبطال الرئيسيين هناك
شخصيات ثانوية تكاد تكون هزلية كلها أو على الأقل أصبحت
هزلية بفضل هذه اللغة الإيقوسية اللطيفة

وتجرى الحوادث فى روايات سكوت ببطء فى أول
الامر لأنه يطيل أولا فى وصف أخلاق ايقوسيا القديمة
وصفادقيقا . ثم تتسارع بعد ذلك . أما أبطاله فإما متحمسون
يندفعون وراء قضايا خاسرة ، وإما أناس عاقلون يضلون
فترة من الزمان ثم لا يلبثون أن يرتدوا فى الوقت المناسب
إلى الحزب الحكومى الظافر .

ورغم العيوب الكثيرة فى روايات والتر سكوت ،

. وأهمها الطول ، فإنها جميعاً شائعة . أولى هذه الروايات « ويشرلى » ، وهى تتناول ثورة اليعاقبة الكبرى عام ١٧٤٥ ، وذلك المشروع الجنونى الذى استهدفه تشارلز إدوارد الطامع بالملك . وقد أصاب سكوت فى هذه الرواية نجاحاً كبيراً شجعه على تأليف روايات أخرى تتناول تاريخ وطنه الصغير . وأشهر هذه الروايات « شيخ القبور » وهى تصوير قائم للبيوريتانية الإيقوسية — و « الدير » ، وفيها يصور لنا أشياء خارقة للطبيعة ويحدثنا عن شقاء مارى ستيوارت .



سير والتر سكوت ١٧٧١ — ١٨٣٢

وفي سلسلة أخرى من الروايات أحيا والتر سكوت تاريخ إنجلترا ، ففي « كينلورث » تظهر اليزابث ؛ وفي « ثروة ينجل » يصور لنا لندن في عهد جيمس الأول . وفي « ايفانهو » ، وهي لاشك خير روايات سكوت ، نرى الأمتزاج الصعب بين العناصر الساكسونية والنورماندية ونرى عودة ريتشارد قلب الأسد غير المتوقعة ونرى الأعمال الوطنية التي يقوم بها روبن هود الخارج على القانون ونرى بطولة ريبكا اليهودية . وهناك سلسلة أخرى مؤلفة من ثلاث روايات تتناول تاريخ القارة الأوروبية ، وهي في جملتها ضعيفة ، وأقلها ضعفا « كوتن ديروارد » ، وترجع شهرتها في فرنسا إلى أنها تصور لويس الحادي عشر الذي يعد من أغرب الملوك . وإلى جانب هذه الروايات التاريخية تقف سلسلة كبيرة من الكتب هجر فيها والتر سكوت التاريخ وعمد إلى الحكاية القصيرة الخيالية إلى حد ما : نذكر منها « عروس لا مرمور » ، وهي مأساة مؤثرة على الطريقة القديمة . وإذا عرفت أن هذه المؤلفات جميعها قد كتبت بسرعة للضرورة الملحة ، لما وسعك إلا أن تمتلئ إعجاباً بصاحبها (أبي على سكوت شرفه إلا أن يحكم على نفسه بالأشغال الشاقة

الأدبية ليسدد ديونه جميعها كاملة غير منقوصة) . ويمكن أن نقول إن أحسن آثار شبابه « أيمانهو » ، كما أن أحسن آثار كهولته « عروس لامرور » ، ولا يعوز هاتين الروايتين إلا شيء من التركيز حتى تكونا من عيون الآثار العالمية .

ولم يكن لوالتر سكوت من خلف إلا « إينسورث » (جاك شيرد ، سان پول العجوز ، الخ) . وهناك ضابط بحار يدعى كابتن ماريات (١٧٩٣ — ١٨٤٨) ، أصاب شيئاً من الشهرة بفضل رواياته التي تضاف مغامرات بحرية مثل (Peter Simple Midshipman Easy) .

٢ — الخيالون ، المفكرون ، كتاب المقالة

إن قامة والتر سكوت الضخمة ألقت على عصرها ظلاً كبيراً بحيث لا نكاد نرى معاصره بيكوك (١٧٨٥ — ١٨٦٦) ، وهو روائي خيالي شاذ ، من أشهر مؤلفاته Night mare Abbey لم تكن تعنيه الدراسة النفسية كثيراً ، فكان يكتب برسم الملامح الأساسية والتصوير السكارى كانورى البرى . وكان ، من قبيل السخر ، يحشو عباراته بمعالم كلاسيكية واستعمالات متكلفة .

إنه يسخر من نفسه ومن القارىء والناس جميعاً يضحكون
وما دمننا قد ضحكنا قليلاً فلتتقدم باحترام من سادتنا
الفلاسفة في هذا العصر : بنتام (١٧٤٨ — ١٨٣٢) صاحب
المذهب النفى . ومالتوس (١٧٦٦ — ١٨٣٤) الذى يقدر
الانجليز اسمه في هذه الأيام . وكوبت (١٧٦٢ — ١٨٣٥)
الاختصاصى فى المسائل الزراعية . وسيدنى سميث (١٧٧١ — ١٨٤٥)
القس الحر الذى كان من أبطال الدعوة الى التسامح .

إلا أن جميع العصور قد شهدت مفكرين كباراً من هذا
الطراز . وانما الشيء الخاص الذى يتميز به العصر الرومانطيقى
هو صدور مجلات كبرى ، سياسية وأدبية معاً ، مثل : مجلة
ايدنبرج ، بلاكود ماجازين ، لندن ماجازين . الخ .. وكان
لا بد لهذه المجلات التى لم تلبث ان شفعت بصحف يومية من
كتاب ونقاد . وقد شهدنا فى هذا العصر نظيراً للثنائى
أديسون — ستيل ، أغنى الثنائى لامب — هازلت .

لامب (١٧٧٥ — ١٨٣٤) : من أصل بورجوازى عاش
حياة بسيطة ، وعرف ألواناً من الشقاء . قتلت أخته ماري
أمه فى أثناء نوبة جنونية . فظل بعد ذلك يسهر على صحة أخته
ويعنى بها حتى أنقذ عقلها . ولكن لأن عرف ألواناً من الشقاء

فقد كان مع ذلك يحس فنونا من الفرح : استطاع أن يقرأ ..
وأن يقرأ كثيرا ، ولا سيما المؤلفين النادرين الشواذ ، وكان له
أصدقاء ممتازون مثل كوليردج . يعرفه الجمهور خاصة بأنه
مؤلف «حكايات مستمدة من شكسبير» (١٨٠٧) التي كتبها
بالاشتراك مع أخته ، والتي تجمع بين جمال الأقاصيص الخيالية
وقوة التأليف الشيكسبيرى . وقد كتب في « لندن ما جازين » ،
مقالات كثيرة كان يهرها بامضاء « إلبا » ، وفيها تبدو سخريته
التي تدغدغ ولا تجرح . ومن هذه المقالات اللطيفة نذكر « آراء
مسز باتل في لعبة الورق » (Whist) و « مقالة في شراء الخنزير » ،
ولكى يحس القارىء جمال هذه المقالات يجب أن يتقبلها بروح
إيجابية وإن ينساق معها ويستسيغ مفارقاتها ويتبع صاحبها في
لغه ودورانه وقفزه ، وعندئذ لا بد أن يفتن بها .

ولكن لأن قدرنا لامب فن الصعب أن نحب هازلت (١٨٧٨) —
(١٨٣٠) ، على أن كلا الرجلين يشترك مع الآخر في آرائه التقدمية
بل الثورية ، ولكن لامب أشبه بمن يحضر المؤامرة وهازلت
أشبه بمن يلقى القنبلة . إن هازلت رجل فظ يكره الشر . وقد عُرِفَ
هو الآخر بالبؤس والشقاء . ولمكنه لم يستسلم بل ناضل وكافح
حتى غلب على أمره ، فارتطم في هوة التشاؤم والحزن والمسكرات :

أخفق راعياً ، وأخفق رساماً ، وأجهد نفسه أديباً ، وخاب صديقاً ، وخُذع محباً ، وهزم مكافئاً ، ولم يعرف المسكين من ألوان الفرحة إلا ما يسببه له بعض النجاح العارض السريع الذى كان يناله محاضراً من حين الى حين .

إنه ناقد كبير مستقل تمام الاستقلال . إنه يصدر أحكامه فيما يحسه واضحة إلى أقصى حدود الوضوح . وأقول فيما يحسه لأن روحه القاسية لم تستطع أن تفهم غنائية شيللى الرقيقة ، فى حين أنه أجاد الحكم على شخصيات شيكسبير ومؤلفى عصر النهضة وعصر الإصلاح ومدرسة بوب .

أما من حيث هو من كتاب المقالة فإنه يفوق سابقيه فى قوة شخصيته . أسلوبه قاس كروحه . وإذا قرأت له رأيت فكرته تتكون شيئاً فشيئاً بسلسلة من الإشارات المتعاقبة تؤدى إلى الصيغة النهائية ، وعندئذ تنبثق الصورة فى كل روعتها انبثاقاً فجائياً . وأحسن مقالاته « السفر » ، وهى تتغنى بتلك الحرية التى يشعر بها من يهيم على وجهه ينزل هنا وهناك ويحل فى فنادق على عرض الطريق مجهولة . لو استطاع هازلت أن يقاوم حمى التطرف فلربما كان أكبر ناثر فى إنجلترا الحديثة .

وبين شخصيتي لامب وهازلث الكبيرتين انسحقت
شخصية لي هنت المغمورة (١٧٨٤ — ١٨٥٩) . وفي رأي
أنه يستحق أكثر مما أصاب من شهرة . فإن جريدته
« الاجزامير » تحتوي على مقالات جميلة ، كما أن لكتابه عن
بارون فضل تجريد هذا اللورد النبيل من مجده الفائق ،
وإضفاء هذا المجد على شيللى وكيثس . ويمتاز هنت خاصة بأنه
كان همزة وصل ، وكان في كثير من الأحيان مبعث حركة
وانتعاش . إنه يتمتع بمواهب طبيعية كان يمكن أن تنهض به
إلى الصف الأول لو لم تضطره ضرورات الحياة إلى التشتت
والتبعثر .

ويمكن أن يقال مثل هذا عن دى كونسى (١٧٨٥ —
١٨٥٩) . كان كاتباً ملفقاً يطرق جميع فنون الكتابة . ومع
أعنى استغل معيناً جديداً استخرج منه كنوزاً كثيرة ،
ذلك هو وصفه لأحلام آكلى الأفيون في روايته « اعترافات
آكل أفيون » ، و « سيداتنا الحزينات » ، وخصوصاً « بنت
لبنان » . وقد كتب مؤلفات كثيرة ، إلا أنه لم يخلد منها إلا
رواية واحدة هي « اعترافات آكل أفيون » ، وفيها يروى
حياته المضطربة . إن تلك الصفحات التي تصف سنى شقائه في

لندن ، وتصور شخصية آن المؤثرة ، والبغى المحسنة التي تختفى إلى الأبد في ظلام الليل لى صفحات لا يمكن أن تنسى .
وهناك كتاب صغير مغمور من مؤلفات دى كوينسى ، هو فى رأى أجمل أحلامه ، أعنى كتابه «عربة البريد الانجليزية» وهو حافل بالصور الرائعة ، والأخيلة الجميلة . على أن مما يؤسف له أن هذه الصفحات الرائعة لا يمكن أن تترجم فإن موهبة دى كوينسى تقوم فى الدرجة الأولى على أسلوبه . إنه هو خالق «النثر العنيف» الموقع كنثر التوراة . إن الأصوات الصماء فيه تشعرك بشيء بعيد بعيد ، الأمر الذى يلازم رؤى الأفيون . ومثل هذا الأسلوب يصعب التزامه باستمرار . لذلك ترى دى كوينسى لا يخلو من الانغام الشاذة . يضاف إلى ذلك فيما يتعلق بأسلوب دى كوينسى أن الرجل كثيراً ما تسكره موسيقى اللفظ فيهمل المعنى .

ونلاحظ هذه العناية باللفظ لدى لا ندور (١٧٧٥ — ١٨٦٤) . كان جمهورياً ، فطرد من جامعة أكسفورد . وقضى الشطر الأكبر من حياته فى إيطاليا . ولكن هنا ينتهى وجه الشبه بينه وبين شيللى . ومن أهم آثاره «محدثات خيالية» وهى تنسب إلى نوع مزيف ، لكنها تمرينات مدرسية ممتازة

فما أجمل هذا الأسلوب الموقع باعتدال، الكلاسيكي الصافي .
قال لاندور يتحدث عن مجده المقبل في معرض الفخر
« سأتناول طعامي متأخراً، ولكن قاعة طعامي ستكون فسيحة
مضاءة وسيكون المدعوون قلائل من حيث العدد لكنهم من
صفوة الناس قيمة ، . ولم تتحقق نبوءته .

الفصل التاسع

العصر الفكتورى

١ - المفكرون ، المؤرخون ، النقاد

طالما تجدد العصر الفكتورى ، وطالما حقر ، فقد أرادوا أن يشبهوه بالعصر الاليزابى وأن يجعلوا آثار العصرين فى مرتبة واحدة ، فكان لابد من رد فعل على هذه النظرة ، فرأينا الناس فى القرن العشرين يسخرون من ذلك العصر . ولا شك أن المرء يضيق ذرعاً بما فى الأدب الفكتورى من نفاق بورجوازي وعاطفية كاذبة . ولكن بما لا شك فيه أيضاً أنه يحتوى على آثار عظيمة سواء من ناحية الجمال الفنى ومن ناحية القوة الفكرية ، الأمر الذى أتاحه الرخاء والهدوء فى هذا العصر .

إن العصر الفكتورى خضم واسع ، إذا نظرت إلى سطحه رأيت هادئاً ، لكن فى أعماقه ثورات عنيفة لا يتصور وجودها الإنسان العادى .

ازدهرت الفلسفة في هذا العصر ازدهاراً منقطع النظير
فظهر جون ستيوارت مل (١٨٠٦ — ٧٣) هذا الولد الزايف ،
المتهاك على العمل ، تلميذ بنثام وكومنت ، وظهر إلى جانبه
ولكن في الميدان العلمي ، علماء كبار أمثال دارون (« أصل
الأنواع » ، ١٨٥٩) وسبنسر ، وتوماس هكسلي : وكان هذا
الآخر البطل الرئيسي للمذهب اللاأدرى .

وقد شهدنا في هذا العصر قلقاً دينياً تجلى في تطور عدد
من كبار المفكرين ، فرأينا نيومان ، القس الانجليكاني ،
يساهم في أول الأمر مساهمة فعالة في « حركة أكسفورد »
المحافظة ، وينادى بالعودة إلى روائع الصوفية في القرون
الوسطى ، ثم ينقلب إلى الكاثوليكية ، في عام ١٨٤٥ ،
ويكون لانقلابه هذا دوى كبير ويصبح الرجل أشبه بشخصية
من شخصيات الأساطير ؛ وكان نيومان هذا يمتاز بقدره
عجيبة على الإغراء ، وكان أسلوبه في الكتابة أسلوباً
جزلاً فنياً .

ويشبهه في هذا الباب رسكن (١٨١٩ — ١٩٠٠) إلا
أن إنجيل رسكن لم يكن دينياً ، بل كان فنياً واجتماعياً . إنه
إنسان يعبد الجمال .. ويعتبره دليلاً على روح الله التي تشيع في

العالم (« المصورون المحدثون ، « أحجار البندقية » . . الخ)
لقد رأى القبح يسود من حوله فألى على نفسه ليشن حرباً
صليبية على أداة القبح ، أعنى الآلة ، وعلى خطيئة القبح ،
أعنى الكسل الرتيب . فأخذ ينادى بالعودة إلى حياة الصانع
المستقل ، العامل الفنان . ورغم الاجهاد في العمل ورغم
هجمات الحمى ونوبات الجنون ظل رسكن يدعو إلى رسالته
حتى لفظ أنفاسه . ولا تمتاز آثاره بأصالة الفكر فحسب ، بل
بروعة الأسلوب أيضاً ، فقد كان لأسلوبه نبرة خطابية آسرة ،
وكانت كتابة زاخرة بالاستعارات على طريقة التوراة . إلا
أن هذه الروعة في الأسلوب تجرى على غرار واحد ، كما أن
آراءه ورغم ما كان يعتمد إليه من ترقيم محقق ، تفتقر إلى زيادة
في النظام وفضل من الترتيب .

وطالما وضع الناس كارليل (١٧٩٥ — ١٨٨١) في
منزلة رسكن أو قريباً منها ، وعدوه مفكراً كبيراً ، ولكني
أرى أن شهرته هذه شهرة مساوبة ، فمعظم قيمته ترجع إلى
أنه صدى للفلاسفة الألمان . وكان يمثل دور النبي والدكتاتور .
كان رجلاً مقاتلاً . كان لا يتكلم كلاماً ، بل يصرخ صراخاً .
وقد فرض نفسه بقوة شخصيته ، لا بقيمة آرائه .

كان يمجّد العمل، ويسخه الإله العادل'. كان يحتقر القانون، ويعبد الأبطال : وهؤلاء الأبطال هم : أودن ، محمد، داتى ، شيكسبير، لوثر، نو كس، جونسون، روسو، بيرنز، كرومول، نابليون (« الأبطال وعبادة الأبطال ») وقد كتب كذلك كتاباً عن فريدريك الثانى .

وفى رأى أن كتابه « تاريخ الثورة الفرنسية » يخوله الحق فى المجد والشهرة أكثر من كتابه الأساسى « Sartor Resartus » هذه القربة المملوءة بالنظريات الجرمانية . فهو فى كتابه عن الثورة الفرنسية يروى حوادث هذه الثورة فى كثير من الحماسة والقوة ، كأنه أحد أنبياء بنى اسرائيل ، واثن كان يبيت فى هذا الكتاب ميولا خاصة ، ويخرج أحيانا عن الدقة التاريخية ، فما يشفع له أنه مدفوع بسيل عرم من العاطفة الجارفة . ونستطيع أن نقول بوجه عام : « إنه سيخلد كمؤرخ على هامش التاريخ » .

والى جانبه يقوم الكاتب الهادى « ما كولى » (١٨٠٠-١٨٥٩) الذى كان فى أول أمره قاضيا فى الهند، ثم شاعراً ، ثم مؤرخاً وناقداً . وأضحى مؤلفاته هو « تاريخ إنجلترا منذ تبوأ جاك الثانى العرش ، وهو من عيون الآثار التى تكتب التاريخ بطريقة

التصوير ، فقد برع ما كولى الى أقصى حد فى تصوير الشخص
أو العصر الذى يتحدث عنه حتى لكأنه يخطر أمامك حيا ،
وذلك بفضل معرفته الكاملة بالأوساط الاجتماعية ، وقدرته
العجيبة على التصوير والتلوين . ولا شك أنه كان يقع فى أخطاء
تفصيلية ويبتعد عن جادة الحقائق التاريخية الجزئية . ولكن
ليس لهذا من كبر قيمة ، فان الصورة التى رسمها لنا عن إنجلترا
فى عهد الإصلاح تقربنا من فهم الأمور والأشخاص أكثر من
أى كتاب تاريخى دقيق ، ولكننا لانستطيع الا أن نأخذ عليه
ميله الى الحكم على الأمور بمقياس الأخلاق ، واسرافه فى
تمجيد وطنه ، وزهوه به الى حد التبجح .

اما « بحوثه النقدية » (ملتون ، يكون ، اديسون ،
جونسون ، الخ) فهى بحوث براءة ، لكنها سطحية . ولا شك
انها تشعب إذا وضعت الى جانب بحوث ماثيو آرنولد
(١٨٢٢ - ٨٨) . لقد حاول هذا الأستاذ إعادة النظر فى القيم
المقررة ، وكان يدعو الى الهيلينية (الحرية الفكرية) ضد العبرية
(الضغط الأخلاقى) ولكنه لم يجرؤ أن يمضى الى نهاية المطاف
من تفكيره . ثم لقد كان ضحية المهنة : فقد كان لا بد لبحوثه
ان تلقى محاضرات على الطلبة .

٢ — الرواية تحت لواء ديكنز

إن الرواية الفكتورية وليدة « قس ويكنيلد » ، أكثر مما هي وليدة « توم جونس » ، وهي كثيرا ما تضحى بالحقيقة في سبيل نوع من العاطفية الكاذبة

هناك عدد كبير من النساء كتبن قصصاً طويلة تدور حول السر العائلي الذي يحول بين الزواج وبين شخصين متحابين . وكثير من هذه القصص جدير بالتقدير ، ولا تستحق هذا الإهمال الذي تمنى به الآن كقصص مسز هنرى وود (١٨١٤ — ٨٧) ، وقصص ويدا (١٨٤٠ — ١٩٠٨)

ويعد تشارلز ديكنز (١٨١٢ — ١٨٧٠) المستول الأكبر عن هذه المثالية العاطفية . لقد كان روائياً موهوباً ولكنه بدلا من أن يستخدم مواهبه في إرشاد الجماهير ، مضى يستخدمها في عمالة أذواقهم ومجاراة أهوائهم . فكان يبيعهم البضاعة الأدبية ييعا . . . وكان بارعا براعة هائلة في الكتابة السريعة للصحف . . .

كل شيء في حياته كان ينبغي أن يؤدي به إلى الثورة ، والتشاؤم . فقد عرف في طفولته كل أنواع الحرمان ، وعانى

ضرورة العمل لا اكتساب الرزق ، وذاق الأمرين من وحشية
المعلمين ، وكانت بداياته في الصحافة شاقة متعبة ، وكانت
كروبه العاطفيه تتزايد يوما بعد يوم ، وكان في تآزم مالى
مستمر ، رغم رواج مؤلفاته ونجاح كتاباته في الجمهور . لم تكن
حياته حلوة ناعمة ، ومع ذلك لم يجرؤ قط أن ينظر إليها وجهها
لوجه ويحاهر بكل دماستها . ذلك أنه كان يصبو دائما إلى مثل
أعلى بورچوازی . فما كاد يستطيع أن يصل إلى ذلك حتى
رأته بورچوازیاً يشفق على الفقراء والمساكين شفقة سيده
القصر التي تطل عليهم من فوق .

لا يزال كتابه الأول « پكويك » أكثر كتبه احتفاظا
بالقراء ، وهو يصور لنا إنجلترا القديمة ، ذات الفنادق
والعربات ، تصويراً حياً ناطقا . ومستر « پكويك » الشخصية
الرتيبة في هذه الرواية هو شخص متحلل منحط أشبه بكرة
القدم التي تركل بالجزمة هنا وهناك ، بدون أن يفقد كرويته
الجسمية ولا مزاجه المرح . إنه تجسد هزلى لشخصية دون
كيشوت ، مع فارق واحد ، هو أن دون كيشوت يسعى وراء
المغامرات في حين أن صاحبنا تسعى المغامرات وراءه .

والرواية الثانية من روايات ديكنز هي « أوليفر تويست »

وهي تحتوى على أوصاف قوية لحياة الطبقات المنحطة . .
وليس بين آثار ديكنز أثر لا يحتوى على صفحات رائعة
من الطراز الأول، وعنصر الترجمة الذاتية في «ديفيد كورفيلد»
يضيف على هذه الرواية مسحة قوية من الصدق والاخلاص
تنفذ الى القلب وتؤثر في النفس تأثيراً عميقاً. وقل أن تقع على
هذه النعمة الصادقة في غير «ديفيد كورفيلد»، ولديكنز أقاصيص
كتبها احتفالاً بعيد الميلاد وهي حكايات جميلة تستحق ما أصابته
من شهرة ذائعة. فأقصوصة «أغنية عيد الميلاد» حكاية مدهشة،
ولكن شريطة ألا تقرأها على أنها حكاية أخلاقية كتبت
للأطفال، بل على أنها وصف واقعي لحلم مضطرب بعد سوء
هضم، وتحتوى أقصوصة «قرع الأجراس» على أوصاف
رائعة لهبوب الريح، كما تحتوى أقصوصة «صرصور المدخنة»
على صفحات جميلة في وصف النار وتحضير الشاي. ثم لقد
برع ديكنز في وصف الاحتضار إلى أعظم حد، فما أكثر
عما أسال موت بول دومبي (في «دومبي وابنه») وموت نل
الصغيرة (في «مخزن العاديات») من دموع سخان. وسيظل
ديكنز في نظر كثير من قرائه أكبر الروائيين الذين وصفوا
الطفولة البائسة.

ولكنه متى خرج عن نطاق الوصف الحى الملون ، وأراد أن يتناول موضوعا تاريخياً أو اجتماعياً أصبح لا يطاق . فكتابه ، قصة مدينتين ، الذى كتبه بتأثير كارليل هو صورة مشوهة للثورة الفرنسية يمكن يتسلى بقراءتها البوابون .

وقد امتدح بعضهم فيه روح النسكة والحماسة للإصلاح الاجتماعى ، وفى رأى أن النسكة عنده كانت فظة عامة بقدر ما كانت عند اديسون لطيفة مرهفة . أما فيما يتصل بآرائه الاجتماعية فقد كان محافظاً إلى حد بعيد ، فتراه لا يخفى عدم اطمئنانه إلى الديمقراطية . ولئن وصف البؤس فقد كان مؤمناً بالإحسان الفردى ، فلم يفكر فى القضاء على البؤس قضاء حاسماً .

والحق أنه بانصرافه إلى كتابة الروايات العاطفية كان يسير فى غير الطريق التى خلق لها . وكان يعرف هو نفسه ذلك ، فإن عبقريته ، وحياته ، وكل شيء ، كانت تُحدوه إلى كتابة مسرحيات .

وكان من شأن الصيت الذائع الذى أصابه والمجد العظيم الذى حصله أن أقل نجم منافسيه بجانب نجمه .

أما دزرائيل (١٨٠٤ — ٨١) فإنه مدين بمنزلته عند

الأجيال التالية إلى قوة شخصيته، وعظمة شأنه السياسي، أكثر مما هو مدين بها إلى قيمة مؤلفاته . وقد عرض إنجيل حزب إنجلترا الفتاة (التضامن ، قوة السلطة المركزية ، التطلع إلى الشرق) في ثلاث روايات هي : « كنتنجزي ، و « سيل ، « وتانكر د. وفي رأي أن دزرائيلي يشبه ديكنز في أن كليهما يمتاز بروح نسوية . أما الرجل من هذه الطائفة من الروائيين فهو تشارلز كنتنجزلي (١٨١٩ — ٨٥) وهو اشتراكي مسيحي تعاوني ظل يصرخ طوال حياته « العقل السليم في الجسم السليم ، كان يدعو إلى « المسيحية العنيفة ، وكان يسمى عند رعيته « بالقس المناضل ، . وكان فكره من الاضطراب وكلامه من السهولة وعاطفته من القوة بحيث لا يستطيع أن يكتب آثاراً فنية باقية . إلا أن بين رواياته أربعاً على الأقل تستحق الاحترام : « ألتون لوك ، وهي صرخة ضد الظلم الاجتماعي والتفاوت السعيد الذي ركن إليه البورجوازيون الشكستوريون — ثم « هيباسيا ، وهي تاريخ لاسكندرية تحت سيطرة سان سيريل واستنكار للمسيحية الحربية عند الاساقفة الأول — ثم « هيا إلى الغرب ، وهي تصوير حي لكبار المغامرين الإليزابيثيين — وأخيراً « أطفال المياه ،

وهى قصة للأطفال ، أشبه بحلم مضطرب من أحلام أستاذ للأخلاق ، نام بعد عشاء ثقيل وأخذ يحلم بالماء .. بكثير من الماء ...

وبين الروايات أيضاً ، هناك من يمتزج بروح نسوية وهناك من يمتزج بروح رجولية ، أما مسز جاسكل فهى امرأة إلى أبعد حد . هى زوجة قس من مانشستر ، توفرت على ملاحظة مبائس العمال فى المدينة السوداء ، فوصفتها وصفا رائعاً فى رواية أولى بعنوان «مارى بارتون» . ولكنها برعت بوجه خاص فى روايات الحياة الريفية والحياة العائلية . وأعظم مؤلفاتها رواية «كرانفورد» وفيها تصف آلاف العواطف والاضطرابات السخيفة فى المدينة الصغيرة .

وهناك أخوات ثلاث ، هن الأخوات بروتى ، يعد ظهورهن أعجوبة من العجائب ، والكبريان منهما أنبغ من الثالثة إذ ليست الثالثة إلا صورة شاحبة عن الآخرين . وقد نشأ فى وسط تلك الأراضى البور فى يوركشير ، من أب تافه ، كان قسا ، وترمل ، ثم أصيب بعمى البصر ، بعد أن أصيب بعمى البصيرة . لم يفهم يوماً أن العبقريّة كانت تحمل على جناحها أبناءه . على أنه أدرك أن ابنه باتريك يحمل بعض لمواهب التى تؤهله

لأن يكون رساما، فأرسله لدراسة الرسم إلى الأكاديمية الملكية. وإنك لتحس في هذه الصور الخرقاء البدائية التي خلفها ياتريك. أنك أمام شخص من أصحاب الرؤى العظيمة . إلا أن حياة الفحش والدعارة قد أستولت عليه ، فأدمن على تعاطي الخمر ، ثم على تعاطي الحشيش ، وأختل عقله ، فعاش عند أهله سنين محنومة ، كانت أخواته خلالها يسهرن على راحته ويعنين بصحته : كن ينتظرنه إلى ساعة متأخرة من الليل ، حتى إذا أقبل جعل يقص لهن حكايات حبه وكرهه . وبدخوله كانت تدخل إلى بيت القس الشياطين التي تلبست أخواته .

أما شارلوت بروتي (١٨١٦ — ٥٥) فهي أقواهن وأكثرهن توازناً ، وأنبغهن في ميدان الأدب ، وهي وحدها التي أصابت نجاحاً عظيماً . وقد قصت في رواياتها تاريخ سنوات طفولتها الفظيعة التي قضتها في مدرسة خيرية يديرها البرد والجوع — ودراستها الثانوية في بروكسل حيث اطلعت على الأوساط الأوربية ولاحظت حياتها ساخرة — وحبها لأستاذها م . هيجر ، الذي كتبت إليه رسائل حزينة باكية فكان يستعمل هذه الرسائل في كتابة عناوين الخدائن . وقد قصت كذلك تاريخ النزاعات الصناعية وثورات يوركشير (چين إير ، المدينة الصغيرة ، الأستاذ ، شيرلي) ولا شك أن

عنصر الترجمة الذاتية في رواياتها قد بلغ الأوج في بابه .



سارلوب بروننى ١٨١٦ — ١٨٥٥

وأحسن كتبها هو كتابا الأول « چين إير » ، وهو أقرب رواياتها إلى شخصها : وفي رأى أن ثلثيه الأولين حيث تحدثنا عن مدرسة لوود وبدايات المعلة الشابة ، يوازى بل يفوق ديكنز ، ولكن تأثير قراءاتها للروايات القائمة يظهر في الثلث الباقي ظهوراً واضحاً ، فتحدثنا عن حريق يحدث في الوقت المناسب ليصلح كل شيء ، ثم تنتهى الأمور على

أحسن حال ، خلافاً لما يقتضيه سياق المعقول ، (فتزوج
المعلمة أستاذها الذي تحبه والذي أصيب بالعمى) .

والكتاب الوحيد الذي ألفته إميلي بروتي (١٨١٨ —
١٨٤٨) هو « مرتفعات وذرنج » ، وهي رواية عنيفة مشيرة
نستشف من ورائها شخصية مؤلفتها الغريبة ، العذراء
المتوحشة ، التي كانت تشعر نحو الأرض والحياة
بعاطفة حيوانية ؛ لقد كانت أكبر داعية إلى ديانة وثنية



إميلي بروتي ١٨١٨ — ١٧٤٨

تقدس القوى الطبيعية البدائية . وقد قالت في إحدى قصائدها
« حاشا أن تكون روحى روحاً جبانة ، . وبدلاً من أن
تموت ميتة مسيحية فقد قاومت الموت مقاومة الوحوش ،
وأبت أن تلزم فراشها وهى مريضة . ولم تستطع القوة
الطبيعية الغاشمة أن تحصل على فريستها إلا بعد ساعات طويلة
من الكفاح والنضال .

بطل هذه الرواية يسمى هتكيف ، وهو أكثر يرونية
من أبطال يرون . طفل لقيط يسيثون معاملته ، ويقع فى
حب كاترين ابنة حاميه ، والفتاة عذبة وحشية كصاحبنا ،
فتبادله حباً بحب ، ولكنها تشعر باستحالة زواجهما فترضى
بالزواج من ابن ملاك مجاور وعندئذ يختفى هتكيف فى
غياهب العاصفة والليل . . .

وحين يعود من لجج الجحيم ، غنياً ، قويا ، يؤالى على
نفسه ليحطمن ويعذب كل من أبعدوا عنه كاترين . فيصبح
صاحب الأرض التى كان خادماً فيها . وتهب عاصفة الموت ،
ساخطة ، غاضبة ، تأتى على الأخضر واليابس ، وحتى كاترين
تموت وهى تلد . . . ولكنه ذكرها فى الرواية لا ينقطع بموتها ،

بل يزداد، فان شبحها لا يفارق خيال هشكليف ، وإن لم يحوله
عن فكرة الانتقام .

إن هذه الرواية الغريبة ، التي تعمل فيها الوحشية إلى أقصى
وأقصى حدودها ، فيحطم القوى الضعيف دون ما شفقة أو
رحمة ، إن هذه الرواية هي رغم كل شيء من تأليف امرأة . لم
يدر بخلد هشكليف في أية لحظة من اللحظات ، أن يعمد إلى
الإغراء أو الخطف . إن هذا الانسان الشيطان يحرم رغم كل
شيء ذلك النظام المقدس الزواج ، إنها رواية حب جنوني
ليس فيه أثر للجنس . ولكن هذا الانفعال القوى الذي تحسه
أثناء القراءة ينسيك فقدان الخبرة لدى المؤلفة ، وينسيك
غموض الفصول الأولى ، وغيوب التسلسل القصصى . إن
هشكليف وكاترين يقولان كلاما مستحيلا ولكنك تسمع في
هذا الكلام صراخ القلب .

وليس هناك فقرة واحدة موقوفة على الوصف لكنك
ترى المشهد الذي تدور فيه الحوادث أظهر ما يكون وأوضح
ما يكون . ليس في العالم كتاب تسلط عليه الشيطان كما تسلط
على هذا الكتاب .

٣ — الرواية تحت لواء تاكرى

أما طائفة الروائيين الذين يمثلهم تاكرى فإنهم يشيرون على الرواية العاطفية الخيالية ، ويهدفون الى تصوير المجتمع والحياة تصويراً دقيقاً بدون سابق خطة وبدون رغبة في هز المشاعر ،



تاكرى ١٨١١ — ١٨٦٣

ثم هم لا يريدون ان يصطدموا وجهاً لوجه بالاحكام السابقة السائدة فى الجمهور الشكستورى ، ولا أن يخرجوا عما ألفه من ضروب العفة والحياء .

لم يحظ ثا كرى يوما ما بجمهور من القراء يعادل جمهور ديكنز. ولن يحظى بذلك قط. فانه لم يكتب للعامة بل للادباء. وما يؤسف له أن ضرورات حياته الشاقة كرسام ، وصحافى ، ومحاضر ، وكاريكاتورى ، اضطرتة الى أن يشتت جهوده ويبعث قواه وينشر أشياء كثيرة جداً .

وأحسن مؤلفاته كناقذ كتابه « الفكاهيون الانجليز فى القرن الثامن عشر » ، أما ككاتب مقالات فأقل بمجموعاته سوءاً . هو كتاب « الإمعات » ، وهو فكاهى تارة جادة تارة اخرى ، ولكن لا تجمععه وحدة معينة ، لأن المؤلف يصل أخيراً إلى أن يشمل بكامة الإمعية كل العيوب الانسانية . أما من حيث هو روائى فقيمتة عظيمة بلا جدال ، ولكن الآراء فى رواياته على اختلاف ، وأهم رواياته « بندنيس » ، وهى دراسة جميلة ولكن طويلة جداً لشاب ساذج ، — ثم « سوق الغرور » ، وأجمل ما فيها شخصية بيكى شارپ وهى تمثل الطمع النسوى الذى لا يردعه شيء : مغامرة ذكية نادرة لو أتبع لها خلق أقوم لارتفعت إلى أعلى طبقات السلم الاجتماعى ، — ثم « آل نيوكم » وهى تدل على رقة قلب ثا كرى ، فان وصفه لموت السكولونيل نيوكم ليستدر ببساطته من العبرات أكثر مما تفعل أوصاف ديكنز لاحتضارات أبطاله الطويلة .

ولكن المؤسف أن ثكرى قد انساق مع النوق.
الفكتورى ، فجزا الأختيار خيراً والأشرا شرأ ، على نحو قد
لا يتفق مع سياق الممكن ولا نجد له نظيراً فى الواقع . كما أنه
لا يعضى الى غايته قدما ، بل يتوقف فى الطريق ليدى بعض
الآراء الأخلاقية ويندفع فى استطرادات طويلة لا داعى لها .
غير أنه يدل فى كتبه على أنه خير بنفس المرأة ، قادر على سبر
أعماقها ، اللهم الا حين يحاول أن يصف مخلوقات فاضلة ، فخصياته
عندئذ أشبه بلعب وردية شقر ، (كشخصية إميليا فى رواية
« سوق الغرور ») .

واحدة فقط من رواياته هى فى رأي من الماس النقى الصرف
أعنى « هنرى إزموند » . إنها صورة جامعة كاملة للغة القرن الثامن
عشر ، بل انها انبعثت كامل لعصر الملكة آن . إن ثكرى
يحب الألوان المتوسطة التى ليست بالواضحة ولا بالقائمة ، وما
من إطار تاريخى كان يمكن أن يلائمه أكثر من هذا العصر .
والأهمية السيكلوجية فى الكتاب هى ذلك التطور البطيء الذى
عانتة ليدى كاسلوود . إنها تشعر أولاً بالعطف والشفقة نحو
ابن عمها اليتيم الصغير هنرى إزموند ، ثم تترمل . فاذا هى تنشد
فيه عوناً لها وحامياً ، ثم هى تحبه وتصبح منافساً لابنتها ياتريس

المتكبرة الباردة . . . ثم ينتهى بها الأمر أن تتزوج هنرى ،
فتوفر له الهدوء ، وتمحضه حب الزوجة وحنان الأم . ما أظن
أحداً من الكتّاب استطاع ان يرسم لنا صورة للحبيبة الأم
تضارع هذه الصورة .



جورج إليوت ١٨١٩ — ١٨٨٠

وقريبا من شكى تقف جورج إليوت (مارى آن ليفنز)
وهى مفكرة حرة معجبة بدارون ، وقد شاع فى الرأى العام
أنها اتخذت من الصحافى لويس الذى هجر امرأته خليلا ، وقد
ساعدتها لويس هذا على الاضطلاع برسالتها الروائية ، وكفاها

مثونة الاهتمام بالجانب التجارى من الموضوع .
ولقد قضت أيام طفولتها وشبابها فيها حول كوكترى فأتاح
لها ذلك أن تفكر طويلاً في مبائس الحياة الريفية وتقاهاتها .
وأول كتاب ألفته هو «مشاهد من حياة الكيروس» وهو مجموعة
لوحات قصيرة ، تمتاز بالواقعية القاسية ، ولا تزال تفرى
بقراءاتها كثيراً من الناس ، ولا سيما أولئك الذين لا يخشون
مشاهد الموت والمآثم . وأول كتاب طويل كتبه هو «آدم بيد»
والحق أن فيه فصولا رائعة تنسم ذروة الأدب ، مثل إغواء
الشاب الفنى للفتاة الجميلة الرائعة هتى ؛ ثم سفر الفتاة البائسة
فى غير جدوى ، للحاق بحبيبها ، ثم قتلها لابنها ، ثم محاكمتها
والحكم عليها ، ثم تدخل الواعظة الشابة دينا التى تعد الخاطئة
البائسة للثوت . غير أنى أتساءل لماذا عمدت جورج إليوت
إلى مراعاة النورق الفكتورى ، بإدخالها فى آخر لحظة عنصراً
ميلودرامياً سر تخفيف العقاب بمساعى الشاب الذى أغواها
وأخذ يحطم الندم ؟ ولماذا تحرص كل هذا الحرص على أن
تكون هتى جميلة جداً ؟ لماذا تعنى قبل كل شئ لشخصيات
من الرجال فى حين أنها بعيدة كل البعد عن عقلية الرجال ؟
ثم لماذا تريد أن تعظ ؟ ولست أدعى أن وعظها الأخلاقى

ليس وعظا رفيعا : انها تبين ان الألم وحده هو الذى يسمو
بالنفس الانسانية وأن الخطيئة التى يرتكبها فرد تقع على كاهل
عدة أفراد أبرياء . ولكنى أرى أن عيبها الا كبر هو أنها
تعرض رأيها بصراحة بدلا من ان تدعه يتسلل إلى القارىء
على مهل ، بدون ان يحس

ولا شك ان أعظم مؤلفاتها روايتها « الطاحونة على الفلس »
او القسم الأول من هذه الرواية على الأقل ، حيث تحدثنا عن
طفولتها فى شخصية ماجى تقرر . فإنه لمن النادر أن تجد
دراسات سيكولوجية عن طفولة البنات تضارع هذه الدراسة
عمقا وجمالا . ومن رواياتها « سيلاس مارز » وهى تحتوى على
صفحات جميلة تصور حب الطفل .

وهناك عدد كبير من المؤلفين ممن هم دون جورج إليوت
قيمة ، وان كانت اتجاهاتهم واقعية هم أيضا ، نذكر منهم ترولوب
(١٨١٥ — ٨٢) ، وهو موظف ، منظم ، مبالغ فى التدقيق ،
كان عاقلا فاقصر على وصف الأشياء التى يعرفها معرفة تامة .
وقيمته فى نظر الناس تزداد يوما بعد يوم . وهناك أشخاص
آخرون لا يستحقون الابقاء جزئيا . فنحن لا نقرأ الآن من
مؤلفات « بلور ليتون » (١٨٠٣ — ٧٣) إلا « أيام پومپى

الآخيرة ، وذلك لموضوعها لا لشيء آخر ، أما سائر رواياته فقد طواها النسيان . وكذلك كان مصير تشارلز ريد ، فقد أصبح الناس لا يذكرون له الا كتابا وحيداً ، هو رواية تاريخية بعنوان « الدير والمنزل » . وأخيراً لا بد ان نذكر بالخير صديق ديكنز ، ويلسكى كولنز (١٨٢٤ - ١٨٩) الذى كتب أول رواية بوليسية جديدة بهذا الاسم ، وفى رأى انه لم يكتب أحد بعدها رواية أبرع منها ، وان كتبوا روايات أقصر وأدنى الى الایجاز

٤ — الشعر القمكتورى

سيد الشعر القمكتورى هما تينسون ، وبراوتنج . ويختلف كل منهما عن الآخر أشد ما يمكن ان يكون الاختلاف بين شاعرين ، فى الطبع ، والميول ، والآثار . أما تينسون (١٨٠٩ - ٩٢) فهو رومانطيقى معتدل ، حاول ألا يجرح أحداً قط . وله من شعوره الموسيقى ما يجعله أهلاً للخلود . فأسلوبه كامل لا يمكن ان يؤخذ عليه نوع من انواع النقص . بل إنه لمسرف فى الكمال . ورغم ان شعره لا يهز قلبك فإنك تصفق له . فكذلك الحال فى أحسن قصائد شبابه أعنى « آكلة اللوتوس » : أغنية ماتزال تضوى وترق . ثم تضوى

وترق ، في أفواه أناس أكلوا زهرة اللوتوس فأصبحوا
لا يصون الى غير الراحة .

أما فكر شاعرنا فهو فكر سطحي . إنه بريطاني بأضيق
معاني هذه الكلمة ، سواء حين يمضى واعظا داعيا الى العمل
في قصيدته « يوليس » ، وإلى الطهارة في « قصائد الملك » ، أو
حين يتغنى بالنبل الانساني في قصيدته « إنوك آردن » ، وهي
اكتيب وأبلد قصائده القصصية . اما حين يدع هذه النغمة فانه
يخبر : شيقا ولا يخلو من فراهة وخبث ، كما هو الحال في قصيدته
« الأميرة » ، وهي ملحمة لطيفة يتخللها تحامل على المرأة لاذع .
على ان شاعرنا يعنى بالموسيقى والاوزان عناية عظيمة تكاد
تخفى سطحيته ، واذا قرأنا قصيدته « مود » ، وهي ترديد طويل
لافكار إنسان نصف مجنون يصرخ تارة صرخات الالم ،
ويريق تارة أخرى لذكري غراميات ماضية ، اقول اذا قرأنا
هذه القصيدة رأينا فقرات بلغت ذروة الجمال الموسيقي إلى جانب
فقرات طويلة عملة تضرب على وتر التوبة والدين . ملي انه
لا يخلو من العمق من حين الى حين ، لكننا نراه في هذه الحالة
رتيبا مضطربا ، كما هو الحال في قصيدته « في الذكرى » ، وهي
نجوى طويلة تصف لنا الازمة التي احدها في نفسه موت صديقه

هلام ، فتتعب القارىء بتفكك صبراتها وبعودة مترددة إلى
تناوب الشك واليأس . . . ولكنه يعرف كيف ينحت الشعر
وكيف يصقله .

وتعد «قصائد الملك» أضخم آثاره ، وقد نظمها على مهل ،
وهي مجموعة أساطير أرثورية يبدوها شاعرنا بالتغنى بجمال
الجسد . فأحب أبطاله إلى نفسه هنا هي جنيفر التي شفاها من
نور ، ولانسيلوت التي تجر ذبول ثيابها الزاهية من بين سنا بل
القمح . ولكن الاعتبارات الاخلاقية ما تلبث أن تجتاحه .
وهو يظل يخلق في ذرى الشعر الحق مادام يقص رؤيا القديس
جرال ، حتى إذا أخذ يمجّد فكرة الصفوة التي يقودها زعيم
يمتاز بقيمة أخلاقية رفيعة ، هبط وأسف ، ولم يدرك
حق الإدراك ما في حكايات «المائدة المستديرة» من قيمة
انسانية مؤثرة

سيظل تنيسون الشاعر المفضل عند من يحبون الشعر
السهل والموسيقى السهلة . وله مقطوعات قصيرة (مثل
«الساقية» وغيرها) ، إذا ضممتها إلى بعض المختارات المستخرجة
من «القصائد» ومن قصيدة «في الذكرى» أمكنك ان تؤلف
منها ديواناً مثاليا يقرؤه الرجل الانجليزى المتوسط .

ولا كذلك روبرت براوننج (١٨١٢ - ٩٨) فهو بطل
طائفة محدودة من المعجبين.

هو من عائلة بورجوازية ميسورة الحال ، لم يعرف
هموم المال ، واستطاع أن يعيش مستقلا ، وأن يقف وقته
وجده على الدراسة والشعر . وقد سافر كثيرا . حتى لقد كانت
إيطاليا وطنا ثانيا له

والحادث العاطفي الوحيد في حياته هو زواجه بالشاعرة
الذائعة الصيت إليزابث باريت (١٨٠٦ - ٦٠) وكانت صحتها
مرهفة جدا ، فعاشت معتكفة . وقد استحقت الخلود بقصيدة
فلسفية طويلة بعنوان « الفجر » وبعض القصائد الغنائية التي
تحكي جو القرون الوسطى . هذا إلى سلسلة رائعة من الأناشيد
الغرامية وبعض مقطوعات المناسبات التي تحس فيها روح
الاستياء . فمن هذه المقطوعات مقطوعة بعنوان « صراخ
الاطفال » تستنكر تشغيل الصبية وترجع أصداء القصيدة
المشهورة « أغنية القميص » لتوماس هود (١٧٩٠ - ١٨٤٥)
وعلى أن شاعرنا براوننج كان سعيدا في حياته ، سعيدا
في حبه ، فقد ظلت نفسه قلقة معذبة . ويظهر ان نظم قصائده
كان عنده مهمة شاقة صعبة . لقد اراد أن يكون تركيبياً

فى لغة تحليلية ، أراد أن يكتب الانجليزية كأنها اللاتينية .
ومن هنا نشأ الغموض الذى يلاحظ فى قصائده . ولكن
الجهد كان خليقاً بأن ينجح ، فاستطاع براوننج فى لحظاته السعيدة
أن يخلق لغة خاصة به ، وبرهن على أصالة عظيمة فى التعبير
عن أفكار فلسفية أو دينية ليست بحد ذاتها أصيلة ولا عميقة .
كثيراً ما يعوزه الوحي والإلهام الشغرى . ولولعه بالدقة
وحبه للتفاصيل الصغيرة المألوفة يسوء قريضه ، حتى ليصبح
أشبه بالنثر . أما النكتة عنده فهى فظة غليظة ، وأنى لمثله أن
يضحك أو يبتسم ! . إنه دائم التوتر والضيق والبرم . وهو
لا يوفق إلى شىء من وثبات شيللى الصوفية إلا حين يتحدث
عن الحب والموسيقى .

ويجب أن نقسم آثاره إلى أقسام : بحوث مفككة لا تكاد
تقرأ ؛ — ثم مجموعات أقرب إلى النفس مثل « رجال
ونساء » ، و « أشخاص الدراماة » ، ولا سيما تلك المحاورات
الداخلية الدرامية التى تصور لنا شخصاً يخرج من أعماق
التاريخ ليعرض لنا نوع حياته وماضيه وآماله ؛ — ثم آثاره
الخالدة التى تصور بعض أحلام اليقظة ، وهى تتميز بنوع من
الرمزية الغامضة ، ولكنها توحى بصور حية مثل « الطفل

رولاند يأتي إلى البرج المظلم ، . وهناك أخيراً مقاطع من
« بيا ، و » فيفني ، هي من الشعر الحق الذي يأسر النفس وينهض
بها إلى سماء عالية .

تحت هاتين القمتين ، الضاحكة أولاها والقائمة ثانيتهما ،
هناك سلسلة من الهضاب نذكر منها الرومانطيين المتأخرين
بيدز (١٨٠٣ — ٤٩) وهو شاعر متشرد نشر درامة مقابرية
على طريقه وبستر ، مشوبة بشيء من السخرية على طريقة
مفتوفيلس ، والثاني دارلي ، وهو شاعر مريض بأعصابه
نشر قصائد تبلغ فيها الحماسة حد الجنون . وهناك أيضاً شاعر
يدعى فتزجيرالد اقتبس رباعيات عمر الخيام (١٨٥٩)
واستطاع أن ينقل إلينا ذلك الجو اللذيذ من التشاؤم الشرقي
حتى أصبحت ترجمته أو قل اقتباسه كلاسيكياً

ولنذكر كذلك الشاعر الصوفي كوفتري پاتمور (١٨٢٣ —
٩٦) الذي كان لارتداده إلى الكاثوليكية دوى كبير ، وقد
تغنى بعاطفة الحب الزوجي على الطريقة المسيحية . ولا بد أن
نذكر أيضاً ماثيو آرنولد الذي كان شاعراً وناقداً ، ولشعره
ونقده كليهما قيمة عظيمة . وكان متأثراً بكيتس ، فكان يحب
الجمال القديم ، إلا أن العفة الفسكتورية قضت عليه بأن

يكبت نزواته ويضبط ميوله . وما أكثر ماترى فى آثاره من
تزمت أكاديمى . إلا أنك تحس وراء هذه الصفحة الهادئة
من شخصيته المتأنقة وجود روح قلقة معذبة ، وهذا ما يتجلى
خاصة فى « إضراب دوثر » وهو أحسن آثاره ويمكن أن
يتخذ آرنولد مثالا مؤلما للشاعر الذى حاول أن يكبت
طبيعته الشعرية .

وأخيراً ، إلى جانب هذه السلسلة الرئيسية من الجبال ،
هناك كتلة مستقلة ذات جمال خاص ، تتألف من طائفة الشعراء
الذين يدينون بمذهب « ماقبل رافائيل » . إنهم مصورون
أرادوا أن يعودوا إلى البداية الطليان ليستأنفوا واقعيتهم
الدقيقة التى تهمل المجموع فى سبيل دقة التفاصيل . إنهم
مصورون فى الشعر كما فى التصوير . زعيم هذه المدرسة هو
داتى جبريل روزيتى (١٨٢٨ - ٨٢) وهو ابن إيطالى
مبعد أقام فى إنجلترا وظل يحن حيناً قوياً إلى بلد أهله .
وهو تلميذ كيتس ، وقد كتب عنه دراسة عميقة مطولة .
وآثاره الأساسية مجموعة من السونيتات نشرها فى كتاب
بعنوان « منزل الحياة » ، وفيها يتغنى بالحب الشهوانى والصوفى
ويمجد لذة الجسد والروح . ولكن قراءة هذه الأناشيد
ليست بالأمر السهل ، لأن التعبير غامض والموسيقى أخاذة

إلى درجة أن كل سونيتة أشبه بنشيد سحرى لا ينكشف
معناه إلا بانتباه وتدقيق .

وقد عاش روزيتى فى أذهان الناس بمقطوعاته القصيرة
الرائعة التى تحاول أن تعبر عما لا يعبر عنه . إن استخدامه
الموفق للترديد فى قصيدته « الأخت هيلين » يجعلك تستشعر
القلق وتحس توقع الشر المستطير والموت المحوم ، كما أن هذه
البساطة المقصودة وما يعمد إليه الشاعر من تقطيع الأوزان
فى قصيدته « الأنسة المقربة » يجعل من هذه القصيدة رؤيا
حقيقية للجنة : فكانك « السعيدة » وقد مالت إلى الحاجز السماوى
الذهبي ، وعلى ذراعيها ثلاث نبقات ، وفى شعرها سبع نجوم ،
وهى تسكب الدموع فى الفضاء بين الملائكة يعبرون الهواء
الساكن . إن روزيتى رجل من عباد الجمال يعيش فى العصر
البورجوازي . إنه شهوانى من سكان الجنوب ينفى إلى الشمال
حيث البرد والصقيع .

أما أخته كريستيلنا روزيتى (١٨٣٠ — ٩٤) فروحها
روح دينية ، وقد آثرت حياة الزهد على سعادة الأرض ،
وبالغت فى عقل وثباتها العاطفية ، فوجدت الحب الإلهى على
حساب الحب الإنسانى . إلا أنها نظمت حكاية خيالية رائعة

على أوزان متنوعة سريعة بعنوان «سوق المسكرة» ، وهى من الخيال الذى يذكرنا بآريل .

والانجليزى الوحيد من أبناء هذه المدرسة هو ولیم موريس (١٨٣٤ - ٩٦) ، وهو رجل فن وعمل ، وقد فاز بإعجاب الجماهير وحبا بفضل قصيدة بعنوان « أخبار من لا مكان ، ، وفيها ينادى بالعودة إلى عهد الصناعة اليدوية الخلاقة للجمال .

غير أن قراء شعره أقل من قراء شعر روزيتى . وهو يسرف فى هذا الجو الخريفى وتلك السكابة الفنية الغامضة ، وتلك النظرات التى تحاول أن ترى ما وراء العالم . ومن آثاره « الفردوس الاخضر ، وهو عبارة عن أربع وعشرين أسطورة مقتبسة عن العصر القديم والقرون الوسطى . إلا أن خير آثاره سلسلة القصائد الارثورية (الدفاع عن چنييفر ، فبر الملك آرثر . . الخ) وفيها حاول أن يرسم لنا صورة حية لوجه چنييفر المؤثر .

جديدة بعنوان « اركشوس » وسلاسل أخرى من القصائد
والسونيتات أقل حدة من سلسلته الاولى ، وأكثر موسيقية
منها ، وكتب كذلك أناشيد في تحرير إيطاليا وقصائد أرثرية
(تريستان اللاؤنى) « وحكاية بالن » وفيها نرى الحب يحترق
احتراق شعلة ملتهبة : وكان يكتب بسرعة عجيبة فلما نعى إليه
بودلير (كذبا) كتب على الفور قصيدة رثائية رائعة بعنوان
« تحية ووداعا » .

وقد اعتدل مع السنين ، واستقر قريبا من لندن ، وعد
شاعر زمانه ، واكتفى بعد ذلك بالتغنى بقوى الطبيعة ولا سيما
البحر .

كان سوينبرن فى السياسة أرمستراطيا ثوريا ، وفى الفلسفة
من عباد الجمال الحر ، وفى الشعر صورة عن شيلي ، ولكنها
صورة دنيا . إنه آخر رومانطيقى كبير . وهو يدين بشهرته
لما توفر له من ثروة لفظية وموسيقية عظيمة . ولكن لهذه
المزايا نفسها عيوبها . فهو يتعب القارىء إذ يلقى به فى غمرة
من الموسيقى الصاخبة تفقد الألفاظ معناها ، حتى ليصبح شعره
فى بعض الأحيان أصدااء صوتية لا أكثر .

بين كافة آثاره الطويلة هناك أثر واحد فقط ، كامل فى

نوعه ، أعنى « آتلانت » الذى تسمع فيه ألحان الصيد الراقصة ،
وأصوات احتضار ملياجر المضناة . وله إلى جانب ذلك ، حين
يستطيع أن يحدد نفسه ويستسلم لإلهام اللحظة ، آثار باقيات
مثل « ايتلوس » ، ونشيد بلد الأحلام ، و« حديقة مهجورة » ،
و« الأشعة القوس قزحية » . ولئن كانت جرأته الجنسية تبدو
لنا الآن باهتة فإن أوصافه (ولا سيما أوصاف البحر) ،
وكذلك موسيقاه الراقصة تحتفظ إلى الآن بكامل قيمتها .

لقد كان سونبرن الشاعر الأخير الذى فاز بالإعجاب
الشعبي واثار حماسة الجماهير ، وبعده أفل نجم الشعر وراء
الرواية وأصبح ترفاً تنعم به الخاصة .

جيمس تومسون (١٨٣٤ - ٨٢) : هو شاعر التشاؤم ، ترغرع
فى مؤسسة خيرية ، وفقد خطيبته وهى صبية ، وسرعان ما
ركبه موت حبيبته فى صورة من المس المرضى . وظل طول
حياته ، فى كل قصائده ، يغنى الموت ، ويغنى أخاه الحب . فما
قصيدته المنشورة « سيدة الألم » أو قصيدته التصويرية « سيدات
الألم » ، أو قصيدته الحافلة بالخيالات والأشباح « أرق » ، إلا
ترديد لكلمة : موت ، موت ، موت . ونرى هذا الباعث
يعود فى قصيدة له ، رمزية طويلة ، تذكرنا بداتى ، أعنى « مدينة

الليل الرهيب ، : نحن هاهنا في مدينة من الظلمات يطوف فيها أشباح وأحياء يتألمون لفقدان أوهامهم ويعـبرون عن بأسهم ببسمات ساخرة أو بآهات ودموع ، فأما الذين يكون فيدهم الشاعر على نهر الانتحار حيث يلقون الموت ليناً الهيباً ، وأما الذين يتمردون فيدهم الشاعر على تمثال الكتابة الضخم الذي يسيطر على المدينة ، ويعلمهم ديانة الصبر والاذعان والاستسلام . ليس هناك ، حتى في الأدب الألماني ، حلم يفوق بفضاعته حلم مدينة الليل .

وهناك شاعر آخر يكاد يكون سميًا لشاعرنا هذا هو فرنسيس تومپسون (١٨٥٩ - ١٩٠٧) : هو أكبر شاعر كاثوليكي في الأدب الإنجليزي . عاش حياة بؤس وشقاء في شوارع لندن ، يتسول وينام على الارصفة وفوق الجسور ، ويحاول أن ينسى آلامه بتعاطي الأفيون . وقد أتاحت له تضحية مسز اليس ماينل (١٨٥٠ - ١٩٢٣) هذه الشاعرة المرفهة التي غنت الجاد ، الخلود أن يعرف شيئاً من الراحة والهدوء خلال بضع سنين . وأكبر آثاره قصيدة « مطاردة السماء » وهي تصف نفساً خاطئة يطاردها اللطف الإلهي وهي تعدو أمامه مذعورة إلى أن يدركها أخيراً ، فترتد إلى الإيمان . ويصل

الشاعر في بعض أجزاء القصيدة إلى حد الجلال فوق الجمال .
وحتى حين تكون الأبيات مثقلة بالزخرفة ، فإن تومپسون
يعرف كيف يجد الإيقاع الذي ينقل إليك ، إذا أنت
استسلمت له ، رعشة الصلاة الصوفية .

وأنا لنجد هذه الصوفية نفسها بعد ذلك عند كبار شعراء
النهضة الإيرلندية .

وزعيم هذه الطائفة من كبار الشعراء و . ب . بيتس (ولد



عام ١٨٦٥) . ورث القصائد الإيرلندية التي تصور تلك المقاطعات البعيدة التي تجرى فيها السواقي على سرر من مرمر وفيروز ، وتكتسى أطيارها ريشا من ذهب . إن قراءته لبلاك وشيلي قد أيقظت في روحه السلطانية رؤى الأجداد : رؤى الجنيات ترقص على العشب الأخضر ، رؤى الأشباح البيضاء تتسلل ، أيام الشتاء ، على صمت ، في الغصون الجرداء ، رؤى الحيوانات التي أوبارها من أشعة الشمس وخيوط القمر تقتاد الصياد إلى قصور مسحورة ، رؤى عذارى البحر وبنات البحيرات ، اللاتي يغنين جمال قصورهن البلورية أو يغنين حنينهن إلى الأرض .

وعندئذ تغنى ييتس برجال بلاده الأصلي ومناظره ، غنى سوق سليجو ، وجزر بحيرة إنيسفري ، والبجعات الوحشية في لوكول . وحسبك أن تقرأ له هذه الآيات حتى تحس بغلبة العنصر الإيرلندي في شعره :

حين تصبحين عجوزا هزيلة شائبة
فتميلين برأسك إلى النار تستدفئين ، افتحي هذا الكتاب
واقترني ببطء . . وارخي لخيالك العنان . . وتذكرى
تذكرى النظرة الحلوة التي كانت لعينيك

وتذكرى ظلالها العميقة . . .

ما أكثر الرجال الذين أحبوا لحظات رشاقتك المرحية
ما أكثر الرجال الذين أحبوا جمالك ، كذبا أو صدقا

إن واحداً فقط أحب فيك روحك المغتربة

واحد فقط أحب أحزان وجهك المتغير

وكان يتسبب أن يوقظ في الروح الإيرلاندية تعشق

الجمال الماضي ، فكتب درامات غنائية للتمثيل ، يظن فيها تأثير
مترلنك بوضوح ، منها « الكونتيس كاثلين » ، وهي تصور

فلاحة إيرلاندية جلست وحيدة في كوخها تدير طاحونة

يدوية . والسكون يشمل الغرفة . وأشباح الأشجار تظهر وراء

البلور المصفر ، والنار تحترق بهدوء حزين . وكل شيء يدل على

أن مكروها سيقع . ويقع المكروه . إنهم يدخلون من

الشباك متخفين في زى تجار من الشرق أرسلهم سيدهم لشراء

نفوس الفلاحات البائسات الجائعات . وتستسلم الكونتيس

كاثلين ، وتبيع بنفسها ، تباعها غالية ، لأنها نفس بيضاء نقية ..

وبالثن يستطيع الشعب أن ينتظر انتهاء المجاعة

وفي درامة « على شاطئ بيل » ، يخرج يتسبب على المسرح

البطل الاسطوري للملحمة الإيرلاندية ، كوتشولان الذي

لا يتلب ، ذا المعطف الذى نسجته من خيوط البحر سبع نسوة من « بلاد ماتحت الموج » . كان ينبغي أن يكون هذا البطل سعيداً ، إلا أن المأخفياً كان يحز فى نفسه هو أنه ليس له ابن . وتختار إيرلاندة بطلها لمحاربة الغزاة . فيقتل فى أثناء المعركة شاباً فارحاً القامة تحداه ، ثم يعلم أن ضحيته هى ابن له أنجبه من امرأة إيقوسية . فتنتابه نوبة من الجنون الصاخب ، فيندفع نحو أمواج البحر وقد استل لها سيفه ، ولأول مرة يجد البطل ما هو أقوى منه .

وأما « دايدر » ، فهى حكاية بسيطة مستمدة من الاساطير الشعبية القومية ، تروى ما كان من أمر الملكة دايدر حين تركت عروسها الشيخ ، الملك كوشوبار ، فى يوم الزفاف ، ولاذت بالفرار لتلحق بحبيبها الشاب نيزى . ويمضى على فرارهما سبع سنوات ، يعودان بعدها إلى البلد لايساورها شيء من ارتياب . ولكن كوشولار لم ينس الفضيحة ولا غفرها . وينصب شركه ، فيقعان فيه . فيقتل نيزى شر قتله وتنتحر دايدر فوق جثمان حبيبها .

وقد كان لشاعرنا مدرسة . وليس بين تلاميذه من يمكن إهماله . وأبرز هؤلاء التلاميذ جورج رسل (١٨٦٧) ، وهو

لا يدانيه في الموسيقى الشعرية ولكن يفوقه عمقا . وأشعاره
مغاظة ، على الرغم من بساطتها الظاهرة . ثم إنه متأثر
بكتب الهند المقدسة . وهذا يجعل آثازه تفوز برضى
المفكرين أكثر مما تفوز برضى جمهرة القراء . وهناك عدد
كبير من شعراء الجيل الجديد أقرب منه إلى الفهم ، نذكر منهم
سوماس أو سليشان (١٩١٢) ، وهو وثى صوفى يخلق لنفسه
فردوسا خاصا ينحبس في حدوده ، ويسوده . إنه « ملك
الاحلام ، يعشق الشفق ويهيم بجو الشتاء — ثم أوستان
كلارك (ولد عام ١٨٩١) . وهو مؤلف ملحمة بعنوان
« انتقام فن » ، يتناول فيها ذلك الموضوع الخالد ، موضوع
المرأة التى لا تريد أن تهرم — وأخيرا جيمس ستيفنس
(ولد عام ١٨٨٢) ، وهو شاعر ناثر بل قل مستسلم ،
يصب على الآله أقذع الشتائم وأمرها وأوقحها ثم يتحدث
عن الجنيات حديثا مدهشا فى غير أدب . أول ديوان له هو
« معضيات » ، وهو يحتوى على مقطوعات « بذبة » رائعة
منها قصيدة تصور الله ، وقد كل من أعمال اللطف ، ينحني
من فوق السماء ليرى من أين تأتى تلك الصرخة الالهية التى
وصلت إلى أذنه .

« فوجد في حفرة ، بالقرب من مدينة — امرأة بأعمال ، جائعة ، جاثية إلى جانب طفل ميت : إنه لا يستطيع أن يفعل شيئاً — ما تم فقد تم ، وعاد الله حزنا إلى سمائه التي من ذهب وعاج . وفيما هو يجلس — صعد إليه فجأة — من القاع الذي كانت تنتحب فيه المرأة — صوت الشيطان العميق يقول « يالك من إله مسكين ! »

بعد هذا الصوفية السلطانية نقفز فجأة إلى نزعة مادية سكسونية ، يحمل لواءها كيلنج . (ولد عام ١٨٦٥) . إن كيلنج رسول النزعة الاستعارية . ولد في بومباي من أبوين انجليزيين ، وقضى طفولته في الهند ، ودرس في المتروبول ، وعاد إلى الهند صحافياً . وهو أول شاعر كبير من المستعمرات . يتغنى في قصائده بالسلالة الانجليزية ، هذه السلالة القوية ، المصطفاة ، المتفوقة ، التي يجب عليها ان تحضر الشعوب الخاضعة لها بالرغم منها . ثم لا حقوق فردية . فقوانين الجماعة يجب أن تسحق الفرد . والنظام عسكري أخلاقي ديني . إن كيلنج طبعة أخرى من كارليل مزيدة منقحة .

إن شعره يهز العضلات والأعصاب أكثر ما يمس القلب أو الفكر . إنه يؤثر كما يؤثر اوركستر نحاسي قوي . إنه يتناول موضوعات أرضية مسفة ، ويعالجها بلغة من لغات السوق . ولكن ، من هذه العامية نفسها يخرج نوع من الجلال المدهش

ففي « أغاني الجند » نقرأ مقطوعات تهز الخيال، وتستثير الحماسة. على أن هذه الحماسة وقتية، فسرعان ما يحتاج العقل. والأغانى التى نقرأها فى « البحار السبعة » و « الأمم الخمس » أرفع من تلك، ولا سيما البلاد الشعبية والأوصاف البحرية. ويضعف كبلنج فى بعض الأحيان فما يسمعك إلا ألفاظا فارغة مجلجلة. ويمكن أن نقول بوجه العموم انه ليس لآثار كبلنج الشعرية قيمة إنسانية، وقد بلى أكثرها لهذا السبب خاصة. إن كبلنج أشبه بشاعر انجلوساكسونى لم يعرف الغزو والنورماندى. وقد كتب فى الأيام الأخيرة قصائد لا تخلو من نبرة إنسانية. ولكن شعره اذا تخلص من وحشيته وسوقيته فقد ما يمتاز به من وثب. انه يحمل طابع « العهد القديم »، وقد ظلت روح « العهد الحديث » غريبة عنه. أما شهرته العالمية فهى تستند الى آثاره الروائية أكثر من استنادها الى دواوينه الشعرية.

ومثل هذا يقال عن توماس هاردى (١٨٤٠ - ١٩٢٨) الذى اشتهر فى أواخر حياته من الرواية فنظم بعض القصائد الغنائية، وتمتاز هذه القصائد بأنها مصقولة الى درجة السكال، وفيها عرض تشاؤمه المر. فهو يرى أن الانسان عابر طريق، طريق كبير مظلم، يمشى الإنسان فيه وييده مصباح، لكن النور ضئيل والظلمات كثيفة.

وبعد فالتحدث قليلا عن شعراء الرعيل الأخير .
روبرت بروك : (١٨٨٧ - ١٩١٥) أكسبه موته البطولي في



توماس هاردي ١٨٤٠ - ١٩٢٨

الدردنيل شهرة عظيمة لعل قصائده البارعة لانكفى
لتحصيلها ، - لاسيل أبركرومي (ولد عام ١٨٨١) وريث
دون ، وسونبرن ، يمتاز بقوة لفظية رائعة - ادموند بلوندين
(ولد ١٨٩٦) : مثقف جدا ، قرأ كثيرا من الآثار النادرة
حتى ليصعب عليه أن ينساها دائما في شعره ، ولكنه أقام

في اليابان مدة طويلة ، فأوحى اليه ذلك بكثير من الصور الفكرية الجديدة ، وفي رأي أن القصائد التي ختم بها كتابه « أصوات الحرب الخافتة » تساهم ببساطتها في جعل هذا الكتاب أجمل كتاب انجليزي في الحرب .

ومن ينتسبون إلى مدرسة كبلنج :

الفريد نويس (ولد عام ١٨٨٠) : شعره بسيط ، يستطيع أن يتذوقه الجمهور . وقد تغنى بالمغامرة ، وأشاد بالمغامرين - جون مانسفيلد (ولد عام ١٨٧٤) لا يقل عن زعيمه قوة في تصويره للبحر . ويفوقه شعوراً بالسر واللانهاية . وعبقريته متنوعة جداً . حتى يمكن أن تعد قصيدته « رينارد الثعلب » ملحمة للريف الانجليزي جديدة بتشوسر .

وبين شعراء الأناشيد والأحلام يلعب والتر دي لامار . وهو أكبر شعراء الطفولة على الإطلاق ، يعرف كيف يمتليء دهشاً ، وكيف يقلب العالم الواقعي إلى عالم من الجن والخيال ، فتأتبك حكايته من غياهب اللانهاية المظلمة .

وقريباً منه يقيم چون فريمان (١٨٨٠-١٩٢٩) وقد بزغ في تصوير الشفق والأشجار والأزهار ، واستحضار ضروب القلق والرعب المفاجيء الذي يسببه اقتراب العاصفة

أو اقتراب الليل . ويذكرنا شعره العارى الموسيقى بسوتهرن
أكثر مما يذكرنا بشيلي .

وبين الشعراء الرقاق ورسل الدعوة إلى الفن للفن
يبرز روبرت بروجز (٨٤٤ - ١٩٤٠) : شاعر نضر يذكرنا
بتشوسر ، فما أروع حين يصفى إلى الأصوات الخفية التي
تولدها شمس الصيف بين أوراق الأشجار ، — ثم ولفرد
جيسون (ولد عام ١٨٧٨) وهو حين يدع الإنسان ويصف
الطبيعة يزداد توفيقه زيادة عظيمة .

وأخيراً نستطيع أن نذكر بين شعراء الانحطاط ،
و« نظرية المستقبل ، ستول (الإخوة والأخت) الذين يقرؤهم
كثير ويفهمهم قليل . ثم هربرت ريد (ديوان شعر) : لكأنى
به يفكر تثراً . وهو يعبر عن فكره باستعارات غامضة
تتلاحق في أبيات حرة إلى أقصى حدود الحرية . وأخيراً
ت. س. إليوت (قصائد ، ١٩٠٩ - ١٩٢٥) : أمريكي الأصل
يحاول أن يظهر التناقض الدائم بين المثل الأعلى والواقع ،
وينتهى في الغالب إلى صور غريبة : « إن القمر يسطع
فوق مسز پورتر وابنتها — إنها تغسلان أقدامها في الماء
الغازي » .

٢ - البحث المسرحي

كان العصر الفكتوري فقيراً غاية الفقر في التأليف الدرامي ، ذلك أن المسرح من شأنه أن يعالج موضوعات جريئة ، في حين أن الحشمة كانت جاثمة على كاهل العصر الفكتوري . وقد حصل رد فعل لهذا في أواخر القرن التاسع عشر ، فرأينا الدراماة تزدهر ازدهاراً رائعاً ، إن لم يصح قياسه بالازدهار الدرامي في عصر اليزابث ، فهو يذكر بازدهار عهد الإصلاح وعهد الملكة آن .

واشهر مؤلفي الدراماة في هذه الفترة أوسكار وايلد (١٨٥١-١٩٠٠) وهو خير مثال للأديب المستهتر الفاجر الذي يدعو إلى التحلل من الاخلاق . إلا أن شيئين يشفعان له : أنه فنان من الطراز الاول في النثر والشعر على السواء وأنه كفر عن آثامه بآلام قاسية . فقد أدت به أخلاقه المنافية للطبيعة أن يحكم عليه حكماً لا رحمة فيه بالسجن والاشغال الشاقة مدة سنتين . وحتى آخر حياته ظل في رأى المتشدين بالفضيلة من أهل جزيرته الكائن المرذول الذي لا يجوز أن يلفظ اسمه . وقد فقد في السجن ما تبقى له من

أخلاق . فلما خرج منه غرق في حمأة الفسق والفجور .
ومعاقرة الخمرة حتى ذقنه ، وراح يضرب في شوارع باريس
على غير هدى ، مستخدماً ما تبقى له من ذكاء في « النصب »
على أصدقائه واستلاب بعض المال الذي سرعان ما كان
يبدده .

وقد خلف لنا حكايات خيالية ، على أعظم جانب من فتنه
الأسلوب وكال الفن ؛ — وفصيدة فيها بساطة مقصودة ، أعنى
« بالاد سجن القراءة » ، وهي متكلفة من ناحية الشكل ولكنها
صرخات من أعماق القلب — ؛ ثم مرافعة طويلة بعنوان « من
الأعماق » ، في تفككها نفسه ما يهز القارىء ويحرك مشاعره .
— وروايتين خالدين « جريمة لورد آرثر سفيل » و « صورة
دوريان جراى » ، التى تعبر عن نزعة الجمالية ورغبته في التمتع
والتلذذ ؛ — ثم عدة ملاح ذات نضارة وفتوة لا تضارع .

وبفضل مسرحياته إنما فرض وايلد نفسه على الجماهير .
وبفضل مسرحياته إنما تزدد شهرته وستزداد مع تعاقب الحقب .
من مسرحياته درامة رمزية غريبة بعنوان « سالومى » ، تحاول
أن تنقل النار عشة شهوانية فظيعة ، ثم مسرحيات خفيفة تمتاز
بالمسارقة وتتصف بالبعد عن المعقول ، وفيها سخر مر ،

ولكن لأن أعوزها الغنى النفسى فإن صياغتها الفنية قد بلغت حد الكمال ، كما أن حوارها يجرى جريانا لينا هينا لا بد أن يقع المشاهد فى إسهامه مهما يبلغ من الخبطة. وأكثر هذه المسرحيات هزلية بالمعنى الرفيع للكلمة مسرحية «مروحة اللادى وندرمير» وهى لا تخلو من عنصر خيالى مؤثر (تقوم بأجل أدوارها امرأة مغامرة أو على الأقل تعتبر كذلك) كما أن أكثر هذه المسرحيات هزلية بأحط معانى الهزل مسرحية «أهمية أن تكون جاداً» وهى أقرب الى المسخرة منها الى الملهاة أو المهزلة. ولكنها مسرحية موفقة جداً تدل على مدى معرفة وإيلد بضرورات المسرح .

لقد جدد وإيلد الملهاة الانجليزية ، ولم يرد أن يجعلها سيلا الى النظريات الفلسفية والتأملات الاجتماعية ، وإنما أراد قبل كل شيء أن يضحك وأن يفتن .

والى جانب وإيلد يجب أن نتحدث عن مواطنه برناردشو (ولد عام ١٨٥٦) الذى يظهر بمظهر المفكر المحطم للأصنام. وقد دأب على الهزء بجمهوره ، وتقبل هذا الجمهور هزأه به وسخره منه بدون أن يشعر أن الرجل انما يهدف إلى ماله قبل كل شيء .

قال عن نفسه : لقد خلقت مهرجا ، وكان في وسعه أن يضيف إلى ذلك : لقد خلقت متمرداً ، ومهما يقل عن نفسه إنه اشتراكى فهو في حقيقته فوضوى .

ولد في دبلن ، وعاش طفولة كامدة ، وترك المدرسة في الرابعة عشرة من عمره ، واشتغل كاتباً صغيراً في مكتب وكيل قضايا ، ثم لحق بأمه في لندن ، وثقف نفسه في المكتبات العامة ، وقرأ كارل ماركس ، وأصبح له اسم بين الأحزاب .

وفي هذه اللحظة كان يكسب قوته بعناء من كتابة النقد الفنى ، وكان يكتب روايات يقدمها للناس فماتلقى منهم إلا الإعراض بدون رحمة . وكانت قراءته لابسن كشافا مفاجئاً له ، ففهم أن المسرح خير داع للآراء الجديدة . ولكى يحصل على النجاح بالقوة ويستميل اليه الجمهور ، لم يخالجه شك فى ضرورة الشعبذة ، فأقبل عليها غير متردد . حتى لقد اعترف هو نفسه فى صراحة مسكتة : بأنه كان يقضى نصف وقته فى خداع الشعب الإنجليزى بالإشادة بذكائه وخفة دمه وعمق تفكيره ، حتى صدقه الشعب الإنجليزى لكثرة ما ردد هو ذلك . ويمتاز شو بحضور البديهة إلى درجة خارقة للطبيعة ، ويمتاز إلى ذلك بأنه لا شيء يخرجّه عن طوره ، لذلك يستطيع أن

يستمر على القيام بدور الطفل المرعب دون أن يلقي عقابا .
يهاجم شكسبير فيقول : لقد جعلتموه إلها وهو الذى
سرق فلسفته من موتى ، وتاريخه من بلوتارك ، وموضوعاته
من يانديلو . أنا أستطيع ان أكتب خيراً منه وحين خرج
شو بكتابه « قيصر وكليوباترة » إلى الناس قذف به قائلا : خذوا .
إنه لا قوى من شكسبير ولا « تفلقونا » بعد الآن بهذه
المجموعة من الحكايات التى تسمونها التاريخ . إن المخالفة للتاريخ
غير موجودة . ليس قيصر أكثر من جفروش^(١) هرم مبغض
للنساء . وليست كليوباترة إلا فتاة فاسقة ، وليس بطليموس
إلا فتى متوحش . ولنأت إلى القرون الوسطى . من هم أبطال
القرون الوسطى ؟ جان دارك فتاة طيبة تفيض عافية ، شهيدة
بروتستانتية ، امرأة عنيدة . ولنتقل إلى العصور الحديثة ! من ؟
بوناپرت ؟ « ضابط قدر نهم » ، إنسان ساخر ، سبر حماقة النفس
الإنسانية ، فلم يعرف إلا غريزة عامة هي غريزة الخوف . أما

(١) من شخصيات كتاب « البؤساء » لفكتور هوجو . هو صبي يباريس
خفيف الظل ، حاضر النكتة ، ساخر ، لكنه شهيم كريم . وقد دخل اسمه
فى اللغة الفرنسية .

في الوقت الحاضر فإننا لا نتحدث عن الأبطال بل عن
العواطف العظيمة والمذاهب الكبرى . فلننظر قليلا .. الحب؟
كذب : لا تردد كانديدا في التخير بين زوجها الذي يمثل
هدوء الحياة اليومية ، وبين مارتشبانكس الجميل محب اللذة ،
الذي يمثل الشباب والمغامرة - ثم المجد الحربي؟ كذبة
أخرى : ها هو البطل الذي يجد نفسه على رأس الحملة يسدد
إلى قم حصانه حتى لا يقتل قبل الآخرين - الملك؟ أنظر إلى
شارل الخامس .. جبان .. ضعيف .. فظ .. ناكر
للجميل . - الدين؟ أنظر إلى القس الراعي جاردنر السكير
الاص ، أنظر إلى كاهن كنيسة ستوجنبر الغبي ، بل انظر إلى
بلانكو بوسنت ، القديس ، النبي ، الذي يسرق حصانا
ويتهم به غيره . العلم؟ ها هو الدكتور ريدجن الذي يستلطف
مسز دويدت يقضى بالموت على المصور دويدت ، إذ يعهد
به إلى زميل نصف مجنون .

وتنقسم الأصنام التي يحاول شو أن يحطمها في هذه المذبحة إلى
ثلاثة أقسام : Cant (ادعاء الفضيلة) و Shsam (الحشمة
المنافقة) و Snobism (الحماقة) . فهو يستأنف بعد قرنين ،
على طريقته الخاصة ، موضوعات « تارتوف » ، « ومريض

الوهم ، « والنساء المتفقيات ، ^١ . أما فلسفته فيمكن أن تلخص
في عبارة واحدة : إن الطبيعة تغلب دائماً ، مع طول الوقت ،
على المواضع الاجتماعية أو الدينية . وليس في مسرحه
شيء من مرض . ولهذا كان بقاؤه مضمونا رغم افراطاته
وأخطائه الذوقية التي تلاحظ حتى في أحسن آثاره ، أعني
« كانديدا » . وفي رأي أن هذه الافراطات والأخطاء مردها
إلى أن شو يخشى ، ككثير من البريطانيين ، أن يكون مخدوعاً ،
فهو يقدم الينامسرحا عقليا ، خاليا من كل عاطفة ، لأنه يخشى
العاطفة . والواقع أنه لا يخشى العاطفة إلا لأنه في أعماقه
عاطفي . وهو أحيانا يستسلم لبعض الاندفاعات العاطفية التي
تدفع من شخصيته الحقيقية . ولكن سرعان ما يتوقف
ويحمر وجهه خجلا ، ويخيل إليه أنه يسمع قهقهات ساخرة ،
وعندئذ يقذف بسخرية لاذعة ، ليبرهن للناس على أنه لم
يفقد رقابة على نفسه Self Controe : يقف قيصر أمام أبي
الهلول متأملا ، يبحث عن مفتاح اللغز ، ويتصور فكرة
الأبدية . إن روحه لترتفع ، وإن عاطفته لتشتد . ولكن
شو يخشى أن تنفجر شفتا أحد من الناس عن ابتسامة ساخرة ،
فيسبقه إلى السخر ، فيجرى على لسان كيو باثرة الصغيرة :

« هيه أيها السيد العجوز . . لا تهرب » . وبذلك يضمن أن يكون الضاحكون له لا عليه . ولكن لعل وراء هذا الوجه المكشّر ، إنسانا يتألم ويتعذب . .

وبعد فقد ساد الخيال الايرلاندى وسادت السخرية الايرلاندية على يد وايلد وشو اللذين هما من أنصاف الايرلانديين . والآن ، على يد سنج (١٨٧١ - ١٩٠٩) الايرلاندى الصرف ، يسود الشعر السلتي الصرف والواقعية السلتيّة الوحشية . وقد أثار سنج استنكار الجمهور البريطانى بدعوته إلى الحب الحر فى « ظل الوادى » وتهنيته راهبا فى « عرس المبيض » ، وبامتناعه عن استنكار جريمة قتل الأب فى « بهلوان العالم الغربى » . وهو ساخر بوجه عام ، إلا أنه يصور فى الغالب قسوة القدر . فى « عودة شطر البحر » يسمعنا سنج أنات المرأة التى استلب البحر ابنها الأخير بعد أن ابتلع جده وأباه وأخوته الخمسة . وفى « نبع القديسين » يحدثنا عن كفيفين يستردان البصر بفضل أحد القديسين فلما تم لها ذلك أحسا بشعور الخيبة ، إذ لاحظا أن رؤاهم مع العمى ، كانت أجمل من هذا الواقع البليد . ومن هنا يخرج الرمز : لا بأس أن ترى الواقع على نحو ما هو عليه ، ولكن يجب

أن نعرف كيف نهرب منه ، ونخلق في عالم الأحلام .
بعد سنج شهد المسرح الإيرلندي فترة انحطاط . ولكن
عددا من الدراميين استأنفوا حمل الشعلة بعد الحرب العالمية
الأولى نذكر منهم سين أكازي ، وهو أشد واقعية من سنج ،
وقد عرض على المسرح مآسى الحياة الدبلنية إبان الارهاب
الانجليزى والحرب الأهلية . ومسرحيتاه الرئيسيتان هما : ظل
حامل بندقية ، (١٩٢٣) و دجونون والطاوس ، (١٩٢٤) ،
وهما من عيون الآثار الأدبية بلا جدال ، وقل أن تجد مشاهد
تضاهى مشهد جونون الأم المتألمة وهى تيمم شطر ابنها الميت
وابنتها التى أضاعت شرفها وتستغيث برحمة الله ؛ ثم مشهد الزوج ،
العاطل عن العمل ، يدخل فور ذلك إلى المسرح ومعه صديقة
چوكر ، وهما يتأرجحان من السكر ويعربدان ، ثم يسدل
الستار عليهما وهما يهذيان .

وتشهد إيقوسيا اليوم ، بعد إيرلاندا ، حركة بعث مسرحى
قوية ، وهى حركة ماتزال فتية ، وليست بالأصيلة كل الأصالة .
إلا أن الأمل كبير فى جورج بلاك ، وهو أجرؤ الدراميين
المحدثين ، وأهم مسرحياته ، الأم ، (١٩٢١)
ولا تظنن مما قلنا أن انجلترا تقصر عن إيقوسيا أو عن

ايرلندة في هذا المضمار . فان فيها لطائفة كبيرة من المؤلفين
تستطيع أن تزهو بهم أيما زهو . إلا انه ليس بين هؤلاء المؤلفين
من اختص بالدرامة دون غيرها ، فقد قل الاختصاص عما كان
عليه في السابق ، فرى سومرست موم (ولد عام ١٨٧٤)
يستخرج أهم مسرحياته من رواياته وقصصه كما فعل بصد
دراميته القويتين « المطر » و « الرسالة » وهما تصوران الطبيعة
القاسية التي كتب لها الظفر على الانسان . وحين يكتب موم
للمسرح مباشرة فانه يطالعنا بملاء لا تمل جمالا وعمقا عن
ملاهى أوسكار وايلد . كما أن له من تمكنه من صناعته ، وعمق
إحساسه بالوقائع وقوته وواقعيته ، ما يجعله واحداً من أكبر
كتاب المأساة المشهورين الذين عرفتهم انجلترا .

والى جانبهم نجد ج — م بارى (ولد عام ١٨٦٠)
ومؤلفاته استمراراً للمهارة الخفيفة التقليدية العاطفية الفكاهية
في آن واحد . ومن مسرحياته « پيتر بان » وقد استخرجها من
إحدى رواياته وهي مسرحية خيالية أصابت قبولا حسناً ،
رغم انها لا تهدف إلى أى غرض رمزى . وانما كل غايتها
أن تثير عواطف الأطفال وتضحك الرجال .

أما الدراماة التاريخية فقد وجدت من استأنفها من أمثال

جون درنكووتر (ولد عام ١٨٨٢) ولكن لم يستطع أحد أن ينجح في هذا النوع نجاحاً يذكر حتى ل ترى مؤلفا بعينه يخفق في هذا النوع وينجح في غيره أما نجاح . فمصرية كلينس دين المعنونة « ولیم شيكسبير » لم تصب نجاحاً كبيراً في حين أن مصرية أخرى له ، قد أصابت النجاح العظيم الذي تستحقه أعنى مصرية « قانون في الطلاق » ،

ولعل أعمق درامى من أبناء الجيل المهزوم هو جالسورثى (١٨٦٧ — ١٩٣٣) ويعد من تلاميذ إبسن والمؤلفين الروس ، وهو يقابل الفرد بالمجتمع (فى « العدالة » و « الاستقامة ») ويظفر فى إهاجة العاطفة ، واستثارة الرحمة بدون ان يلجأ الى الحالات النادرة . ولعل جالسورثى الدرامى سيعد فى المستقبل أعظم من جالسورثى الروائى ، لا لشيء الا لأن المسرح يقتضيه أن يركز فكره ويلتزم الإيجاز .

إن شعبا عنده شو وموم وبارى وجالسورثى وبيتس وأكازى هو شعب محظوظ إلى أبعد حد . وليس فى العالم بلد يتردد الناس فيه الى المسرح تردد البريطانيين .

الفصل السادس عشر

الرواية المعاصرة

١ - الممهدون والأقطاب

لقد احتلت الرواية المكان الأول في الأدب ، سواء في إنجلترا وفي غيرها من البلدان . وبلغ عدد الروائيين الموهوبين في إنجلترا مبلغاً كبيراً . ومن الصعب علينا أن نختار بعضهم ونندع الآخرين ، لاسيما وأن الانجلوساكنون لا يهتم بشئون الشكل والفن اهتمام اللاتين بذلك .

وأعظم رواد الرواية المعاصرة كاتبان مثاليان يتمردان على واقعية جورج اليوت وعاطفية ديكنز في آن واحد . أما الأول فهو ميريديث ، وقد امتدحوه وأعلوا من شأنه إلى أعظم حد . وأما الثاني فهو بتلر وقد جهله مواطنوه جهلاً كثيراً . وأصبح من الممكن الآن أن نعيد التوازن .

ولد جورج ميريديث عام ١٨٢٨ من أبوين جالين . وقد رحل في شبابه إلى ألمانيا وتأثر بها تأثراً عظيماً . إلا أن ذلك لم يمنعه في عام ١٨٧٠ من الاعتراض على بسمارك ،

وكتابة تشيد لفرنسا . وكان يحب المفارقة والاستقلال ،
ففي ذلك العصر الذي كان الناس فيه يعدون من لا يذهبون
إلى الكنيسة أشبه بلصوص في قارعة الطريق ، كان ميرديث
لا يخفي كرهه لكل الأديان ، وكان يتقبل نظريات
دارون بفرح عظيم ، وفي العصر الذي كان يسوده النفاق
كان ميرديث في طليعة من يؤيدون التربية الجنسية .

أول رواياته هي « حلق لحية شاجبات » ، وقد أزعجت
حضرات البرجوازيين الذين كانوا يومئذ يطيلون لحاهم : هي
ملحمة بطل جرىء اسمه باجاراج يكره الشعر ، ويقسم
ليحلقن لحية الطاغية شاجبات . وقد خيل إلى النقاد أن هذا
الكتاب رمزي ، فلفتوا إليه الأنظار ، وما هو في حقيقته
إلا تقليد فكاهي « لآل ف ليلة وليلة » ، ومع ذلك لم يفرض
ميرديث نفسه على الجمهور إلا بعد سنين طويلة . وأعظم
فترات حياته عام ١٨٧٦ . ففي هذا العام نشر « حياة بوشان »
وفرغ من كتابه « الأناي » . أما الكتاب الأول فهو يتناول
بسخريّة لاذعة موضوعا جديرا بموليير هو موضوع الفارس
الذي ينتقل إلى عصرنا الصناعي ، وهذا الفارس التقي ثقل بوشان
يجمع في نفسه تأجج دون كيشوت وصفاء فارس الصليب

الأحر الذي حدثنا عنه سبنسر . وعيبه الوحيد هو كثرة حركته ورغبته في الا يتوقف لحظة واحدة . ولا يستطيع أحد أن يطامن من هذه الحركة حتى ولا رينيه ، الحسناء الفرنسية . إن رينيه أحلى بطة فرنسية عرفت الرواية الانجليزية . وحين خلق ميريدث هذه البطة الحية ، الرشيقة ، الخفيفة ، المنطلقة ، المحبوبة حتى في عيوبها ، إنما أراد أن يقابل هذا النموذج النسوي الذي يحبه بالمرأة الانجليزية الباردة التي لاتحس جمال الفن . وأما ، الأناثى ، فهي رواية عميقة ، وخير ما فيها شخصيتها الرئيسية أعنى الأناثى نفسها سير ولجي وهي شخصية حية ، ولكنها تصبح رتيبة لكثرة ما تتشابه استجاباتها . وهذه الرواية تفوق الرواية السابقة من الناحية الفنية ولكنها أقل منها أسرا لأنها أقل منها إنسانية .

أضف إلى ذلك أن قراءتها صعبة ، فميريدث ليس بالكاتب الواضح ، ويظهر أنه فعل كل ما يمكنه حتى يؤيد شهرته بالغموض . قال مارسل شوب : « إن ميريدث لا يفكر لا بالانجليزية ولا بأية لغة معروفة بل يفكر بلغة خاصة بميريدث » . ولكي نقدر ميريدث حق قدره يجب إذن أن نتعلم لغة جديدة ، وفي رأي أن آثاره تستحق مثل هذا العناية

إلا أن كثيرا من سيذنون هذا الجهد ستحولون عنه ، لأن هذه
السخرية اليائسة التي تفض بها آثاره ستبدو لهم شيئا متفرا .
إن روايات ميريدث من النوع الذي لا يمكن أن يدعك
حياديا . فإما أن تعجب به وإما أن تنفر منه .
لذلك ترى أن من يبخسونها حقها لا يقولون عن
يتحمسون لها .

أما صموئيل بتلر (١٨٣٥ - ١٩٠٢) فهو رجل مناضل .
كان أبوه قسا . أراد أن يدخله في سلك القسس فأبى ،
وآثر أن يشتغل مربى خراف في نيوزيلانده ، فلما عاد بعد
أن جمع بعض الثروة أصر على أن يؤلف كتابا لم يجد من
يقرأها . وكتابه الأساسى عبارة عن رحلة في مدينة خيالية .
وقد سماه « إرون » أى بلد لا مكان له . وفيه ينتقد الكنيسة
وعقائدها ورجالها انتقادا لا ذعا لكنه قوى وعميق ، وكذلك
انتقاده للمحاكم والجامعات ولكن الكتاب مضطرب للأسف
والهجاء فيه يجرى على وتيرة واحدة من المرارة . وثانى كتب
بتلر هو « طريق كل البشر » وهو ترجمة ذاتية يحدثنا فيها المؤلف
عن التربية الدينية التي تلقاها في عائلته ، ويبلغ من القسوة في
تصوير هذه العائلة أن هذا الكتاب لم يمكن نشره إلا بعد موته .

وإن القارئ الذى يعرف ميلاد هذه الحكاية المبكية لينزعج من شيئين معا : من تلك الوحشية ومن هذا الجبن ، أعنى الانتقام بعد الموت. هذا وإن أجزاء الرواية متفاوتة فى قيمتها : وأحسن ما فيها تصوير الأشياء التفصيلية ، فبتلك كاتب يستطيع أن يرى الأشياء رؤية حادة ، وأفكاره قوية ولكن تعوزه الأداة الرفيعة ، فأسلوبه باهت ، وتراكيبه ركيكة ، وليس فى عباراته تدفق حياة . ولعله خلق ليكون من كتاب «المقالة» بالدرجة الأولى .

وفى هذا المستوى الذى يقف فيه الرائدان العظيمان ، يقف كذلك توماس هاردى ، وهو سيد الواقعية المظلمة ، القاسية ، على طريقة الروائيين الروس .

على أنه لم يغرق فى هذه الظلمات من أول أمره . فقد حاول فى أول حياته ، حين كان مهندسا يطوف فى مقاطعات الجنوب ، أن يبتسم للطبيعة وأن يبتسم للناس ، فكتب سلسلة من الروايات عن الحياة الريفية ، (« تحت الشجرة الخضراء » ، « بعيدا عن الجمهور المحموم » ، « عمدة كاستربريج » ، « العودة إلى البلد » الخ) تعد صدى لـ جورج صاند . وقد برع فى تصوير الأشخاص الحفاة وسط مناظر كثيفة جليلة ،

ولكن كلما تقدم هاردى فى حياته رأيت أبطاله يولدون على التعاسة ثم تعذبهم شهواتهم الجنسية أو البغضاء والرغبة فى الامتلاك والظما إلى التحكم . وقد سخر هاردى من آمال الإنسان الميتافيزيائية كما هزىء بهذه اللعبة التى يسميها الناس بالحب . وخير آثاره كتابان هما : « تس دربر قيل و « جود الغامض » . ولعل هذين الكتابين أظلم ما عرفت الإنسانية من كتب . فانك لتخرج من قراءتهما وأنت تحس بغم ثقيل ، وقلق ممض ، أشبه بالقلق الذى تشعر به بعد اقتراف إثم لذلك رأينا الجمهور الانجليزى يشور . . ثم رأينا هاردى الذى يعتبر الكتابة أشبه برسالة دينية ، يعتزل الرواية بعد إصدار « جود » لينصرف إلى الشعر .

لقد خلق هاردى ثلاث نسوة لا تنسين : تس الساذجة النقية التى يهزأ منها القدر ويضننها ، ثم آرا بللا البدائية التى تجهل الشقاء لأنها تجهل العاطفة ، وأخيراً ، وخاصة ، سو ، خلية جود — إنها تستسلم لجود فى المساء الذى خافت فيه أن يعود إلى آرا بللا . ولكن كبرياتها قد جرححت من ذلك . وبعدئذ تتزوج رجلاً آخر . وتتألم من هذا الزواج ، كل ذلك كما تقول جود وتعذبه . إنه ليلاند لها أن تضحي بنفسها فى سبيل تعذيب

ذلك الشخص الذى ما زالت تحبه ، ولكن تنقم عليه أنه استولى عليها بسهولة . . إنها لتشعر بلذة ، وهى تسكب دموعا سخانا على جود وعلى نفسها .

ليس يكفى أن يعبت القدر بالآلام الإنسانية. إن الإنسان أيضا يحلو له أن يضطهد الإنسان . وليس ثمت من مصم من هذه الآلام إلا العدم . لا سبيل الى الهدوء إلا بالموت . وأفزع مشاهد جود الغامض ، هو مشهد شق الأطفال بيدي أخيهيم . وهنا نضع يدينا على مفتاح فلسفة هاردى : علام نعيش مادامت الحياة لا تعد إلا بالآلام ؟

وهناك روايتان آخران ، واقعيتان كهاردى ولكنهما دونه قيمة ، هما : جسنج (١٨٥٧ - ١٩٠٣) وهوايت (١٨٣٠ - ١٩١٣) . أما هوايت فهو صاحب كتابين فقط يروى فيهما حياته ويصور القلق الذى تعانيه النفس حين تفقد الإيمان وتطفق باحثة عن الهدوء والإطمئنان : وهذان الكتابان هما : سيرة مارك ريثرفورد بقلبه ، و : خلاص مارك ريثرفورد ، وأما جسنج فقد ترك لنا مجموعة كبيرة من المؤلفات . وحاول أن يستمد من حياة الحرمان والآلم والشقاء مادة لعدد من الروايات صور فيها الطبقات الدنيا فى لندن (ديموس ، ، ، العالم الأدنى) ،

أو أوساط الكتاب الجائعين (شارع جرب الجديد) . لقد أراد جسج أن يكون مثل ديكنز ، ولكن شخوصه تفتقر إلى شيء من الحرارة ، وأوصافه متشابهة جامدة . .

وتجاه الرواية النشأومية هناك الرواية التي تهرب من الواقع ، وتسير بنا في الزمان والمكان ، لتنسينا بشاعة الحياة الحاضرة ، مثل رواية « لورنا دون » (١٨٦٩) من تأليف بلاك مور وهي تصور ديثنشير المتوحش في عصر الإصلاح ، ورواية « جون انجلزانت » (١٨٨١) من تأليف جوزيف شورذوس وهي صورة للمنازعات الدينية في القرن السابع عشر وقد فتنت هاتان الروايتان أجيالا من القراء . ومثل ذلك روايات سورتز (١٨٠٢ - ٦٤) التي تسمح للخيال بالعدو وراء طيوف الأرستقراطيين الرياضيين والصيادين الجريئين ، وقد أصابت نجاحا كبيرا كالنجاح الذي يلاقه الآن الكتاب الذي ظهر أخيراً لسيجفريد سازون (ولد ١٨٨٦) بعنوان « مذكرات صياد ثعالب » . وهناك أخيراً وخاصة مؤلفات بورو (١٨٠٢ - ١٨٨١) ، وتكاد تكون جميعها عبارة عن ترجمات ذاتية ، وهي تمجد حياة البوهيميين المتشردة وحياة البائعين المتجولين في الأرياف ، داعية بذلك

إلى محبة الاستقلال والحرية (« لا فتجرو ») ولا يفوتنا أن نذكر أيضاً مؤلفات كنجليك (١٨٠٩ - ٩١) التي تصف روعة الشرق في كثير من الإغراء . وكذلك لا يفوتنا أن نذكر ريدر هاجارد (١٨٥٧ - ١٩٢٥) الذي أصابت مؤلفاته رواجاً كبيراً ، وهي عبارة عن سلسلة من روايات المغامرات عن أفريقيا العجيبة وملوكها وسحرتها .

وفي نهاية القرن التاسع عشر نرى الإغتراب هو الذي يسود أدب الهروب على يد ثلاثة أقطاب عظام ، أولهم ر . ل . ستفنسون (١٨٥٠ - ٩٤) ، وهو أعظم منشيء عرفته إنجلترا ، لا يضارعه في أسلوبه أي كاتب إنجليزي آخر . ولد في أديمجورج ، وقضى شبابه في إيقوسيا ، وقضى خير سني نضجه في فرنسا وكاليفورنيا ، وأجمل لحظات حياته المشرقة في أوقيانوسيا . ومات في صاموا حيث كان قد أنشأ شبه مملكة . وكان السكان الأصليون فيها يلقبونه Tusitala أو القصصا ص . والحق أنه كان قصاصاً لا نظير له حتى لتنبسك براعته القصصية أنه كان شاعراً عظيماً ، وأنه كان ألطف كتاب المقالة في زمانه . وتمتاز رواياته برهافة نادرة ، إلا أن رهاقتها لا تنال من قوتها ، هذا إلى عنصر مرضي واضح يزيد جمالها

(كان ستيفنسون يعاني داء السل) ومع ذلك يشعر القارىء أن ستيفنسون لم يعط كل ما عنده ، ولعل امرأته الأمريكية المولعة بالمواضيع الاجتماعية قد ألجأت خياله الفنى إلى حد كبير ، ولعله لو ترك له العنان أن يصور لنا بلاداً خيالية غير التى صور وأحسن كتبه قصة رمزية طويلة بعنوان « الدكتور جيكل ومستر هايد » يعالج فيها موضوعاً أصبح بعد الفرويدية من الموضوعات الشائعة المألوفة : روحان تسكنان جسم الدكتور ، إحداهما جميلة مستقيمة والأخرى قبيحة شريرة : وحين تتغلب الأخرى على الأولى تشوه ملامح وجهه تشويهاً مروعاً .

والرواية التى ضمنيت بنجاح ستيفنسون نهائياً هى « الجزيرة ذات الكنز » ، وما زالت تعد خير روايات المغامرات ، فيها نجد فرحة الإرتياد وفرحة الإكتشاف ، ونجد عنصر الفرع فى شخصية چون سلفرو عنصر السر فى السطو على الفندق حيث ينصت الطفل مرتعداً إلى اقتراب خطوات السارق الأعمى . وفى نفس هذا الإتجاه كتب ستيفنسون رواية « المخرق » ، وفيها ، بعد أن يستفيد من ذكرياته عن باريس وسان فرانسيسكو ، يمضى بنا إلى المحيط الباسيفيكي . إن ستيفنسون

أول من مهد لذلك الأدب الضخم الذى يتناول الجزر البولينيزية ،
« أرض المداعبات والكسل . وكثيرا ما حول جوال الباسيفيك
الخامد إلى جو « ألف ليله وليلة » السحري فى « بحار الجنوب »
وسهرات الجزر ، الخ) ومع ذلك فإنه فى روايته الأخيرة
« جزر البحر » قد آخذ بمؤلفات موم إذ أظهر تدهور البيض
فى المناخ الأوقيانوسى .

وقد كتب هذا الروائى ، المغترب فى الجزر ، سلسلة من
الروايات عن إيقوسيا البعيدة (وخير هذه الروايات « معلم
باللترى ») ، وأتاح له بعده عن إيقوسيا أن يضيف عليها حلة
من الشعر والأحلام . . . والحق أنه كان فنانا قبل كل
شئ ، فكان يبدل الواقع ، وينسجه من الخيال على هواه ،
ويبحث فى مخلوقاته كثيراً من قلبه ، حتى يحببها إلى قلوبنا .

أما لافكاديو هيرن (١٨٥٠ - ١٩٠٤) فلم يكن له
وطن كذلك ، مثل ستيفنسون بل أكثر ، ولم يستقر إلا فى
الأمكنة التى يسودها الجمال . هو سليل إيرلانديين . ولد فى
الجزر الأيونية ، وطوف فى العالم ، وعاش بعض الوقت فى
جزر الآنتيل الفرنسية ، ثم عين أستاذاً للأدب الانجليزى فى
جامعة طوكيو ، وتزوج من يابانية ، وأصبح يابانيا أكثر من
أبناء اليابانيين الذين يقلدون الغرب . أما كتبه فأحرى بها أن

تسمى ريبورتاجات روائية لا روايات بمعنى الكلمة . وأشهر هذه الروايات هي التي تتحدث إلى الانجليز المشدوهين عن يابان البطولة والفروسية (« كورورو » ، « كويدان » الخ) . على أن هذه الروايات الممتازة يجب ألا تنسينا تلك الصفحات الرائعة التي كتبها هيرن عن جزيرة المارتينيك « ذات التلال الملفعة بخضرة لامعة تحت أشعة الشمس الذهبية » ، « هذه القصيدة الكبيرة الصامتة المتألفة من ألوان وأضواء » .

أما رديارد كبلنج فإن حالته لتحير حقا . نعم إن كتاباته النثرية أبقى على الزمن من أشعاره ، ولكن رواياته وأقاصيصه عن الحياة العسكرية في الهند ليست أخلد من قصائده الاستعمارية التي استلهم فيها حرب ١٩١٤ (اللهم إلا بعض المستثنيات كأقاصيص الحيوانات التي كانت موفقة دائما) . على أن كبلنج الذي تخلص شيئا فشيئا من الضباط ، استطاع أن يصور لنا ثلاثة نماذج شائعة جداً من الجنود : هم ثلاث رجال يحب بعضهم بعضا حبا عظيما لم يستطع أحد ، رجلا كان أو امرأة ، أن يفصلهم بعضهم عن بعض ، أولهم مولفاني وهو الرياضي المفكر فيهم ، والثاني أورثيريس ، وهو نموذج لندن أنيق بارع الحيلة ، والثالث جوك ليرويد وهو عملاق طيب من

« يوركشير » ، (« ثلاثة جنود » ، « أقاصيص بسيطة من المستعمرات » الخ) . وهؤلاء « الفرسان الثلاثة » من فيض الخيال ، وحتى عيوبهم لا تجد لها نظيراً في الواقع ، غير أن سلوكهم العجيب وروحهم المرحّة ، وثرثرتهم اللطيفة ، قد أمتعت أجيالاً كثيرة من القراء .

ومؤلفات السكّهولة تحتل هي الأخرى الأخذ والرد ، إلا إذا اعتبرناها مجرد حكايات للشبيبة ، فيحدثنا في « ضباط شجعان » عن ابن مليونير يضطر لتعلم هذه الحرفة الشاقة ، حرفة الصبي البحار ، أما كتابه الطويل « كم » فهو دراسة صادقة للعقيلة الهندية ، لولا أنه طويل جداً . وكتاب « ستالكي وشركاه » قصة طويلة تصور شقاوات التلامذة الانجليز .

ولا شك أن أحسن مؤلفات كبلنج هي « كتب الغابات » و « حكايات » . والموضوع المركزي في « كتب الغابات » موضوع مبتذل ، هو موضوع الطفل الذي تربيته الذئاب . إلا أن كبلنج قد جدد هذا الموضوع باختياره إطاراً اغترابياً وبخلقه أساطير عن الحيوانات استقاها أو تأثر فيها بالأديان الهندية . وإنك لتستخلص من حكايات ماو جلي رمزاً غامضاً يرمي إلى أن الشخص الانجليزي يطيع قانون شعبه

فهو أعلى من القرد الفرنسي الذي يثرثر ويتحرك في الفراغ.
أما كتاب «حكايات» فإنه ينسج على غرار «مغامرات أليس»
الخالدة للرياضي . ل . ودجون أعنى على غرار الحكاية
الفكاهية التي تخدع الصغار وتسلي الكبار فيحدثنا كبلنج عن
الحوت كيف تحصل على رقبتها وعن الجمل كيف يحصل عن
سنامه وعن الفيل كيف يحصل عن خرطوميه . إن صغار
القراء ليفتحون أعينهم مندهشين ، ولكن سرعان ما ينتابهم
قلق غامض ، لأنهم يشعرون شعورا مبهما بأن المؤلف بسبيل
أن يسخر منهم .

وإذا أضفنا إلى مجلدي «كتب الغابات» ومجلد «حكايات»
مجموعة من خيرة الأقاصيص المنتشرة هنا وهناك في كتب
أخرى لسكبلنج (مثل «عين الله» و «الخلية») كنا أمام
مجموعة من الآثار خليقة بأن تقاوم بلى العصور .

والآن نصل إلى الحديث عن ولز (ولد عام ١٨٦٦) :
جمع ولز بين رواية الهروب وممكنات العلم . كان في أول
أمره عالما يقضى أوقاته بين التجارب في المعامل ، وله كتاب
في «البيولوجيا» ، وكان اختصاصيا في التشریح المقارن
والبايوتولوجيا والفلك . فروى لنا في سلسلة من الأقاصيص

طائفة من خيالات رجل العلم : حدثنا عن نبتة غريبة من النباتات الأوشيدية . وعن كائنات نصف انسانية ونصف حيوانية يوجد لها جراح ، وعن صاعقة تقترب من الأرض وتسكاد تحطمها (« الجرثومة المسروقة » جزيرة الدكتور مورو » ، الخ) وقد أطلقت بعض الاكتشافات خيال ولز ، فحدثنا في سلسلة من الروايات عن الرجل الخفي الذي يطوف في الظلام ، وعن العالقة الذين يهددون النوع الإنساني ، وعن المستكشفين الذين يحوبون مغاور القمر ، وعن سكان المريخ الذين يبيدون الإنسانية بالسنة من نار (« طعام الآلة » ، و « حرب العوالم » ، الخ) .

وكان ولز اشتراكيا ، وكان عضوا في الجمعية الفابية ، وتشجلى شخصيته الاشتراكية في طائفة من « روايات الاستباق » (وأجمل هذه الروايات رواية « يقظة النائم ») حيث يصور لنا البشر في القرن الثلاثين وقد انقلبوا بتأثير الآلة إلى آلات محنومة ، أو يصورهم وقد سيطرت عليهم اوليغارشية عاطلة ؛ وتظهر شخصيته الاشتراكية أيضا في سلسلة من الروايات الاجتماعية (كس ، و « تونوبنجاي » ، الخ) وقد صور لنا الحياة التي تدب من قلة الهواء والنور ، صور الحياة التي تدب

في الدكان (كبس ، پول) وحياة الطلبة الفقراء (لويشام ،
وليام هل) وقد سيطرت عليهم جميعا لعنة الجنس . وفي الوقت
نفسه كتب روايات ذات أطروحة ، عاجل فيها بصراحة
المسائل الجنسية وتناول موضوع المرأة المتحررة (« زواج » ،
« آن فيرونيكا ») .

وقد أراد أخيرا أن ينتقل من حيز النظر إلى حيز العمل .
فشرع في دعوة ضد الحرب ، فأبان عدم فائدة الحرب في
كتابه « الحرب في الهواء » . وكان في أول أمره يشتعل كرها
لكيزر كروب ، ثم أصبح بعد ذلك انهزاميا ، فأبدى قرقه ،
وكلاله ، في إحدى رواياته ، وهي الرواية الوحيدة التي تفيض
بالانفعال وعذوانها « مستر برتلنج يغوص إلى أعماق الأشياء » ،
واخترع إلها لا يحس بوجوده غيره (« الإله الملك الخفي »)
ووضع لنفسه ديانة هي نوع من النزعة العقلية الغامضة . ثم
تحول إلى مرب ، فرسم خططا خيالية للتعليم ، ولخص تاريخ
العالم ، ثم عاد إلى موضوع طالما عالجته قبل ذلك . فصور لنا
فردوسا ولزيا (« مدينة فاضلة حديثة » ، « بشر كآلهة » ، الخ)
ولعله ، لو اضطر أن يحيا في هذا الفردوس ، أن يكون أول
الهاربين منه .

أما أين يمضى الآن فيبدو أنه لا يدري فى أى اتجاه يسير .
إن كتابه « عالم ولیم کلیسلوڤ » ، (١٩٢٨) هو أشبه بوصية
أدبية يلخص فيها نظرتة إلى الوجود ، وكتابته « مستر بلتسورثى
فى جزيرة رامبول » ، (١٩٢٩) هو مزيج من الأنواع التى
سبق له أن برع فيها ، وبطله شخص يخدعه الحب ، فيبحر إلى
أمريكا ، وتضل به السفينة فى عرض البحر ، وهو وحيد ،
فيجن عقله ، ويعيش مدى خمسة أعوام ، وهو يحلم فى جزيرة
رامبول ، التى تسكنها كائنات بليدة متوحشة ثم لا يثوب إليه
رشدته إلا ليرى الحرب . . لقد كانت جزيرة رامبول إذن هى
الواقع . .

ومن الملاحظ أن ولز يبذل جهدا عظيما لتجديد نفسه ،
وهو جهد ضرورى ، لأن المجتمع يتطور بسرعة كبيرة
عظيمة ، إلى حد أن رواياته الاجتماعية وبطلاته المتحررات
أصبحن منذ الآن من الأمور القديمة البالية . وليست رواياته
الفلسفية إلا خليطا من النظريات المعروفة ، ولا يبقى له بعد
ذلك إلا الروايات العلية .

على أن هذا لا يمنع أن ولز قطب أدبى عظيم وأنه قد
أنعش الحركة الأدبية على نطاق واسع ، وقل من الروائيين من

كان له مقلدون مثل ما كان لولز . وإن له لخيالا خصبا ، وقدره عجيبه على استحضار الصور ، لعله ينفرد بها من دون سائر الأدباء في العالم بأسره .

وآخر عظيم من الممهدين للأجيال الجديدة هو والتر پاز (١٨٣٩ — ٩٤) وقد أخرجه حديثاً من ظلمات النسيان عشاق الجمال واللذة . كان أستاذاً لأوسكار وايلد ومكملاً لرسكن ولكنه أحل عبادة اللذة محل عبادة الجمال . فكان يقول بمذهب اللذة ويذهب إلى أن متع الجسد ومتع الفكر تستويان .

وقد كتب قليلاً فلم يخلف لنا فيما عدا كتبه النقدية عن عصر النهضة وعن أفلاطون ، وفيما عدا كتاب بعنوان « صور خيالية » . إلا رواية واحدة بعنوان « ماريوس الأبيقورى » ، وقراءة هذه الرواية على جانب عظيم من الصعوبة . وكان وقته متسماً للانصراف إلى عمله . وجاءت كتبه مثقلة بالآفكار معتنى بها إلى حد الإفراط .

٢ — الاتجاهات الحالية

لعل من الخروج على قواعد الدقة أن نقول إن هؤلاء

الأقطاب العظام ، ميريدث ، بتلر ، هاردي ، ستيفسون ،
كلينج ، ولز ، پاتر ، هم زعماء مدارس . فإن الفردية في هذا
العصر ، وهذا القلق الحديث والرغبة في خلق جديد بأي ثمن ،
كل ذلك جعل من لغو الكلام أن تتحدث عن « مدرسة »
و « تلميذ » في الاتجاهات الحالية . وكل ما نستطيعه على أكثر
تقدير هو أن نقسم المؤلفين إلى طوائف كل طائفة منها يجمعها
مثل أعلى واحد .

أولا : الطائفة الكاثوليكية ، وقوامها كاتبان من الطبقة
الأولى هما تشسترتون وبلوك . هي أقلية في بلد بروتستانتى
تظاهر بالشاب ، والنشاط والاستقلال . تعارض البيوريتانية
فتؤكد حقوق الفرح ، والخيال . والفكاهة ، ولد تشسترتون
عام ١٨٧٤ ، وهو من كتاب المقالة البارعين قبل كل شيء ،
ثم هو صحافى مفارق وفكاهى هجاء . وعندى أن مقالاته
وهى أملا بالآفكار التى ستبقى ذكره أكثر من
رواياته (« أورثوذكسية ») وقد خلق كذلك شخصية
طريفة لكاهن هو الأب براون . وولد بلوك عام ١٨٧٠ ،
وهو لا يقل عن صاحبه مفارقة ، إلا أنه يتجه إلى النخبة
المختارة أكثر مما يتجه إلى الجماهير ، ومواهبه أندر

وأرجه وعندى أيضا أن مقالاته الجميلة فى مثل مجموعته « عن
لا شيء » ، سيحفظها تاريخ الأدب أكثر من رواياته .

وثانيا ، الطائفة الإيرلاندية : وهى أهم من الأولى
وسيدها جورج مور (ولد عام ١٨٥٢) ، وقد تبنته
باريس واحتضنته وحسب نفسه فى أول الأمر مصورا ،
ثم روائيا طبيعيا ، وكتب روايات عن عالم المسرح ودنيا
السباق . وقاده بورجه بعد ذلك إلى القيام بدراسات فى
سيكولوجيا التصوف . ثم التقى ببيتسى ، وعندئذ قرر أن يعود
إلى مسقط رأسه ، وهناك كتب خير مؤلفاته . من هذه المؤلفات
« البحيرة » ، وهى تصف النزاع الذى يقوم فى نفس كاهن
إيرلاندى بين الواجب الدينى والواجب الإنسانى . وأخيرا
اكتشف مور نفسه وصرح بأن شخصيته هى الموضوع
الوحيد الذى يستحق أن يكتب فيه (تحية ووداعا) . وتلاحظ
فى آثاره أنك يازاء منشاء عظيم . وإنما يعوزه عنصر أساسى ،
حتى فى الجزء الشخصى من آثاره ، أعنى الألفة الجميمة بينه
وبين القارىء .

وثانى هذه الطائفة الإيرلاندية جيمس ستفنس وهو
روائى عظيم وشاعر كبير فى آن واحد ، أحيا أقاصيص الجن

الإيرلاندية ، بل كتب هو نفسه أهم وصية على هذا العرار ،
سمّاها « جرة الذهب » حدثنا فيها عن يان الكبير وهو يصطدم
بأنجوس أوج إله الحب والفرح عند السلت وعن جيش الجنيات
وهي تحارب الرجال المسلحين وعن الفلاسفة وهم يصطرون
بالحيلة مع العقاريات التي تعيش تحت الأرض تحرس جرة مملوءة
بالذهب . خيال رائع ، ولكن لعله محشود كثيراً ، ولعل كثيراً
من الناس يفضلون على هذه القصة قصة ماري سمبلانت حيث
نرى الجنية فوق الأرض ونرى الأمير الفاتن شرطياً هاتلاً ،
ونرى الغادة الجميلة بنت امرأة خادم ، ونرى العصي السحرية
عبارة عن إرث من أمريكا .

جيمس جويس : ولد عام ١٨٨٢ . كاتب مجدد . كان
ولا يزال له تأثير بعده البعض حسناً وي بعده البعض الآخر سلباً .
حاول في عدة كتب أهمها مجموعة قصص بعنوان « دبلنيون » ،
ورواية بعنوان « يوليس » أن يتخذ اللايقين مثلاً أعلى ، وأن
يحطم كل خطة وكل تصور إنشائي للعالم . لم يتحاش دائماً
الأمور المبتذلة (المنشرد العبقرى ، السكر العظيم) إلا أنه
برع براعة فائقة في التحليل الدقيق للإحساسات الأولية وفي
إظهار الرغبات المكبوتة .

بجمع رواية «يوليس» بين عدة نماذج معروفة من التخيل
(الرواية البيوجرافية ، الرواية النفسية ، الرواية الرمزية) ،
إنها حوار داخلي طويل ، بل اجتراح طويل لأفكار لا يربط
بينها إلا قانون تداعى الأفكار ، بل هو سلسلة من الاشارات
السريعة تمثل المجرى الطبيعي للفكر ويسيطر عليها الاهتمام
بالشئون الجنسية . أما الأسلوب فن النثر المتقطع المحطم إلى
معارضات للأسلوب الخطاب والأسلوب الأنقى . . وله في
بعض الأحيان قفزات غريبة حتى يختلط الشعر بالعبارات
الجريئة المكشوفة اختلاطاً غريباً . وجويس لا يحدد آثاره في
المكان ، بل يحددها حداً ضيقاً في الزمان ، ويناضل الرقاص ،
نضال اليأس . إن « يوليس » تجري في عام ١٩٠٤ ، بدبلن
خلال ٢٤ ساعة . إنها « مغامرة الفكر عبر الوجود » . إنها
تاريخ يوم من أيام مستر بلوم والناس الذين يتزهون في المدينة
في نفس اليوم . وينتهي كل شيء إلى ليلة فحش قدر . قالت مسز
ولف « إن « يوليس » فضيحة خالدة ، إنها جرأة عملاق ،
ونكبة هائلة » .

ليام أوفلرنى : ولد عام (١٨٩٧) . هو الممثل الحديث
لللمحة الايرلاندية . ورواياته الواقعية المظلة تنهض بسرعة

الى أفق العظمة الملحمية . ولد في جزر آران ، وسط الصيادين
الجفاة الذين يعيشون دائماً مع فكرة الموت ، وحارب في
فرنسا ، ثم في إيرلاندة ، وطوف في الأمريكتين وفي الشرق
الأدنى . وقد أتى الى الأدب متأثراً بنظرية فرويد ، فأحب أن
يحلل الاندفاعات المتناقضة التي تحرك جسم الانسان البهيم ،
(المواشى) ، أو عقلية الغبي الغامضة (مسترجيولوى) ، كما حاول
في سلسلة من القصص (فندق الجبل) أن يستحضر جو إيرلاندة
الغريب الذي يسوده الحزن وتملكه قوى شريرة خفية وخير
آثاره كتابه « الواشى » وهو رواية بطلها العملاق جيبو الغبي
يبيع للبوليس الانجليزى زعيم الثائرين صديقه ماك فيليب ،
ويصبح الرمز الحى للخيانة ، يصبح يهوذا آخر . وتحكم عليه
محكمة الثوار السرية ، فيهرب ، ويحاول غشاً أن يصل الى
الجبال التي أُلجأت طفولته البريئة ، ثم يخترق الكنيسة وقدامتلاً
جسده رصاصاً

وهناك طائفة الكتاب الذين أحيوا الرواية التاريخية ،
نستطيع أن نذكر منهم موريس هيولت (١٨٦١ — ١٩٢٣) ،
وأجمل آثاره كتاب حلو بعنوان « عشاق الغابة » ، يحيى عهد
انجلترا النورماندية . — ستانلى ويغان (١٨٥٥ — ١٩٢٧) ومن

طيشه أنه أراد أن يناقش ألكسندر دوماس في كتب تاريخ فرنسا روايات (بيت الدثب ١٨٩٠) . - وأخيراً هيو والبول (ولد عام ١٨٨٤) وهو كاتب موهوب كبير ، بل هو ثاكري جديد ، وقد برع في كل الأنواع : سواء في رواية التليذ ، (إلا أن «جرمي» موضع أخذ ورد لأنها تذهب إلى القول بتلك «الموضنة» القديمة في التربية الرياضية) وفي الرواية النفسية («وترز مون» دراسة للنزاع بين العقلية الشكتورية والعقلية المعاصرة) ، وفي الرواية الخالية («فوق الميدان المظلم») . على أن خير آثاره هو ولا شك رواية تاريخية بعنوان «روج هيرز» حيث وفق المؤلف إلى استحضار القرن الثامن عشر بفناده ، وطرقه ، وساحراته .

وهناك طائفة الرواية النفسية ، وأهم ممثليها د.ه. لورنس . (١٨٨٧ - ١٩٣٠) وهو ابن عامل مناجم . وقد تلمذ على فرويد . وكان عدواً لأدعياء الفضيلة . وأروع مؤلفاته «الآباء والأبناء» ثم - ماي سنكلير (١٨٦٨) وهي فنانة مرهفة الحس ، برعت في دراسة المسائل اللاهوتية . - مورييس بارنج (١٨٧٤) ، وقد أصاب نجاحاً عظيماً بفضل كتابه «دافني آدين» وهو من أطف الدراسات النفسية التي عرفها التاريخ الأدبي .

وهناك طائفة كتاب الميودراماة ، وأهم ممثلها هال كين (١٨٥٣) ، وماريون كوريل (١٨٦٤ - ١٩٢٤) ومن أشهر مؤلفاته «السيد المسيحى» وهو يمتاز بقوة الانفعال . وكوتان دويل (١٨٥٩ - ١٩٣٠) وهو الذى أثار الرواية البوليسية بفضل «شارلوك هولمز» (١٨٩١) . — وهناك الرواية الفكاهية، ويمثلوها و. و. جاكوبز (١٨٦٣) وقد اختص بحكايات البحارة ، وجيروم ك. جيروم (١٨٥٩ - ١٩٢٧) وأحسن آثاره « ثلاثة رجال فى مركب » ولشد ما أضحكت بسطاء النفوس -- دروز ماكاولى ومن مؤلفاتها «أعمار خطيرة» ، (١٩٢١) «الاحتفاظ بالمظاهر» ، (١٩٢٨) . الخ ، وهى مولعة بالإضحاك عن طريق إحداث المواقف غير المتوقعة ، وأخيراً فإن أبعد هؤلاء الروائيين خيالاً هو دافيد جارنيت (ولد ١٨٩٢) ومن مؤلفاته « المرأة التى انقلبت ثعلباً » ، « يجب عليها أن تسافر .. الخ. » وتجمع أقاصيصه إلى الهزليات غير المعقولة إحساساً لطيفاً بالرمزية والشعر .

وهناك طائفة الروائيين الاغترابين ، وعددهم كبير ، وقيمتهم عظيمة . وأول من يخطر منهم على البال جوزيف كوند (١٨٥٦ - ١٩٢٤) لأن آثاره تتصف بوحدة نادرة

في هذا العصر . إنه نموذج غريب لبحار بولوني ، يفكر بالفرنسية ، ويكتب بالإنجليزية . وهو متمكن من صناعته ، كما أن تحليله النفسي عميق بوجه العموم ، إلا أنه لا يعرف دائماً كيف يحد نفسه . ولعل خير آثاره هو هذه القصة الطويلة «تايفون» التي تحدثنا عن الكابتن ماك وير ، وهو رجل غبي عنيد ، بطل بدون أن يشعر ، يظفر بفضل دمه البارد وشعوره بالواجب على تلك الغريزة الغامضة السيئة التي تثير غضب الماء والسماء . وقد برع كونراد في الأوصاف البحرية وأجاد تصوير تلك الساعات التي يشعر فيها المرء إبان العاصفة بأن في زئير الرياح نية وحشية وإلحاحاً غاضباً (لورد جيم) وعرف كيف يصور الموجة الكبيرة المزبدة وهي ترتفع في الضباب كأنها في اندفاعها مجنون شرير بيده خنجر («الزنجي النرجسي» ، ثم هو يرتفع إلى الرمز بلا عناء : إن كفاح الإنسان الصغير الضعيف على الحيوان هو ظفر القوى الروحية الأخلاقية على القوى المادية .

وقد وفق كونراد توفيقاً كبيراً في دراساته للعقلية التي يشبهها بعقلية السلحفاة عند الهجناء والسكان الأصليين في هذه البلاد الواطئة !

أما سو مرت موم فهو موهوب في الرواية والمسرح جميعاً ،
ولم يصبح من أدباء الاغتراب إلا متأخراً . كان طالبا للكتاب .
وقد درس حياة الطبقات الدنيا في لندن ، ولم يكن قد تجاوز
العشرين من عمره حين كتب رواية « ليزا دي لامبت » و « نبي »
أروع تصوير لحياة الأكوخ . وقد درس حالة امرأة ذكية
مرهفة تزوجت من فلاح فكتب لنا رواية « الاستعباد البشري »
التي تعد من أعظم الكتب التي ظهرت في هذا القرن ، وهي رواية
ضخمة ، جزء منها عبارة عن ترجمة ذاتية تنتقل بنا من كنت
إلى مونبارناس إلى لندن ، ويصور امرأتين لا تنسيان : ملدر -
الموظفة الصغيرة في أحد المطاعم ، العامية ، المتظرفة في
حركاتها الشرهة إلى اقتناص المال واستلاب راحة الآخرين ،
وسالى الفتاة القوية السليمة هذا الحيوان الرائع المهمل في
كروم كنت .

ولما نشبت الحرب اشتغل موم بالتجسس لبلده في
سويسرا وروسيا . ثم كتب وهو مريض كتابا كان يحلم به
منذ زمان بعيد ، وهو عبارة عن سيرة روائية لجوجين
أسماء القمر والست بنات ، وبعد ذلك أصبح يحب الأسفار
كثيراً ينشد الشمس ويسعى إلى البلاد المجهولة ودرس

ما تحدثه الأقاليم الاستوائية في البيض المنعزلين من تأثير
سوء ، فكان أن أدخل الواقعية في الرواية الاغترابية ، وجعل
تاهيتي وجزر الباسيفيكي مسرحاً لقاصيصه « اهتزاز غصن » .
ومن أجمل هذه الأقاصيص « مطر » ، « وسقوط ادوار بارفار »
كما أن بعض أقاصيصه الأخرى مثل (الساحر الماليزي)
تنتقل بنسأ إلى ماليزيا . أما رواية « الحجاب المنقوش » ، وهي
أكمل رواياته وأكثرها توازناً فهي تدور في هونج كونج
والصين . ومن رواياته الأخيرة « كعك وخمر » ، وهي مزيج
من ذكريات الطفولة وهجاء العادات الأدبية هجاء لاذعاً .
ولكن هيات أن يكون قد أعطى إلى الآن كل ما عنده .
وعلى الطرف المناقض لموم ، يجب أن نذكر ديشير
ستا كبول (ولد عام ١٨٦٥) ولو أنه هو الآخر من روائي
الاغتراب . هو سيد ما يسمى بالرومانس أى قصة المغامرات
في بلاد بعيدة . وتمتاز هذه القصة بأنه ليس للواقعية من نصيب
فيها ، كما أن العنصر الغنائي فيها ذو شأن كبير . وقد نهض
ستا كبول بهذا النوع إلى الذروة في قصته اللطيفة « البركة
الزرقاء » . وما يؤسف له أن نجاح ستا كبول في هذا النوع من
القصة قد حبسه في إطارها ، وغيبها الأساسى هو إصرافها في

الخوايم الحسنة . ويتمتع ستاكبول بموهبة عظيمة ، وتدل روايه « سوق العفاريات » التي تصور لنا عذاب رجل كهل مع عاهرة صغيرة من لندن على أنه كان من الممكن أن ينجح في الرواية الاجتماعية نجاحا عظيما .

وهناك الرواية الاقليمية ، أخت الرواية الاغترابية ، وقد نالت استحسان الجمهور منذ النجاح الذي أصابه توماس هاردى ، فلا تكاد تجد منطقة انجليزية إلا لها قصصها . وأوفر هذه الأقاليم حظا أقاليم أيقوسيا .

وقد حصل آرنولد بينت على الشهرة (١٨٦٧ - ١٩٣١) دفعة واحدة إذ صور في رواياته الأولى مسقط رأسه ، ستافوردشير ومدنها الخمس ، هذا البلد المظلم الدميم الذي يبلغ من السعة والتحطيم أن دمايته تنقلب إلى جلال ، هذا البلد الذي يمتزج فيه احمرار الشفق بنار الأفران وينعكس اللهب على صفحات القنوات الرهيبية السود ، هذا البلد الحزين الذي لا تعرف أرضه الخضرة ، وتعيش فوقه بورتجوازية رتيبة صارمه بخيلة نمامة . إن روايات المدن الخمس (ولاسيما قصة « الزوجات العجائز ») مصطبغة جميعا بلون رمادي قاتم ولكنها لرماديتها تؤثر في النفس . إنه ليشق عليك أن تأتي

على آخرها، ولكنك لا تنساها مدى حياتك .
وهناك محاولة شائقة حاولها أخيراً ج . ب پرستيل (ولد
عام ١٧٩٤) (الأصحاب الطيبون) لإصلاح هذه الرتبة
الكامدة ، فمزج الرواية الاقليمية برواية التشرد التي كان قد
أوجدها بورو .

وهناك الرواية الاجتماعية أو رواية الأخلاق والعادات
في وسط معين . وقد احتلت هذه الرواية بعد الحرب مكانة
هامة جداً . ويبدو أنها الآن بسبيل افتقاد هذه المكانة .
ومن أهم كتاب هذه الرواية اسرايل زانجويل (١٨٦٤ —
١٩٢٦) : وصف حياة اليهود في « أحياء لندن » ، وصف
حيا ملونا ، — جون جولسويرثي . فرض الإعجاب به على
الأدباء بسلسلة من اللوحات الوصفية الضخمة ، تصور
تطور البورجوازية الفكتورية والإدوارديه والچورجية
(١٨٧٥ — ١٩٢٥) ، وكتابه الأساسي و « قصة فورست » ،
وهي ملحمة تصور روح التملك في قصة مالك يدعى سومر
نورست يبنى بيتا ويحبس فيه امرأته إيرين ، وعبثا تحاول المرأة أن
تقاوم : إن الحب ، والزواج ، والعائلة ، والوطن ، والفضيلة
والدين ، والسعادة كل ذلك يتلخص في نظر البورجوازي

الكبير وبكلمة واحدة : التملك . وإن ملحمة حرب البوير
لهى القمة التي راغتها هذه الروح .

تتغير العقلية بدخول القرن الجديد ويستيقظ سومز
بجأة وسط الانقراض ، في عالم مجهول ، كأنه إنسان نام مائة سنة
أو يزيد ، فالبيت العظيم الذي كان ينبغي أن يكون قصراً
إقطاعياً يعرض للإيجار — . . . وتهرب إيرين العروس . . .
ولا يبقى إلا رجل يحتضر .

إن المجتمع الانجائزي يتغير بسرعة عظيمة فلا يستطيع
جولسورثي أن يقاوم رغبته في إحياء أبناء وأحفاد فورست
المختلفين عن أسلافهم جداً لاختلاف فيكتب قصة ثانية (« القرد
الأيض » ، « ماعقة الفضة » ، « غناء البجعة ») ، بطلتها
المركزية هي فلور بنت سومز وهي امرأة طماعه متحذلة
متحررة ، وصفها جالسورثي وصفاً دقيقاً . وعلى كل حال فقد
قام جولسورثي بعمل تاريخي ، فترك لنا وثائق إنسانية هامة .
وما كان يعوزه حتى يكون كبلزاك إلا قليل من قوة البناء .
ويزداد توفيقه عندما يكتب روايات قصيرة مثل « أخوة » .
ويظهر أنه كان يخفي في أعماقه شخصية شاعر : فما أروع تلك
الصفحات التي يصف فيها ضوء القمر فيشبهه انبثاقه المفاجيء .

بؤثة سرب من الحمام الأبيض ، أو تلك الصفحات التي تصور
البوم وهو ينعب لائذا بحمى الظل .

وهناك طائفة الروائيين الذين اشتهروا بالصعوبة ، وهؤلاء
عددهم كبير ، وهم من عشاق الجمال والمفكرين ومن يسهبون
أغوار الاشعور ويعرضون الدقائق النفسية . نذكر منهم
دوروتريتشاردسون (« سقوف مسننة » ، ١٩١٦) وفرانك
سويتزن (ولد عام ١٨٨٤) وكلمانس دين وقد كانت في
أول أمره أدبى إلى السهولة والكلاسيكية . وأهم آثاره
« الأسطورة » (١٩٣٠) — وأخيرا وخاصة فرجينيا
وولف وألدس هكسلي . وهؤلاء الكتاب جميعاً يتأثرون
بستيرن وجويس وبكتاب الطليعة الفرنسيين أمثال بروس
وجيروود وغيرهما .

أما مسز وولف فكانها لا تؤمن بتقسيم للحياة غير تقسيم
دقات الساعة . أبرز كتبها رواية « مسز دالوى » (١٩٢٥) تدور
حوادثها في وستمنستر بين الساعة العاشرة صباحا والساعة
الثالثة من صباح اليوم التالي ، وساعات بيجن وسان مارجارت
هى التى تدق مختلف مراحل الرواية . أضف إلى ذلك أن
الرابطه الوحيدة التى يمكن أن تجدها بين الاستطرادات هى
رابطه زمنية صارمة ، كما أن أشخاصها الذين يعيشون قريبا

بعضهم من بعض في الزمان والمكان تتشابه حياتهم في الواقع رغم اختلافها في الظاهر فإنهم جميعا يعيشون حياة عقيمة فارغة. وأخيرا فإن الرواية تجري في أدمغة أبطالها ومن هنا نرى إسرافا في الحوار الداخلي يؤدي إلى إسراف في الملاحظات الرجعية.

وقد ارتفعت مسز وولف في روايتها إلى أفق الرمز، وهي ترسم في هذه الرواية تاريخ بيت على شاطئ البحر، وتاريخ الأسرة التي تسكن هذا البيت في الصيف، فتصور الطفل وهو يحلم ببلوغ المنارة التي تضيء من بعيد على الجانب الآخر من الخليج. ثم يصبح الطفل رجلا ويحقق حلمه فإذا هو يتبين أن هذا المنبع الضوئي ليس إلا برجاً عالياً فوق صخرة عقيمة. أما ألدس هكسلي (ولد عام ١٨٩٤) فهو سليل هكسلي البيولوجي العظيم. وهو ناقد موسيقى موهوب، وقد كتب عدة روايات، غير أن قراءة هذه الروايات أمر شاق، فهو يبحث عن موضوعه طويلاً قبل أن يجده: يتناول بعض الشخصيات فيدرسها ثم يطرحها ثم يتناول غيرها وهكذا دواليك. ومؤلفه الرئيسي هو رواية «المعزوفة»، وهي فاشلة كرواية لكنها كتاب ضخم بلا جدال. فيها هجاء وحشي للطبقة الاجتماعية العالية العاطلة عن العمل. ويظهر أن هكسلي إذا اقتصر

على الأقايص الطويلة مثل (بعد النار المصطنعة) لابد أن
يتحفنا بمؤلفات من عيون الآثار .

ونذكر في الختام روائيا يحقق التوازن بين الاتجاهات
الرئيسية المعاصرة ، وهو ج — د برسفورد (ولد عام ١٨٧٣) :
إن هذا المهندس القديم يعرف كيف يبنى روايات متماسكة ،
على الطريقة الفرنسية ، وهو يمتاز إلى جانب قدرته على البناء
بشغف قوى بالأسلوب ، حتى ليتمكن أن نقول إنه قل بين
الكتاب الأحياء من أتيح له ما أتيح لبرسفورد من مواهب .
لقد أوجد شخصية جديدة : شخصية الانجليزى الحساس ،
الحجول الذى يكاد يكون امرأة فى طباعه وفرط حساسيته
ورهافته ، ولكنه عنيد إلى حد البلادة ، قادر على القيام بأعمال
بطولية حتى يجرح حس العدالة عنده (« جا كوب ستال ») .
وفى مقابل هذه الشخصية خالق برسفورد شخصية أخرى هى
شخصية الانجليزية المترجلة العنيفة المنطلقة المتحللة من كل
ما تواضع عليه الناس .

وقد ألف برسفورد روايات ينافس فيها ولز مثل رواية
« Goslings » ، وهى قصة وباء يحتاج العالم ويفنى جنس الذكور ،
ومثل رواية « أعجوبة هاميدنشير » ، وهى قصة شخص غريب
مصاب بالهيدروپيسيا ، عبقرى ، يتقدم الإنسانية بعشرون

إلى الأمام ، وكان يمكن أن يقلب العالم لولا أن الطفل الوحيد الذي لم يسكن يخاف منه ، وهو طفل فقير معتوه . دفعه وهو يلعب ، إلى خدير عميق .

وتظهر عبقرية برسفورد في صورة أوضح حين يكون روائياً نفسياً وواقعياً ، فيدرس حالة مريض العطش (في « بيت ديمتريوس رود ») وحالة رجل ذى غرائز جنسية منحرفة ترده إحدى البغايا إلى الحب السوى ، وحالة رجل مليونير ترعبه مسئوليات الثروة وتعقيدات الحياة الاجتماعية (كل شيء أو لا شيء) . وهو يبرع في وصف الرجل الذي يتعب من المواضعات ومن الطرق المعقدة فيحاول أن يشق طريقاً جديداً وان يقلب حياته رأساً على عقب . هذا ولا يقل برسفورد أصالة حين يأخذ بالتحليل النفسى المحض ، فيصف لنا في كتابه « رفاق المنزل » علاقات جماعة يسكنون في منزل مؤثث . ولا شك أن رواية « وهم الحب ، أجل تحليل عرفناه لحب المراهقين

هنا تقف مهمة المؤرخ . ولكن ما من يوم ينقضى إلا ويطلع علينا أدباء انجلترا بكتب جديدة تبرهن على حيوية العبقرية البريطانية . لم يكف بريطانيا أن حازت نصب السبق في الشعر والدرامة فهي تحاول اليوم أن تفرق تفوقها في حلبة فن الرواية .

فهرس الاعلام

٢٣٤ : Aberc
١١٥ : Otway
١٧٨ : Edge
١٢٧—١٢٤ : Addis
١٢٤ : Arbut
١١ : Aelfri
٢٣٦ : Eliot
٢١٢- ٢١٠ : Eliot
٢٢٥ : O'Ca
١٢ : Orm
١٧١ : Austen
٢٣١ : O'Sull
٢٦٩ : O'Fla
٣٠ : Occley
١١٦ : Ethere
١٠٨ : Evelin

٢٦٥ : Pater
٢١٨ : Patin
٢٢٦ : Barri
٣١ : Barcl
٢٧١ : Barin
١٦٢—١٥٩ : Byron
٩٥ : Brow
٢٩ : Brow

۲۱۸ — ۲۱۶ : Browning	براوننج
۱۲۱ : Prior	پرایر
۲۳۶ : Bridges	بردجز
۲۸۲ — ۲۸۱ : Beresford	برسفورد
۱۰۸ : Burnet	رنف
۱۷۹ : Burney	برنی
۲۳۲ : Broke	بروک
۲۰۴ — ۲۰۲ : Brontë	برونی (ش)
۲۰۶ — ۲۰۴ : Brontë	برونی (ل)
۱۲۳ : Butler	بطلر (ج)
۱۱۰ : Butler	بطلر (القرن ۱۷)
۲۵۲ — ۲۵۱ : Butler	بطلر (القرن ۱۹)
۲۴۵ : Blake	بلاك (جورج)
۲۵۵ : Blackmore	بلاكور
۲۶۶ : Belloc	بلوك
۲۳۴ : Blunden	بلوندن
۱۵۲ : Blake	بليك (وليم)
۱۸۵ : Bentham	بنتام
۹۶ : Bunyan	بنيان
۲۷۶ : Bennett	ببیت
۳۵۵ : Borrow	بورو
۱۲۴ : Bolingbroke	بولبروك
۲۱۸ : Beddoes	بيدز
۱۴۳ : Burke	بيرك
۱۰۸ : Pepys	پیز
۱۵۱ : Burns	بيرنز
۶۰ : Peele	پیل
۱۴۵ : Bickerstaff	بیکرستاف
۱۸۴ : Peacock	پیکوک

۵۲ : Bacon	بکون
v : Beowulf	ولف

(ت)

۲۶۶ : Chesterton	نشستر تون
۲۱۲ : Trollope	ترولوب
۱۴۴ : Chesterfield	سستر فیلد
۳۰ — ۲۰ : Chaucer	شوسر
۳۵ : Tindale	تندال
۲۱۵ — ۲۱۳ : Tennyson	تنیسون
۷۰ : Tourneur	تورنر
۲۲۵ : Thompson	تومپسون
۱۴۷ : Thomson (القرن ۱۸)	تومسون (القرن ۱۸)
۲۲۵ : Thomson (القرن ۱۹)	تومسون (القرن ۱۹)

(ث)

۲۱۰ — ۲۰۷ : Thackeray	تاکری
-----------------------	-------

(ج)

۲۷۲ : Garnett	جاریت
۲۰۱ : Gaskell	جاسکل
۳۲ : Jacques st.	جاک الأول
۲۷۲ : Jakobs	جاکوبز
۳۲ : Gawin	جاون
۱۲۱ : Gay	جای
۲۳۶ : Gibson	جیبسون
۱۴۸ : Gray	جرای
۵۰ : Greene	جرین
۲۵۴ : Gissing	جسنج

۱۸۴ — ۱۸۰ . ۱۵۸ : Scott	سکوت (والز)
۱۳۸ : Smolett	سمولت
۱۸۵ : Smith	سمیث (سیدنی)
۱۴۴ : Smith	سمیث (آدم)
۲۴۲ : Synge	سینج
۲۷۱ : Sinclair	سینکلر
۱۰ : Cynewulf	سنولف
۱۵۵ . Surters	سورترز
۱۳۲ — ۱۳۰ : Swift	سویفت
۲۷۹ : Swinnerton	سوینرتون
۲۲۵ — ۲۲۲ : Swinburn	سویبنرن
۴۱ — ۳۸ : Sidney	سیدنی

(ش)

۶۴ : Chapman	شاپمان
۱۱۷ : Shadwell	شنادول
۱۴۵ : Sheridan	شریدان
۹۴ — ۷۶ ، ۴۶ : Shakespeare	شکسپیر
۲۴۲ — ۲۳۹ : Shaw	شو (برنارد)
۲۵۵ : Shorthouse	شورذوس
۷۴ : Shirley	شیرلی
۱۷۶ — ۱۶۵ : Shelley	شیللی

(ع)

۲۱۸ :	عمر الحیام
-------	------------

(ف)

۱۱۸ : Farquhar	رکار
----------------	------

۱۱۸ : Vanbrugh	قابر و
۲۳۵ : Freeman	فرعان
۴۹ : Feltcher	فلتشر
۷۳ : Feltcher	فلتشر (ح)
۹۸ : Vaughan	فوجہن
۷۲ : Ford	فورد
۱۳۷ — ۱۳۶ : Fielding	فلڈنچ

(ك)

۱۹۲ — ۱۹۳ : Carlyle	کاربل
۹۹ : Carew	کارو
۱۵۹ : Campbell	کامل
۴۸ : Campion	کامیون
۲۳۳ — ۲۳۲ : Kipling	کیلنج
۲۵۶ : Kipling	کیلنج
۹ — ۸ : Caedmon	کدمون
۳۵ : Cranmer	کرامر
۹۰ : Crashaw	کروشو
۳۳ : Caxton	کاکستون
۲۳۱ : Clarke	کلارک
۱۰۸ : Clarendon	کلارندن
۲۰۰ : Kingsley	کنجری
۲۵۶ : Kinglake	کنجلیک
۱۸۵ : Cobbett	کوبت
۱۵۱ : Couper	کوپر
۲۷۲ : Corelli	کوریل
۳۵ : Coverdale	کووردیل
۱۴۵ : Colman	کولمان
۲۱۳ : Collins	کولنز (دیلکی)
۱۳۸ : Collins	کولنز (ولیم)

۱۵۸ — ۱۵۶ : Coleridge	کولورج
۱۰۰ : Cowley	کولی
۱۱۹ : Collier	کولیر
۱۱۸ : Congreve	کوخریف
۲۷۲ : Courad	کونراد
۱۶۴ — ۱۶۲ : Keats	کیتس
۶۰ : Kyd	کید
۲۷۲ : Caine	کین

(ل)

۳۵ : Latimer	لاتمر
۱۸۷ — ۱۸۵ : Lamb	لامب
۱۷ : Langland	لانجلاند
۱۸۹ : Landor	لاندور
۳۰ : Lydgate	لیدجیت
۹۹ : Lovelace	اولیس
۵۰ : Lodge	لودج
۲۷۱ : Lawrence	لورنس (د . ه)
۱۰۸ : Locke	لوک
۱۱۵ : Lee	لی
۲۱۲ : Lytten	لتون
۳۸ — ۳۶ : Lyly	لیلی

(م)

۶۷ : Marston	مارستون
۹۹ : Marvell	مارفال
۶۴ — ۶۱، ۴۷ : Marlowe	مارلو
۲۳۵ : Masfield	ماسفیلد
۷۹ : Massinger	ماسنجر
۲۷۲ : Macaulay	ماکولی (روز)

۱۲۹ : Macpherson	دا کفرسون
۱۹۵ — ۱۹۲ : Macaulay	ماکولی (اورد)
۲۲ : Malory	مالوری
۱۲۲ : Mandville	ماندویل
۲۲۶ : Meynell	مانبل (مسر)
۶۸ : Middleton	مڈلتون
۱۰۶ — ۱۰۱ : Milton	ملٹون
۳۵ : More	مور
۲۶۷ : Moore	مور (-)
۲۲۱ : Morris	مورس (ولیم)
۲۷۵ - - ۲۷۲ . ۲۲۶ : Maugham	موم
۱۴۴ : Montagu	مونتاجیو (مسز)
۱۴۵ : Montague	مونتاجیو (لادی)
۲۵۱ — ۲۴۸ : Meredith	میربڈت
۱۹۳ : Mille	میل (سٹوارٹ)

(ن)

۵۰ : Nashe	ناش
۳۵ : North	نورث
۵۶ : Norton	نورٹون
۳۵ : Nox	نوکس
۲۳۵ : Noys	نویس

(۵)

۲۰۶ : Haggard	ہاگارد
۲۵۴ — ۲۵۲ . ۲۲۴ — ۲۲۲ : Hardy	ہارڈی (ٹوماس)
۱۸۷ — ۱۸۵ : Hazlitt	ہازلٹ
۵۵ : Heywood	ہایوود (-)
۶۱ : Heywood	ہایوود (ب)
۹۸ : Herbert	ہربرت (-)
۱۹۲ : Huxley	ہکلی (ٹوماس)

۲۸۱ — ۲۷۹ : Huxley	هکسلی (آلدیس)	کاول
۲۵۲ : White	هوايت	کولد
۱۸۸ : Hunt	هنت	کوا
۱۰۸ : Hobbes	هوبز	کون
۵۴ : Hooker	هوکر	کون
۲۵۸ : Hearn	هیرن	کیت
۹۸ : Herrick	هیریک	کید
۱۵۹ : Himans	هیمانس (مسر)	کین
۲۷۰ : Hewlett	هیولت	
۱۲۴ : Hume	هیوم	

(و)

۲۴ : Warner	وارنر	لانی
۱۲۴ : Walpole	والپول	لام
۲۷۱ : Walpole	والپول	لان
۹۵ : Walton	والتون	لج
۱۰۰ : Waller	والر	لما
۲۳۹ — ۲۳۷ : Wilde	وایلد	لود
۷۰ : Webster	ویستر	لور
۱۵۶ — ۱۵۳ : Wordsworth	وردسورث	لورک
۲۶۵ — ۲۶۲ : Wells	ولز	ل
۱۹۶ : Wood	وود (هنری)	لنتو
۲۷۹ : Woolf	وولف (مسر)	لیلی
۱۱۷ : Wycherley	ویشرلی	
۱۹۶ : Quida	ویدا	مار
۴۸ : Wither	ویذر	مار
۱۲۲ : Wesley	ویزلی	مار
۱۲ : Wace	ویس	مار
۱۷ : Wyclif	ویکلف	ما
۲۷۰ : Weyman	ویمان	

(ی)

۳۶ : Wyat	نات
۵۶ : Udall	یودول
۱۴۹ : Young	یونج
۲۳۰ — ۲۲۷ : Yeats	ییتس

شارع القصر العربي بالقاهرة دار الفكر العربي تليفون ٦٤٦٧ د

أصدرت حديثاً

• رسائل صاحب بن عباد : نشر وتحقيق الدكتور عبسد الوهاب

عزام بك والدكتور شوقي ضيف

وثائق أدبية بديعة تفسر حياة النثر العباسي في القرن الرابع على لسان أهم كتّابه تفسيراً دقيقاً ، ثم هي وثائق تاريخية خطيرة تكشف عن كثير من الواحى السياسية والاجتماعية للدولة البويهية ، تضيف إلى كتب التاريخ كثيراً من الحقائق ، وتعديل فيها كثيراً من الوقائع . وثمنه ٤٠ قرشا

• المجالس المستنصرية لداعي الدعاة : نشر وتحقيق الدكتور محمد كامل

حسين ، أول كتاب ينشر في الشرق لداع فاطمي ، يحوى خمسة وثلاثين مجلساً من مجالس الحكمه التأويلية التي كان يلقيها هذا الداعي وهي تبحث في فقه المذهب الفاطمي وبها كثير من التأويلات الباطنية . وثمنه ٢٥ قرشا

• اعماظ الحنفا بذكر الأئمة الخلفاء : نشر وتحقيق الأستاذ جمال الدين الشيال

الكساب القديم الوحيد في تاريخ الدولة الفاطمية ، أول دولة استقلت بمصر استقلالاً تاماً في العصر الإسلامي ، تأليف مؤيد النسب الفاطمي وزعيم مؤرخي مصر الإسلامية تقى الدين المقرئى ؛ مع مقدمة إيضاحية ، وتعليقات وافية ، وملاحق مكمله بقلم المؤلف نفسه وفهارس تفصيلية شاملة .

وثمنه ٤٠ قرشا

• كتاب التمهيد في الرد على الملحدة والمعطلة والرافضة والخوارج :

لعلامة الإسلام الجليل وصحته على المخالفين ، الفاضل أبى بكر الباقلانى :

نشر وتحقيق الأستاذان محمود محمد الحضرى ومحمد عبد الهادى ابو ريدة

بمجل ذروة عالية من درى علم الكلام في رده على جميع المخالفين من أصحاب

المذاهب الدينية والفلسفه ، ومحرره للعقيدة السنية في المسائل العقلية والدينية

الكبرى ، وهو يصور المشكلات العقلية والدينية في القرن الرابع الهجرى

وثمنه ٤٥ قرشا

